أحلام مُحطّمة

بيولنت سينوكاك

ترجمة: محمد أسامة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

أحلام مُحَطَّمة

أحلام محطمة
تأليف: بيولنت سينوكاك

ترجمة: محمد أسامة

الطبعة الأولى: 2016
رقم الإيداع: 21426 / 2016
الترقيم الدولي: 9789773193133

الغلاف: خالد شريف
تحرير: إيزيس عاشور

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

©BÜLENT ŞENOCAK / KALEM

بيولنت سينوكاك

أحلام محطمة

حادثة اغتيال القنصلين في "سالونيكا" وتبعاتها

رواية من تركيا

ترجمة: محمد أسامة

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب
This book has been translated with the assistance
of the Sharjah International Book Fair Translation
Grant Fund

بطاقة فهرسة

سينوكاك، بيولنت

أحلام محطمة: رواية من الأدب التركي/ تأليف بيولنت سينوكاك، ترجمة: محمد أسامة

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2016،

ص؛ سم.

1- القصص التركية

أ- أسامة، محمد (مترجم)

ب- العنوان

إلى أمي جيلمسار شانوجاك،

التي علمتني الحب، والاحترام، والتسامح،

وأن أكون سعيدًا بكل ما هو صغير في الحياة.

"سالونيكا" - ٣ مايو ١٨٧٦

تردد صوت الأذان الصادر من مئذنة مسجد "ساعتلي" في الحي المسلم الذي يمتد على طول الهضبة. وتلألأ ضوء مصابيح الزيت المرتعش على شبابيك المنازل الخشبية المشغولة حيث يبدأ اليوم مع صلاة الفجر، لترتجف ظلال المصلين المسرعين إلى المسجد في تناغم مع ارتعاشة ضوء المصابيح الزيتية.

جهر المصلون في مسجد "ساعتلي" بالتكبير ما بين ركوع وسجود، والشمس تنتظر بصبر في احترام وتبجيل انتهاء الصلاة، وحينما جاء دورها، ارتفعت مشرقة من وراء شبه جزيرة "خالكيذيكي".

على بعد شارعين، تردد صدى أجراس كنيسة سانت كاترينا في غرفة "سليمان"، فأفاق من كابوسه وهو يصرخ:

- لم أحرق الكنيسة، أقسم أني لم أفعل ذلك.

كان يرتعد من الرعب وثياب نومه تقطر عرقًا.

وقف "عبد الـلـه"، الأخ الأكبر، أمام سريره ناظرًا إلى "سليمان".

- ما الأمر يا "سليمان"؟ تبدو كمن رأى كابوسًا.

- نعم، نعم!

- لقد ظللت تهذي خلال نومك حتى الصباح. أردت إيقاظك لصلاة الفجر لكن نفسي لم تطاوعني على ذلك.

فرك "سليمان" عينيه وقال بصوت مرتجف:

- كنت خائفًا للغاية يا أخي. لكنه كان حلمًا، الحمد لله.

- تماسك يا أخي. ماذا هناك لتخشاه؟

- لا أعرف يا أخي. حلمت بمسجد. كان هناك جند داخل المسجد، ثم نشب عراك، قبل البدء في مطاردتي. اصطحبوني إلى مكان يشبه السجن، ثم إلى سفينة.. نعم، كنت في سفينة. حلمت بالموج. لم أكن أعرف وجهة السفينة، وبعدها حجب الغيم الرمادي الداكن السماء. كانت ليلة طويلة ومظلمة، ثم جاء الصبح. رست السفينة في مكان ما. اتضح أنه جزيرة. كانت هناك قرية بها مسجد وكنيسة، ثم أخذ كاهن يرتدي لباسًا أسود يصيح في وجهي: "لقد أحرقت الكنيسة أيها التركي اللقيط". حاولت معهم كثيرًا، لكني فشلت في إقناعهم. سحبوني من ذراعي. رأيت مشنقة، واستيقظت وهم يحكمون الحبل حول رقبتي.

- عسى ألا يكون نذير شؤم، دعنا نأمل ذلك.

- ما تأويل هذه الرؤيا؟

- الـلـه أعلم. دعك من هذا، ولا تشغل بالك. إنه مجرد حلم. هيا انهض. الإفطار جاهز. هيا بنا إلى الطابق الأسفل.

* * *

وُلد "سليمان" على بعد قليل من الشوارع من هناك، على التل الواقع خلف مسجد "ساعتلي"، في قصر يتوسط حديقة كبيرة. اشترى والده "محمود بك" القصر بعد تعيينه قائدًا لقلعة "سالونيكا". يقع القصر على بعد متوسط من الميناء، في حي تركي متواضع، شوارعه ضيقة متعرجة، بمقاطعة تُدعى "سالونيكا الصغرى".

كانت مقاطعة من المنازل ذات الطابقين ومبنيَّة على الطراز التركي التقليدي، بحدائق واسعة. يغطي الطلاء الأبيض الحوائط المواجهة للشارع، وتزينها شبابيك مشغولة. صُممت معظم المساكن بحيث تحوي أماكن مخصصة للرجال منفصلة عن أماكن النساء. بعض المنازل خشبية، بطابق أرضي أسود الطلاء وآخر علوي أحمر.

مثل كثير من المنازل في "سالونيكا"، امتد طابق قصر "محمود بك" العلوي لمسافة ياردة مشرفًا على الشارع. يؤدي المطبخ في الطابق الأرضي إلى حديقة كبيرة، تتوسطها بئر مزودة بمضخة يدوية. تقع إلى جانب البئر تعريشة ذات مساحة كبيرة بعض الشيء، يتدلى من فوقها نبات الجليسين المتسلق، وفي ظلها يتناولون طعامهم ربيعًا وصيفًا.

في طفولتيهما، اعتاد "سليمان" وشقيقته تسلُّق التعريشة والجلوس هناك لساعات. كان "سليمان" يتأرجح أحيانًا على عوارض التعريشة الخشبية حتى تؤلمه ذراعاه ولا يعد بإمكانه المواصلة. لكن "محمد" شقيقهم الكبير لم يشاركهما هذا اللعب قط، كان بالكاد يراقبهما على مقربة.

في إحدى المرات، بينما كان "محمد" يطالبهم بتوخي الحذر، سقط "سليمان" من على التعريشة وكسر ساقه اليمنى. وضع له طبيب يهودي – أحد أصدقاء

والده - جبيرة، وأمره بالبقاء داخل المنزل إلى أن يحين وقت إزالتها. تعلَّم "سليمان" الدرس وأقسم ألا يتسلق التعريشة مرة ثانية.

بعدها بفترة قصيرة، فقد "سليمان" والديه، لكن الأخ الأكبر "عبداللـه" وزوجته "لطفية" اللذان ورثا القصر، واللذان عجزا عن إنجاب أي طفل رغم محاولاتهما المستمرة، توليا رعاية "سليمان" الصغير.

عندما بلغ "محمد" - شقيق "سليمان" الأكبر – سن المراهقة، التحق بالعمل مع تاجر أثواب يهودي حتى لا يكون عبئًا على شقيقهم الأكبر، وسرعان ما أصبح بمثابة يد التاجر اليمنى.

في أحد أيام الربيع، دخلت فتاة إلى المِحَل مع أسرتها، فوقع "محمد" في غرامها من النظرة الأولى. وعندما زارت الأسرة المِحل في المرة التالية، لاحظ "محمد" أن الفتاة تبادله المشاعر. سعى الفتى إلى معرفة اسم والدها وموطنها، وفوجئ عندما اكتشف أنهم من قرية "كيرجالي". أنفقت الأسرة مبلغًا ضخمًا في المِحَل وكان من الواضح أنهم ميسورو الحال. لم يخطر على باله قط احتمال كونهم من سكَّان القرى.

إلا أن ذلك لم يثنه عن رغبته، وأقنع شقيقه "عبداللـه" بطلب يدها له من أهلها. ذهب "عبداللـه" وزوجته إلى القرية أحد الأيام، وحصلا على موافقة والدها، ليتزوج العروسان في زفاف قروي بسيط. لم تبد الفتاة أي ميل أو رغبة في العيش في المدينة، لذا استقر "محمد" في القرية.

لم يمر وقت طويل على الزفاف حتى أعلن والد العروسة عن رغبته في التقاعد، ولما كان أبنائه صغارًا، طلب من "محمد" إدارة مصالحه. هكذا تولى "محمد" الإشراف على جميع أنشطة حماه، بدءًا من حراثة الأرض، والزراعة وجني

المحصول، وحتى التسويق. لم يرَ "سليمان" زوجة أخيه "محمد" إلا مرة واحدة، عندما جاءا لتهنئة الأخ الأكبر "عبداللـه" بمناسبة أحد الأعياد الدينية.

همست "خديجة" في أذن "سليمان" بصوت تشوبه الغيرة:

- أهذه الفتاة التي ذهب وراءها إلى القرية؟ إنها قبيحة جدًا.

فهمس "سليمان" بدوره:

- الحب أعمى، لا يمكنه التفرقة بين الذهب والخراء.

وأخذا يضحكان سرًا. حينها سألهما "عبداللـه" عن سبب الضحك، فأجابه "سليمان":

- لا شيء.

لكن في أحد الأيام، بلغهم نبأ مقتل "محمد" وثمانية آخرين في كمين نصبته الميليشيات البلغارية لهم في طريق عودتهم من الحقول. قال القروي الذي حمل إليهم هذه الأنباء المحزنة: "أرجو أن تتقبل تعازي يا "عبداللـه بك". لقد كان أخوك محبوبًا للغاية ومبجلًا في القرية. إن الحزن يملأ قلوب الجميع. ندعو اللـه أن يرحمه ويلهمكم الصبر". وقبل المغادرة، أعطى القروي "عبداللـه بك" بطاقة هوية كان يحتفظ بها "محمد" مطوية في طربوشه. وبدافع من الفضول، طلب "سليمان" رؤية البطاقة، قبل أن يضعها في جيبه خفية. واحتفظ بها في أحد الأدراج بالمنزل، واعتاد إخراجها بين الحين والآخر لإلقاء نظرة عليها.

أما عن شقيقتهم "خديجة"، فعندما بلغت التاسعة عشر، تزوجت "إبراهيم بن كدخدا" سليل العائلة الثرية. وبعد مغادرتها، بقي "سليمان" وحده في القصر الكبير، في صحبة شقيقه وزوجته.

عقب وفاة "محمد" ومغادرة "خديجة"، أفاض الأخ الأكبر وزوجته على "سليمان" بالرعاية والحنان، فعاش مدلَّلًا، إلى درجة أنه بلغ سن السادسة والعشرين دون الحصول على وظيفة لائقة. عمل "سليمان" في وظائف مختلفة وفَّرها له أخوه، بصورة متقطعة، كما كان يؤدي بعض المهام نيابة عن أخيه أحيانًا.

* * *

نادت زوجة "عبداللـه" بصوت عالٍ من المطبخ:

- هيا، ما الذي يؤخركما؟ الإفطار جاهز والشاي سيبرد.

- نحن قادمان، كنت أخبر أخي بشيء ما فقط.

رغم سماع "لطفية هانم" جواب "سليمان"، إلا أنها نادت ثانية:

- هيا، أسرعا!

ثم قالت محدثة نفسها متذمرة: "آه يا "عبد اللـه"، إنك تفسد هذا الشاب بتدليلك"، وكأنها لا تحمل وزر ذلك مناصفة مع زوجها.

- هيا، تناولا الطعام، هذا طعام منزلي الصنع، أعددته كله بنفسي.

قال "سليمان" عند رؤية فطائر الكراث:

- رائع! كم أحب فطائرك هذه! لا بد أنك شعرت باشتياقي إلى تناولها.

أسعدت هذه الكلمات "لطفية هانم".

- لقد فاجأني مديحك! لكن – على أي حال – شكرًا على المجاملة.

جلس "عبداللـه" إلى مائدة الإفطار صامتًا، وفي إحدى فترات السكون التفت إلى "لطفية" وقال:

- فلندعو "خديجة" هذا المساء، ولنرى ابنتها "أمينة" أيضًا، إنها توشك أن تتم عامها الخامس ولا تتسنى لنا رؤيتها إلا في المناسبات. إن "خديجة" تتجاهلنا، لا تزورنا إطلاقًا ولا ترسل ابنتها لنراها.

ردت "لطفية":

- توقف عن اتهامها بذلك، إنها تعيش في ظروف صعبة، فلقد قضت مع "إبراهيم" خمسة عشر عامًا، وهو ناقم عليها بشدة لعدم إنجابها الولد، لدرجة أنه يمنعها من مغادرة المنزل.

- هذا ليس ذنبها يا عزيزتي. لقد أنجبت الكثير من الأولاد، لكن اللـه توفاهم جميعًا. فلو أخذنا "أمينة" في الحسبان، لن يقل عدد من أنجبتهم عن عشرة أطفال. لا بد أن هناك خطأ ما. لقد توفي جميع أطفالها. إنها مشيئة اللـه، فهو يمنح الحياة ويسلبها.

- أنت محق، حتى إن "إبراهيم بك" تزوج بأخرى طمعًا في أن تنجب له الذكر، لكن عدالة اللـه لا تغيب. فلم تتمكن من ذلك أيضًا، بل أنجبت له – عوضًا عن ذلك – ثلاثة بنات.

- حتى هي انقطعت عنا أيضًا، لقد ذهبت إلى "باندرمة" منذ فترة لزيارة أهلها. أعتقد أنها فضلت البقاء هناك.

- لا أعرف، لكن هذا احتمال كبير. على كل حال، لمَ نشغل أنفسنا بها؟ إنها امرأة غريبة عنا.

- حسنًا، حسنًا! صبي لنا الشاي.

إسطنبول – ١٦ مارس ١٩٢٠

أيقظ القلق "مديحة هانم" قبل موعدها المعتاد. حدَّقتْ في السقف قليلًا إلى أن اعتادت عيناها الظلام، ثم أزاحت لحاف الساتان الوردي المطرز برسوم الخشخاش، وغادرت السرير بحذر شديد كي لا توقظ زوجها. لبست شبشبها، وارتدت سترتها الصوفية فوق رداء النوم الوردي الخفيف، وسارت حتى النافذة الفرنسية الطراز المطلة على الطريق، وأزاحت الستائر قليلًا لتسمح بمرور حزمة من الضوء. سقط الضوء مباشرة على وجه "تحسين بك"، فتقلَّب في السرير هربًا منه، أمَّا "مديحة هانم" فواصلت النظر إلى الطريق، غافلة عما سببته لزوجها من إزعاج.

فتح الخبَّاز اليوناني "قسطنطينوس" أبواب مخبزه في أولى ساعات الصباح كعادته. رأته يُخرج أرغفة الخبز من الفرن الطوبي ويرصها على منضدة العرض، ثم رأت الأخوة "بوليزي" الذين يديرون محل الخضروات في نهاية الشارع، كان أحدهم يكنس الطريق أمام المحل، بينما الآخر ينظف النوافذ. تمتمت "مديحة هانم" محدثة نفسها: "يا لاجتهاد هؤلاء الكفَّار!".

أزاحت الستائر قليلًا ودخلت البلكون الضيق. تنفست هواء الصباح وأنصتت إلى صوت الشارع في الأسفل. كانت زقزقات العصافير هي الصوت الوحيد المسموع في تلك الساعة، تعلو زقزقة كل واحدة على أختها كأنها

تنافسها. وفجأة، قطع الهدير المتقطع لترام "تقسيم" سيمفونية الطيور المبهجة وهو يمر بالناصية قادمًا من جهة الكلية الحربية، ومع تردد صدى نداء بائع اللبن بين جدران المباني، ودوي كرباج سائق العربة الذي يدفع به حصانه للإسراع بينما يصيح بأعلى صوته "انتبه، أفسح الطريق!"، "فاردا! فاردا!"، محذرًا المارة، ملأ الضجيج الشارع، فهربت العصافير إلى أشجار حدائق الكلية الحربية، لتكمل هناك نشيد الصباح العذب.

بعد أن وقفت تشاهد الطريق لبعض الوقت، عادت "مديحة هانم" إلى الداخل ونزلت إلى المطبخ لإعداد إفطار "تحسين بك". أشعلت موقد الغاز، ووضعت عليه إناء السماور لإعداد الشاي، حيث ملأته بالماء حتى منتصفه، ثم وضعت برَّاد الشاي في نصفه العلوي. ومع غليان الماء، أضافت أوراق الشاي وصبت الماء الساخن في البراد الذي يشكل نصف السماور الأعلى، ثم أضافت بعض قشور الليمون التي قطفتها لتوها من الشجرة في الحديقة الخلفية. تعلمتْ طريقة إعداد الشاي هذه من جارتها "مدام إليكترا" في "سالونيكا".

مع تلوُّن الماء بحمرة الشاي، تذكرت موقد الكيروسين في منزلهم في "بوكدري"، كان إشعاله يتطلب جهدًا كبيرًا، ناهيك عن استخدامه في غلي الماء. خطر على بالها حينئذ كم هي محظوظة لامتلاك جميع وسائل الراحة الحديثة تلك التي حصلوا عليها بانتقالهم إلى "بانجالدي".

كانت الشوارع في أحياء وسط إسطنبول تُضاء بمصابيح الغاز منذ عهد السلطان "عبد المجيد"، قبل حوالي خمسين عامًا، حين تمت خصخصة "غازخانة قصر طوملم باغجه" وبيعها إلى شركة "بايوغلو - ينيكوي التركية المحدودة للغاز"، التي أسسها المصرفيان الباريسيان "أوكتاف بيزانسون" و"لويس بوير"، وما تزال هذه الأحياء حتى الآن هي الوحيدة التي يتاح فيها غاز المدينة للاستخدام المنزلي.

بعد أن صبت "مديحة هانم" الشاي وأعدت المائدة، أيقظت "تحسين بك".

- حان وقت الاستيقاظ يا "تحسين"! لقد طلبت مني إيقاظك مبكرًا هذا الصباح.

- حسنًا، سأنهض يا عزيزتي.

- سأفتح النافذة لتجديد الهواء.

- جيد.

جلس "تحسين بك" على السرير وارتدى شبشبه، وتمطى قبل أن تساعده "مديحة هانم" في ارتداء الروب الساتان. ثم شرع في طقسه الصباحي المعتاد؛ المكون من غسيل الوجه، وترغية صابون الحلاقة باستخدام فرشاة الحلاقة، ثم الحصول على حلاقة نظيفة يتبعها رش عطر ما بعد الحلاقة الذي اشتراه من بيروت، قبل أن ينهي المراسم الصباحية بفتل شاربه – مصدر فخره وقرة عينه – بالإبهام والسبابة، مع ترك الأصابع الثلاثة الباقية معلقة في الهواء. بعد الانتهاء من ذلك، توجَّه "تحسين بك" إلى غرفة الطعام وجلس إلى المائدة التي أعدتها "مديحة هانم" بعناية فائقة.

كان الإفطار يتكون من جبن بلغاري من ألبان "جورجي"، وزبد شهي أحضره أقارب "تحسين" من "باندیرما"، وأنواع من المربى منزلية الصنع أعدتها "مديحة" بنفسها، وخبز الجاودار الطازج الفوَّاح الذي اشتراه الخادم لتوه من الخباز اليوناني.

يرجع البعض تسمية هذا الحي بـ"بانكالدي" إلى كلمة "باني كالدي" الإيطالية التي تعني الخبز الساخن، وأنها تحوَّرتْ مع اللسان التركي فأصبحت "بانجالدى". يزعم آخرون أنه سُمي باسم مخبز إيطالي يدعى "باني إيه جاليتي"، لكن لما كان جميع خبازي الحي من اليونانيين أو الأرمن، لم تحظَ هذه الفرضيات بالقبول. أمَّا "تحسين بك" - المهتم بدراسة أصول الكلمات – فقد قضى بعض الوقت محاولًا الوصول إلى أصل التسمية، قبل أن يخبره بروفيسور تاريخ إيطالي قابله مصادفة بأن الحي سُمي بذلك نسبة إلى "جيوفاني باتيستا بانكالدي"، ابن "بولونيا" الذي فتح مقهى شعبي في هذه المنطقة قبل تطويرها بفترة. وقد اعتاد الناس – حسب بروفيسور التاريخ الإيطالي – قول "نحن ذاهبون إلى بانكالدي"، وذاع صيت المكان حتى اشتهرت المنطقة بمرور الوقت باسم "بانكالدي".

كانت "بانجالدي" البقعة المفضلة للصيادين والمتنزهين، قبل أن يتم تطويرها إلى حي راقٍ في نهاية القرن التاسع عشر. ومع ظهور الترام الذي يقوده الخيل في ١٨٨١، والترام الكهربائي في ١٩١٣، وتوسيع شبكة الغاز

والكهرباء، والتشريعات التي سمحت للأجانب بامتلاك الأراضي، أخذت تنتشر في المنطقة البيوت المحاطة بالحدائق الواسعة، ثم لحقت بها المباني السكنية.

جاء التطور بالمدارس والكنائس مواكبًا له، ونبتت على جانبي طريق "شيشلي" كاتدرائية "الروح القدس"، و"مدرسة نوتردام دي سيون للفتيات"، و"مدرسة الأرمن الكاثوليك النموذجية للفتيات"، و"بيت الفقراء الروسي"، والسفارة الرومانية، وشُيدت التكية و"مستشفى حميدية للأطفال" التي بناها السلطان "عبد الحميد الثاني" تخليدًا لذكرى ابنته "خديجة" التي توفيت خلال طفولتها. كانت جميع هذه المباني خير مثال على العمارة العثمانية المتقنة. سرعان ما بدأ اليونانيون والشوام والأرمن في الإنتقال إلى هنا بعد أن فقدوا منازلهم في حريق "بيوغلو" الكبير، ومع ازدياد الكثافة السكانية، ظهرت المحلات التجارية الفاخرة، والمطاعم، والملاهي الليلية. وبعد فترة قصيرة، أصبحت منطقة "بانجالدي" محل اهتمام النخب العثمانية الجديدة، التي ينتمي إليها "تحسين بك"، الذي مر أكثر من عام على انتقاله وأسرته للعيش هنا. والحق أن الأمن كان من بين العوامل الرئيسية التي أثَّرت في قرار الإنتقال إلى "بانجالدي". كما كان يعيش هنا عدد من الباشوات وأعضاء البرلمان، أكثرهم شهرة هم "إسماعيل حقي باشا"، و"حسين حلمي باشا"، و"أدهم باشا"، و"شكري باشا" و"أشرف باشا".

من بين جميع هؤلاء الباشوات، كان "مصطفى كمال باشا" هو الأقرب إلى قلب "تحسين بك". كانت هناك صداقة قديمة ودافئة تربط بين الرجلين، رغم فارق في العمر يبلغ ثلاثة أعوام لصالح "تحسين بك". فقد كانا يزوران بعضهما بكثرة أيام شبابهما في "سالونيكا"، وكثيرًا ما تقاطعت مساراتهما في

الحياة خلال السنوات الأخيرة. كما انضما إلى جمعية الإتحاد والترقي في الوقت نفسه تقريبًا، وكان لكل منهما والدة حنونة، تحمل عضوية الجمعية أيضًا.

زادت علاقتهما متانة حينما كانا يقيمان في دمشق، حيث شغل "تحسين بك" منصب الوالي وقائد سلاح الفرسان، وشغل "مصطفى كمال باشا" منصب قائد لواء المشاة الخفيفة. ولا شك أن الرسالة التي أرسلها "مصطفى كمال باشا" إلى السلطان بواسطة "ناجي باشا" رئيس الأركان، كانت تعبِّر عن قوَّة العلاقة التي تربط بين الرجلين، حيث قام "مصطفى كمال باشا" بترشيح "عزت باشا" رئيسًا للوزراء بدلًا من "توفيق باشا"، مع مجلس وزراء يضمه، و"تحسين"، و"فتحي"، و"حسين"، و"رؤوف"، و"عزمي"، وشيخ الإسلام "خيري بك".

كثيرًا ما التقى الرجلان في إسطنبول بعد عودتهما من دمشق، ثم ازدادت اللقاءات بعد الانتقال إلى "بانجالدي". لكن هذه الجيرة لم تستمر طويلًا، فقد غادر "مصطفى كمال باشا" إسطنبول في ١٦ مايو ١٩١٩، على متن السفينة البخارية "باندیرما" التي رست في "سمسون" في ١٩ مايو، ليتسلم وظيفته مفتشًا على الجيش التاسع، وهي الفرصة التي استغلها لإشعال حرب التحرير. وبينما كان "مصطفى كمال باشا" يغادر منزل "بانجالدي"، طلب من "تحسين بك" الاعتناء بوالدته وشقيقته.

كان مالك العقار الذي يسكن فيه "تحسين بك" شامي من أصول إيطالية، يُدعى "إدواردو دروسا"، وهو من بنى ذلك المنزل المكون من طابقين قبل سنوات. كان المطبخ والمكتب يؤديان إلى الحديقة الخلفية التي تحوي – رغم مساحتها المتوسطة – نافورة من الرخام الإيطالي، وتعريشة بزهور وردية متسلقة، وحديقة أزهار صغيرة، وشجرة ليمون فوَّاحة، وعدد آخر من أشجار الفاكهة. أمَّا حجرة المعيشة وحجرة الطعام فتقعان في مواجهة الشارع، ويضم الطابق العلوي غرف النوم. كانت حجرة النوم الرئيسية لها نافذة فرنسية، بينما تربط بلكون ضخم – إلى حد ما – بين حجرتي النوم اللتين تقعان بمواجهة الحديقة.

قام "إدواردو" بفرش المنزل إرضاءً لزوجته "كلوديا". تم استيراد معظم الأثاث من "بولونيا"، وجيء بالنجفة الضخمة التي تزين المدخل من جزيرة "مورانو" في "فينيسيا". لكن التلف أصاب النجفة أثناء رحلتها البحرية، فكان من حسن الحظ أن استطاع "أبوستولوس أناستاسياديس" تاجر الكريستال والخزف في شارع "شيشلي"، العثور على حرفي بارع تولى إصلاحها بإتقان تعجز معه العين المجردة عن تمييز أي عيب.

في أحد الأيام، اشتكت "كلوديا" من مغص وانتفاخ، فنصحهما الأصدقاء بزيارة "جاربيد هاندجيان"، الطبيب الأرمني الشهير، وهناك أخبرهما الطبيب بعد الفحص أن الأمر يرجع إلى تناول بعض الأطعمة الفاسدة، ووصف لها دواء خفف من حدة الألم لبعض الوقت، لكن سرعان ما عاود المرض هجومه ولم يعد للدواء أي تأثير يُذكر. تدهورت حالة "كلوديا" سريعًا، وأسلمت الروح قبل مرور شهر واحد. أقيمت لها جنازة بسيطة في كاتدرائية "سانت إسبرت"، حضرها كثير من طليان وشوام "بيوغلو" و"بانجالدي" لتقديم واجب العزاء.

انهار "إدواردو"، خاصة مع فقده والدته مؤخرًا. ولمَّا لم يعد هناك سبب لبقائه في إسطنبول وحده، قرر السفر للعيش مع ابنته التي سبقته إلى إيطاليا قبل ثلاث سنوات، عقب زواجها بمعماري إيطالي. شرع "إدواردو" في تصفية أعماله وعرض المنزل للإيجار بكامل أثاثه.

كان "حامد أفندي"، صديق "تحسين بك" المقرَّب، على علم برغبة الأخير في الإنتقال من منزله في "بوكدري"، فلمَّا اتصل "إدواردو" بشركة الشحن الواقعة في "فينديكلي"، والمملوكة للإنجليزي "بريان ويلكنسون"، حيث يعمل "حامد أفندي"، للاستفسار عن مواعيد الشحن، علم "حامد أفندي" بعزم "إدواردو" على ترك منزله، وأخبر على الفور "تحسين بك"، الذي ذهب لمعاينة المنزل. أُعجب "تحسين بك" بالمنزل وقرر استئجاره، لكنه طلب من "حامد أفندي" ألا يذكر أمر عضويته في البرلمان. "إن لم تجد مفرًا، فلتخبره أني كدخدا، هاجر من "سالونيكا" إلى إسطنبول عقب حرب البلقان". وهكذا سار الأمر وفق رغبة "تحسين بك"، فسبق لقب "كدخدا" اسمه في عقد الإيجار.

لم تغيِّر "مديحة هانم" ديكور المنزل، لكنها وضعت زوجي سجاد "أوشاكي" في حجرة المعيشة، في مكان السجاد الإيراني الذي لم يستطع "إدواردو" التخلي عنه. كذلك، أضافت مدخنة نحاسية إلى أحد أركان الحجرة، كانت مدخنة مصنوعة يدويًا من قبل نحَّاس يوناني في ١٨٩٦، ورثها "تحسين بك" عن والدته. كما عدَّلت وضع المكتب المصنوع من خشب الماهوجني والكرسيين المزودين بمسند الذراع في حجرة المكتب بحيث تواجه الحديقة الخلفية. لم تقم بأي تعديل في حجرة الطعام، أو حجرة المعيشة، أو غرف النوم، اللـهم إلا تنجيد كراسي لويس السادس عشر، حيث تولى ذلك المنجد "فورتيك" صاحب المحل في الناحية الأخرى من الطريق.

وضع "تحسين بك" بعض الزبد على الخبز، وقطع شريحة رقيقة من الجبن البلغاري وأكلها بلذة، قبل أن يأخذ رشفة يبتلع بها الطعام من الشاي. وعلى الرغم من عشقه لمربي البرتقال اللاذعة التي تعدها زوجته، فإنه لم يمسها هذا الصباح.

جلست "مديحة هانم" تشارك زوجها الإفطار، وترقبه والقلق يطل من عينيها. كانت واثقة من أن أمرًا شديد الأهمية يشغل باله، لكنها لم تملك الجرأة للاستفسار عنه. كان "تحسين بك" كتومًا للغاية فيما يخص عمله الحكومي.

حينما شعر "تحسين بك" بقلق زوجته، فكَّر في مصارحتها؛ "أخشى أن تكون مغادرتي المنزل اليوم بغير رجعة"، لكنه لم يستطع قول ذلك. ابتلع "تحسين بك" طعامه في صمت وغادر السفرة.

في غرفة نومه، ارتدى البنطلون الأسود، وقميص عاجي اللون، وكرافت سوداء منقطة بلون القميص. وقف "تحسين بك" بعض الوقت في مكانه، يعدِّل من وضعية ربطة العنق ويفكر. لقد تذكر حادثة محزنة وقعت أثناء ولايته على دمشق. كان "حسين" أخوه قد باع جزء من أرض "رادومير" التي ورثوها من والدهم، وأخذ نصيب "تحسين بك" نقدًا في حقيبة أثناء رحلته البحرية من إسطنبول إلى دمشق، لكن "حسين" لم يستطع مقاومة أوكار قمار بيروت وملاهيها الليلية، فبدد حقيبة كاملة من الأموال على مناضد القمار وبين أحضان الفاتنات العربيات. ولم يبق معه إلا ما يكفيه للسفر إلى دمشق.

كان "تحسين بك" غاضبًا من أخيه، لكنه لم يقل شيئًا احترامًا لذكرى والدتهما. ولقد رتب سفر "مقبولة" زوجة أخيه إلى دمشق مستقلة القطار، في إحدى عربات النوم الخاصة، كي تقضي مع "مديحة" و"حسين" بعض الوقت.

أحضرت "مقبولة" الهدايا لشقيق زوجها وزوجته، كان من بينها الكرافت ذات النقاط العاجية، التي أصبحت المفضلة عند "تحسين بك"، والتي تذكِّره أحيانًا بأيامه في دمشق. أدهش "تحسين بك" نفسه باهتمامه بكرافت في مثل هذه اللحظة الحرجة، واسترجاعه لذكرى الأموال التي خسرها شقيقه في أوكار القمار وملاهي بيروت الليلية.

هز "تحسين بك" رأسه قليلًا، وأنهى ضبط الكرافت، قبل أن يرتدى صديري مقلمًا ومعطفًا للمناسبات الرسمية. ثم هبط على السلم الرخامي وخلع شبشبه. ارتدى الحذاء الجديد – الذي أصرت زوجته على شرائه من صانع الأحذية "بوغوس كديدخيان" – بدلًا من حذائه المعتاد، الذي أكسبه الورنيش بعض الصلابة، وبدأت الشقوق تظهر على سطحه. ودَّع "تحسين بك" زوجته، ثم سار بضع خطوات باتجاه البوَّابة الزجاجية ذات الإطار الحديدي، حيث ارتدى طربوشه وتفقَّد هيئته في المرآة وفتل شاربه مرة أخيرة.

وقف "تحسين بك" عند البوابة لحظة، ونظر حوله، ثم هبط درجات السلم الست إلى الشارع، متجهًا إلى عربة الخيل التي تنتظر الركاب عند ناصية الكلية الحربية.

ما إن رآه السائق حتى ألقى عليه التحية التقليدية، وهو يضع يده اليمنى على قلبه ثم يرفعها عند جبهته ويحني رأسه علامة على الإحترام. لكن بال "تحسين بك" كان مشغولًا لدرجة أنه لم ينتبه إلى تحية "عوني" سائق العربة.

كان "تحسين بك" أحد ركاب "عوني" المفضلين، هؤلاء الذين يتركون بقشيشًا سخيًا، لذا لم ينزعج عندما لم يرد "تحسين بك" تحيته.

- إلى أين، يا سيدي؟

أجابه "تحسين بك":

- إلى مبنى البرلمان.

* * *

ضرب "عوني" الهواء بكرباجه فشرع الحصان في الحركة. وفي منتصف الطريق تقريبًا، عجز السائق عن التحكم في نفسه، وسأل:

- هل حدث شيء يا سيدي؟ تبدو مشغول البال اليوم. أتمنى أن تكون جميع الأمور على ما يرام.

لكن "تحسين بك" لم يسمعه، فقد كان ذهنه مشغولًا بأمر آخر. كان يفكر في الإحتلال البريطاني الذي يقترب من السيطرة على عديد من المصالح الحكومية في إسطنبول، بما فيها مبنى البرلمان نفسه، وشعر بالندم على رفضه عرض "مصطفى كمال" للانتقال إلى الأناضول.

لم يلحظ "تحسين بك" أول الأمر اقترابهم من "فينديكلي"، فقد كان غارقًا في أفكاره، لكن سرعان ما أدرك أن الجنود البريطانيين يحاصرون البرلمان، كان من الواضح أن الأمور ليست على ما يرام. طلب "تحسين بك" من السائق التوقف، فجذب "عوني" اللجام ليرتج الحنطور قليلًا قبل أن يتوقف تمامًا. سأل "تحسين بك" أحد المارة فأخبره باحتلال بريطانيا مبنى البرلمان، والقبض على بعض أعضائه. لقد قبضت بريطانيا على مئة وخمسين مثقفًا بالأمس، وكان الجميع يتوقع أن تكون هذه هي خطوتهم التالية. عندئذ طلب "تحسين بك" من "عوني" الدوران والتوجه إلى المنزل.

أخذ "تحسين بك" يفكِّر خلال طريق العودة فيما يتوجب عليه عمله، لم يكن متفائلًا بالمستقبل، فالطريقة التي سيطر بها البريطانيون على كل شيء خلال شهر من الإحتلال أثارت حنقه، وكان يخشى إلقائهم القبض على كل من في "القائمة السوداء". كان يغلي من الغضب ويشعر بالاختناق. وعزم ساعتها على الإتصال في الغد ببعض الزملاء بنية الإنضمام إلى حركة تحرير "مصطفى كمال" في الأناضول في أقرب وقت. قال محدثًا نفسه: "أخشى أن يكون الأوان قد فات. كان علي العودة إلى رشدي والإنضمام إليه قبل زمن طويل".

كان غارقًا في هذه الأفكار حتى أنه لم يلحظ مدى اقترابهم من المنزل إلا مع سماعه صوت "عوني" يأمر الحصان بالتوقف، وثبات الأخير أمام بوابة المنزل تمامًا.

ترك "صلاح الدين" و"جلال الدين" اللعب وركضا لتحية والدهما حينما رأوه يغادر الحنطور.

قالا معًا:

- مرحبًا بعودتك يا سيدي.

أسرع "جلال الدين" يحاول تقبيل يد أبيه على الطريقة التقليدية علامة على الإحترام، لكن "تحسين بك" – الرجل الحداثي – سحبها، ووضع يديه بدلًا من ذلك على رأسي ولديه، ومررهما على شعرهما برقة.

لم يتعاف "تحسين بك" من حزنه لفقد ابنه "شجاع الدين" وابنته "نديمة"، اللذان فارقا الحياة في سن مبكرة. لذا كان شديد الإهتمام بـ"صلاح الدين"، المولود في "سالونيكا" حينما كان يعمل متصرفًا – أو نائب الوالي - لمنطقة "دراما"، وكذلك كان اهتمامه بـ"جلال الدين" الذي وُلد في "فان"

حينما كان واليًا على الإقليم. كان كلما نظر إلى أبنائه الأحياء تذكَّر "شجاع الدين" و"نديمة". صعد "تحسين بك" السلم قفزًا وطرق الباب. فأسرعت "مديحة هانم" تفتح لاهثة.

- ماذا حدث يا "تحسين"؟ ما الأمر؟

تمتم "تحسين بك" بكلمات عن اللقطاء الذين احتلوا البرلمان، ثم خلع طربوشه وعلَّقه على شمَّاعة القبَّعات وهم بالركض إلى الصالون. لقد نسي خلع حذاء الخروج، لكن ما إن تذكر مدى حرص زوجته على النظام، حتى خلع حذاءه فورًا وارتدى شبشب المنزل الناعم التقليدي. همَّت "مديحة هانم" بقول شيء، لكن "تحسين بك" انطلق إلى الصالون. وهناك تهاوى على الكرسي الوثير دون حراك لفترة من الزمن. حتى أنه لم يلحظ دخول "مديحة هانم" الحجرة وحديثها إليه.

لكنه قام بعد فترة، ورفع سماعة التليفون للإتصال ببعض زملاء البرلمان ومعرفة المزيد عمَّا يحدث. أدار قرص التليفون بتوتر، لكن التليفون كان صامتًا، قام ثانية بالاتصال ولم تختلف النتيجة، فتمتم بشيء يتعلق بقطع الطغاة للخطوط.

قالت "مديحة هانم" التي كانت تراقبه في صمت:

- ذلك ما كنت أحاول اخبارك به يا "تحسين"، لكنك لم تصغِ. بعد مغادرتك صباحًا، سمعنا دوي إطلاق نيران من جهة الكلية الحربية. وعندما أرسلت "جمال أغا" للإستعلام عن الأمر، عاد ليخبرني أن البريطانيين أغاروا على الكلية الحربية، وأعتقد أن قطع الخطوط تم في هذا التوقيت.

لم ينطق "تحسين بك" بكلمة، لم يكن يرغب في تغذية قلق "مديحة هانم" أكثر من ذلك. وراح يجوب المنزل صعودًا وهبوطًا حتى المساء، يركل ساق الكرسي ويضرب بقبضته باطن كفه بين الحين والآخر.

مع حلول الظلام، دخلت "مديحة" الحجرة لتخبره أن العشاء جاهز، تذكر وقتها أنه لم يذق شيئًا منذ الصباح، ومع تلك الخاطرة أحس بالجوع الشديد فجأة. كانت زوجته طبَّاخة ماهرة، وقد أعدت ليلتها "بريان كباب"، ومكرونة "فرفور". ورغم التهام "تحسين بك" للكباب، فإنه لم يتناول سوى ملعقتين من المكرونة.

- إن الوضع خطير يا "مديحة". أنت تعرفين موقفي من الحديث عن هذه المواضيع، لكن هناك أمر علينا مناقشته.

في تلك اللحظة، سمعا صوت طرق عنيف وملح على الباب. أسرع "تحسين بك" إلى الباب متسائلًا عمن قد يزورهم في هذا التوقيت، وفتح الباب الداخلي قدر ما يحتاجه بالكاد لرؤية الطارق. كان ذلك "حامد أفندي"، صديقة المقرَّب، فدعاه إلى الدخول فورًا.

كان "بريان ويلكينسون" – مدير "حامد أفندي" – مقربًا من المفوضية البريطانية العليا، وكثيرًا ما كان يطلع على ما يجري في إسطنبول قبل أي شخص آخر، لذا كان "حامد أفندي" يتنصت على محادثات السيد "ويلكينسون"، ويبلغ السلطات والشخصيات الهامة الذين يعرفهم بكل أمر ذي أهمية.

افتتح "حامد أفندي" كلامه بالتنويه إلى أهمية الأخبار التي يحملها. كان من الواضح أنها أخبار غير سارة، ورغم الفضول الذي يوشك أن يودي بحياة "تحسين بك"، فقد قام بتغيير موضوع الحديث لإخفاء الأمر عن زوجته حتى لا تزداد قلقًا.

- الأهم ثم المهم يا "حامد أفندي"، هل تناولت العشاء؟ لقد أعدت "مديحة" بعضًا من "بريان كباب" "سالونيكا" الشهير. عليك أن تتذوقه. أثق أنه سيعجبك. اعتادت أمي عمل "بريان كباب" شهي، لكن "مديحة" لا تقل عنها موهبة.

- أشكرك يا "تحسين بك"، لكني أحتاج إلى إخبارك بما يجري ثم العودة فورًا.

- في هذه الحالة، هيا بنا إلى المكتب.

جلس الرجلان على المقاعد الفاخرة التي تشغل زاوية مكتب "تحسين بك"، وبدأ "حامد أفندي" الحديث دون مهلة لالتقاط الأنفاس.

- سيطر البريطانيون على مبنى البرلمان.

- أعرف ذلك يا "حامد". كنت في طريقي إلى البرلمان هذا الصباح وكان كل شيء يبدو طبيعيًا، حتى وصلنا إلى "فينديكلي"، كان الوضع فوضويًا. وفور علمي بسيطرة البريطانيين على البرلمان استدرت عائدًا إلى المنزل. هل طرأ على الأوضاع أي تطور بعدها؟

- لقد سيطروا على مبنى "تورك أوكاجي" أولًا، بعدها شرعوا في حملات الإعتقال في "بيوغلو"، و"أسكدار"، ومقرات الكتائب في "شاه زاده". كما

احتلوا وزارة الدفاع، ووزارة البحرية، وعدد آخر من المباني العسكرية الهامة. وبلغني اعتقالهم "جمال باشا" وزير الدفاع السابق من منزله دون السماح له بتغيير ملابسه. لقد سيطروا على عدد من المكاتب الحكومية، ويقول البعض إن الضباط البريطانيين اقتحموا مكتب "فوزي باشا" وزير الدفاع ووجهوا السلاح إلى صدره. الحمد لله أن الأوضاع هنا لم تبلغ هذه الصورة بعد. سمعت أنهم قبضوا على كثير من أعضاء البرلمان، اثنين منهم من "أدرنة". أعتقد أنهم سيعتقلون باقي أعضاء البرلمان، ربما يحدث ذلك الليلة، أو صباح الغد. لذا جئتك الآن، لأنصحك بالإختفاء حالًا.

- إن كنت أحسنت البلاء عند قتال الميليشيات البلغارية في مقدونيا، ونجوت من عدة محاولات لقتلي، حاربت بعدها عصابات الأرمن في "فان"، فلمَ قد أخاف هؤلاء القوم؟ لم يعد أمامي سوى الذهاب إلى الأناضول، فلا يمكنني البقاء هنا بعد تعطيلهم البرلمان. غدًا سأحاول العثور على طريقة ما للوصول إلى الأناضول. ووحده الـلـه يعرف ما الذي ينتظرني غدًا.

قام "حامد أفندي" من مجلسه قائلًا:

- فليعينك الـلـه يا "تحسين بك"، وليحرسك أنت والأمة.

- شكرًا يا "حامد"، وليباركك الـلـه أيضًا. أنا ممتن لاهتمامك بأمري.

قال "حامد أفندي" إنه لم يقم إلا بالواجب، وغادر.

بعد رحيل "حامد أفندي"، قرر "تحسين بك" إخبار "مديحة هانم" بكل شيء.

- لقد اتخذت قراري يا "مديحة"، لم يعد بإمكاني البقاء هنا. علي الذهاب إلى الأناضول في أقرب وقت. وسيكون أول ما أفعله في الغد هو الاتصال بـ"كارا واصف".

- من يكون "كارا واصف"؟

- إنه منشئ جمعية الضبَّاط، والنائب عن "سيواس" في البرلمان. دعاني مرة إلى الإتصال به إذا احتجت إلى أي مساعدة. سأتصل به غدًا لطلب مساعدته في الوصول إلى الأناضول. من الواضح أن هذا هو قدرنا.

بدأت الدموع تملأ عين "مديحة هانم"، فنظرت إلى الناحية الأخرى. شاهد "تحسين بك" انتحاب زوجته في صمت، ولم ينطق بكلمه. بعد فترة من الصمت تمالكت "مديحة هانم" نفسها، وقالت إنها ستذهب لإعداد حقيبته، لكنه استوقفها وأخبرها أنه لن يأخذ شيئًا معه.

- لماذا؟

- ستثير الحقائب الشكوك، لكن لن أمانع في وجبة غداء معدة ومغلفة أصطحبها معي في الصباح.

- بالطبع بالطبع! أيًا كان طلبك يا عزيزي. سأعد لك كل ما تريد.

- لا تكلفي نفسك فوق طاقتها. الوقت الآن متأخر وسنحتاج إلى الاستيقاظ مبكرًا. فلنذهب إلى السرير الآن ونأمل أن يأتينا الصباح بأخبار سارة.

سبق "تحسين بك" زوجته إلى السرير، لكن القلق لم يسمح له بالنوم. كانت الأفكار تدور في رأسه كدوَّامة، بينما هو يحدق في السقف. أزعجته فكرة

الإبتعاد عن زوجته المحبة، وأنه قد لا يراها ثانية أبدًا. ومع تسلل النعاس إليه، أدار جسده ودفن وجهه في الوسادة. وعندما أوشك على النوم جاءت "مديحة"، وغطت جسدها باللحاف، فاستدار "تحسين بك" وعانقها بعاطفة متقدة. شعرت "مديحة هانم" بدفء، وإحساس ممتع يسري في كامل جسدها، فاستجابت بدورها إليه.

بينما هما يمارسان الجنس، سمعا صوت طرق متواصل على الباب. وقبل أن تنهض "مديحة" وترتدي الروب، قام الخادم باستقبال الزوار. سمعا صوت خطوات تقطع السلم صعودًا، وفوجئا بباب غرفة النوم يفتح على مصراعيه، وجنود بريطانيون يوجهون أسلحتهم نحو "تحسين بك" قبل أن يتمكن من ارتداء ملابسه ثانية.

"بوجدانتسي" – ٣ مايو ١٨٧٦

كان شتاء عام ١٨٧٦ قاسيًا إلى درجة تجمد بحيرة "دوجران"، شرق قرية "بوجدانتسي"، وأسفرت سلسلة عواصف ثلجية عن طبقة من البياض غطت الجبال والسهل. سدت كل الطرق، وصعب الوصول حتى إلى مدينة "جيفجليا" المجاورة. كان ذلك الشتاء الأشد برودة خلال فترة طويلة، فحبس الناس أنفسهم في منازلهم.

جاء الربيع في أول أبريل، فوضع حدًا للرياح الشمالية الآتية من جهة نهر "فاردار". وأفسحت الغيوم الداكنة مكانًا للسحب الرقيقة، ورغم وجود هذه السحب، ألقت الشمس بدفئها على الأرض وأعادت الحياة إلى السهل. نبتت البراعم الوردية والبيضاء على أشجار الفاكهة، وعادت الطيور من الجنوب لتغرد فوق أغصان الشجر.

أمَّا التربة التي تم حرثها في الخريف، وقضت فترة الشتاء بورًا، فقد أصبحت مستعدة لاستقبال البذور. ومع اقتراب مايو، عاد الفلاحون من إجازة الشتاء الطويلة إلى الحقول. زرعوا بذور التبغ في الأصص، ورعوا الشتلات إلى أن حان وقت نقلها إلى التربة. كانت التربة جاهزة منذ فترة طويلة لزراعة الذرة التي يتغذون عليها هم وماشيتهم.

استقبل جميع أهل "بوجدانتسي" ربيع عام ١٨٧٦ بنشاط وحماس، إلا عائلة "جيوتا"، فلم يكن في حوزتها غير بقرتين وبضع مئات من دود القز.

* * *

عندما سرى نسيم الصباح اهتز مفرش المائدة الباهت المغبر الذي يغطي النافذة بدلًا من الستارة، فتسللت أولى أشعة الضوء إلى حجرة نوم "ماتو جيوتا". استيقظت "ماتو"، ودعكت عينيها، وفردت ذراعيها تتمطى. لم تكن ترغب في النهوض، لكن عليها حلب الأبقار.

غفت "ماتو" قليلًا قبل أن تنهض وترتدي ملابسها، ثم تفقدت الأولاد في طريقها إلى الطابق الأسفل. كان غطاء "ماركو" منحسرًا عنه كالعادة، فغطته وتمتمت بشيء ما وهي تقبِّله.

هبطت "ماتو" السلم على أطراف أصابعها، خشية إصدار أي صوت. ارتدت حذاءها وتوجهت إلى الباب الخلفي. ما إن خطت إلى الخارج حتى فردت ذراعيها وأخذت نفسًا عميقًا ثم أسرعت إلى الحمام الخارجي المبني بالطوب الطيني عند زاوية الحديقة بغير سقف، وفتحت بابه المتهالك القديم.

شعرت بالراحة بعد أن قضت حاجتها، فخرجت ونظرت إلى الأعلى فرأت الشمس مختبئة خلف الغيوم. حينئذ بدأت السماء تمطر بلطف، فركضت تحتمي بالبلكون. غرفت بيديها من حوض الماء المخصص للبهائم وغسلت وجهها. كانت الآن قد تخلصت من أي أثر للنعاس، فجففت وجهها ويديها بالمريلة وتوجهت إلى الحظيرة. هناك اضطرت إلى دفع الباب الخشبي بكتفها لفتحه، بسبب مشكلة في المفصلات.

كانت إحدى البقرتين صفراء ورثتها عن زوجها، فأنجبت لها البقرة الأخرى، وهي بيضاء ملطخه بالأسود. لكن شيء ما كان يرجح كفة الصفراء في قلب "ماتو"، فكثيرًا ما كانت تربت على رأسها، وربما تحدثت إليها بين الحين والآخر.

سحبت "ماتو" جذع شجرة مقطوع لتجلس عليه إلى جوار البقرة الصفراء، ووضعت وعاء نحاسي أسفلها وبدأت تحلبها. في هذه الأثناء، تذكرت زوجها وتلك الليلة الكريهة. وكعادتها، لامت نفسها واعتبرت أنها سبب حدوث ذلك كله.

لكن الحقيقة غير ذلك، في تلك الليلة دعا "ديلهيو" صديقه "تيودور" إلى العشاء في بيته، ومنذ لحظة دخوله لم يرفع الضيف عينيه عن صدر "ماتو"، كانت نظرته الفاحصة واضحة لها، وبينما كانت تغلق أزرار ثوبها، شعرت بالغضب من زوجها لدعوته رجلً أعزب إلى العشاء.

كانت تعد المائدة، و"ديلهيو" و"تيودور" يجلسان القرفصاء على الأرض. وضعت "ماتو" حلة "الكابوسكا" - وهو اسم حساء الكرنب التركي في هذه المنطقة - وفطيرة الكرَّاث، والجبن، والنبيذ على الطبلية الضخمة، وبعد ملء الكؤوس ذهبت لتجلس في الناحية الأخرى من الطبلية. كانت تشعر بعيني "تيودور" تجردها من ملابسها. ومرة أخرى، انتابتها رغبة في تعنيف زوجها بسبب فعلته.

خلال ساعات قليلة، تملك السكر من "تيودور"، وراح يغازلها غير ملتفت إلى تحذيرات "ديلهيو". لكن مع محاولة "تيودور" التحرش بها، قام "ديلهيو" ولكمه، فترنح "تيودور"، إلا أنه استجمع قوته، وسحب سكينًا من على الطبلية وطعن غريمه في بطنه. ومات "ديلهيو" المسكين فورًا.

حينما أنهت "ماتو" حلب البقرة الصفراء، سحبت جذع الشجرة إلى جوار الأخرى، ومع امتلاء أوعية الحليب، انطلقت للمرور على زبائنها المعتادين.

لم تكن "ماتو" تهوى المحادثات القصيرة، فهي تطرق الباب، وعندما يفتح تسأل عن كمية الحليب المطلوبة، ثم تملأ أوعيتهم وتتسلم نقودها. لكن زوجة العمدة "توكو"، كانت امرأة لحوحة وفضولية، لا تسمح لها بالمغادرة دون شيء من الثرثرة.

- إن قلبي ينفطر حزنًا على "ستيفانا"، يا "ماتو".

- لماذا؟

- سمعت أنك لا تسمحين لها بالخروج من المنزل.

- هذا أمر لا يخص أحد غيرنا.

- لا داع للغضب، كل ما في الأمر أننا نشعر بالقلق على الطفلة المسكينة.

- اهتمي بشؤونك يا "تاتيانا"، وسأتولى أنا شؤوني.. سلام.

كان هذا التدخل في شؤون أسرتها يزعجها بشدة، فأسرعت بالابتعاد عن المكان، وعندما تذكرت أنها لم تتسلم ثمن اللبن، رأت أن الأمر لا يستحق هذا العناء فاستمرت في طريقها.

فور وصولها المنزل، أشعلت "ماتو" الفرن ووضعت وعاء اللبن على النار، وانشغلت بإعداد المائدة إلى أن يغلي اللبن. فتحت خزانة المطبخ وأخرجت الخبز الذي خبزته بالأمس، والذي لفته بالقماش ليبقى طازجًا، كما أخرجت القشدة

التي أعدتها من لبن أبقارها، ومربى التوت الذي جمعته من الجبال. وبينما هي تضع كل شيء في الصينية النحاسية، دق جرس الكنيسة.

نزل "ماركو" على السلم بعد أن أيقظه صوت الأجراس، جذب تنورة والدته وقال:

- أشعر بجوع شديد يا أمي.

- لن يقتلك الجوع! انتظر إخوتك.

- لكني جائع جدًا!

- إذًا اذهب وأيقظهم.

- حسنًا، حسنًا، سأفعل يا أمي! لا داعي للغضب.

أيقظ "ماركو" "فلاديمير" أولًا، ثم اتجه إلى غرفة "ستيفانا"، التي كانت تتحدث أثناء نومها، فوقف عند الباب يسترق السمع.

- أين أنت يا "أمين أفندي"؟ ألم تقل إنك ستأتي وتصطحبني معك.

لا يعرف "ماركو" من التركية سوى كلمات معدودة، لذا لم يفهم أي شيء من حديثها. كان البلغاريون يشكلون ثمانين بالمئة من سكان القرية، وكانت البلغارية لغة التدريس الوحيدة في المدرسة الوحيدة بالقرية، التابعة للكنيسة.

كانت "ستيفانا" فتاة متمردة، رفضت الذهاب إلى مدرسة الكنيسة، وعندما فقدت والدتها الأمل في إقناعها، أصبحت ترسلها لإحضار الماء من البئر، طمعًا في تحقيق أي استفادة منها. هناك تعلمت "ستيفانا" التركية من بعض النساء اللاتي التقت بهن عند البئر، إضافة إلى ما تعلمته من أطفال المسلمين،

أصدقائها الذين تتردد على منازلهم. ورغم التدين والعصبية القومية التي تميز "ماتو"، لم تمانع في تعلم ابنتها التركية، لكنها تدخلت بحزم عندما تعلق الأمر بالإسلام واهتمام ابنتها المتزايد به.

دفع "ماركو" شقيقته برفق، وقال:

- كفى نومًا، حان موعد الإفطار.

تثاءبت "ستيفانا"، فأردف "ماركو":

- انهضي وإلا ستغضب أمي.

- لا يهمني. هيا انصرف، أنا أريد النوم.

- حسنًا، حسنًا! لا شأن لي بذلك.

- اصمت، واتركني لحالي.

عاد "ماركو" إلى المطبخ بنفس منكسرة.

- ترفض "ستيفانا" النهوض، يا أمي.

- دعك منها، هيا اجلس أنت.

في التاسعة صباحًا، غادرت "ماتو" المنزل، تحمل سلة في كل يد. وفي طريقها نادت أكبر أبنائها، الذي كان يتحدث مع أصدقائه أمام المنزل المقابل.

- سأذهب لالتقاط بعض ورق التوت لدود القز، وسأعود مع حلول المساء. راقب "ستيفانا" في هذه الفترة، ولا تسمح لها بالخروج إلى أي مكان.

- حسنًا، لا تقلقي.

- واعتني بـ"ماركو" أيضًا، لا تدعه يفرط في اللعب لكي لا يعرق، وإلا مرض ثانية. لدينا ما يكفينا من المشاكل بالفعل.

لم يتعد عمر "فلاديمير" السادسة عشر بعد، لكنه يعتبر نفسه فتى راشدًا، لذا كره تلقي الأوامر من والدته أمام أصدقائه.

- حسنًا، حسنًا، سأفعل ذلك.

قالها باستخفاف. همَّت "ماتو" بالتعليق على سوء أخلاقه، لكنها تمالكت أعصابها، وسارت مبتعدة في الطريق المنحدر، حتى غابت عن الأنظار.

* * *

بعد ساعة من مغادرة "ماتو"، خرج "الشاويش صالح" من مخبئه في الغابة المطلة على منزل "ماتو"، وهمس مخاطبًا مساعديه:

- انتظروني هنا، سيكون إخراجها من المنزل وإحضارها أمرًا في غاية السهولة.

أومأ "عمر أغا"، و"إسماعيل أغا"، و"الملا فيض الـلـه"، و"جلال"، و"حسين" برؤوسهم.

تسلل "صالح" إلى الحديقة الخلفية في غفلة من "فلاديمير" وأصدقائه، وهناك ألقى بحصاة على نافذة الغرفة الخلفية، وانتظر قليلًا، ثم ألقى حصاة أخرى.

فتحت "ستيفانا" النافذة وأطلت إلى الأسفل، قائلة:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

- هيا أقبلي فورًا.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- جئت أحمل إليك أخبارًا.

- أخبار؟ أي أخبار؟

- سيصل "أمين أفندي" إلى "جيفجليا" غدًا قادمًا من "سالونيكا"، سينتظرك هناك ليصطحبك إلى "سالونيكا".

فرحت "ستيفانا" بهذه الأخبار المفاجئة، كان خبر قدوم "أمين أفندي" قد سرها في البداية، لكن سرعان ما تملكها الفزع.

- ابتعد قبل أن يراك أحد يا "شاويش صالح"، سأغادر المنزل في أقرب فرصة، سأتحجج بإحضار الماء من البئر. اطلب من "خديجة" انتظاري هناك.

- إياك والتأخر.

- لا تقلق، سأكون هناك بعد نصف ساعة.

* * *

فقدت "ماتو" زوجها "ديلهيو" قبل ثمانية أعوام، كان سن "فلاديمير" حينها ثمان سنوات، وكانت "ستيفانا" في السادسة، أما "ماركو" فأربع. قاست "ماتو" كثيرًا من أجل تربية أطفالها بنفسها.

كان كل واحد منهم يمثل مشكلة مختلفة على الأم التعامل معها، فهناك "فلاديمير" العنيد، و"ستيفانا" المندفعة، و"ماركو" كثير المرض.

تقبلت "ماتو" علاقة "ستيفانا" القوية مع عدد من الأولاد، وعودتها إلى المنزل في الساعة التي تناسبها، لكن غياب الفتاة عن الكنيسة، وقضاءها الكثير من الوقت مع العائلات المسلمة، كان يزعج "ماتو"، فهي امرأة متدينة، يزداد التزامها بالتعاليم يومًا بعد يوم منذ وفاة زوجها.

حينما سمعت "ماتو" بإسلام "ستيفانا" وقضائها الليلة في منزل أحد المسلمين، جن جنونها، وقضت معظم الليلة تفتش عنها، قبل أن تستسلم في النهاية وتقرر انتظار الصباح. في الصباح، علمت بقضاء "ستيفانا" الليلة في بيت "الشاويش صالح"، فاقتحمته فورًا وسحبتها خارج المنزل. ومن ساعتها، حبست "ماتو" ابنتها داخل المنزل، ومنعتها حتى من الذهاب إلى البئر.

لم يحدث مرة أن فقدت "ستيفانا" الأمل في عودة "أمين أفندي" واصطحابه إياها بعيدًا، لكن نبأ وصوله أصابها بالرعب. وبينما هي تحزم أغراضها، تخيلت -فجأة- لحظة وصول "أمين أفندي" إلى "بوجدانتسي".

كان لقاءهما الأول عند البئر، هناك انبهرت بذلك الرجل الطويل، الأنيق، المعمم، بنظارته الطبية وخيوط الشعر الرمادي في لحيته. كما أسعدها اهتمامه الواضح بها، والذي لم تنافسها فيه أية فتاة أخرى. لم يستطع "أمين أفندي" رفع عينيه عنها، رغم الإيجاز الذي كان عليه حديثهما.

- ما اسمك؟

- "ستيفانا".

- هل أنت بلغارية، يا "ستيفانا"؟

- نعم.

- لكنك تفهمين التركية.

- أجل، قليلًا.

- وأين تعلمتيها؟

- هنا، عند البئر.. من الفتيات التركيات.

- جيد، خيرًا فعلتِ.

ثم سألته "ستيفانا":

- ومن تكون أنت؟

- يدعونني "أمين".

- من أين أنت؟

- من "سالونيكا".

- ماذا تعمل؟

- أعمل في التبغ.

- هكذا توقعت.

- ما الذي أوحى لك بهذا؟

- أظنها ملابسك، فأنت تبدو ثريًا.

ثم سألها "أمين أفندي" عن عمرها، فراحت تنظر حولها في محاولة للتهرب من الإجابة، ففوجئت بأنهما وحدهما في المكان، فقد غادر الجميع.

- أنا مضطرة إلى الذهاب الآن، وإلا تمكن القلق من والدتي.

ومع انطلاق "ستيفانا" متوجهة إلى البيت، دون الالتفات إلى الخلف، لم تسمع "أمين أفندي" يطلب منها الانتظار.

تقع مزرعة "مادجيكوفا" جنوب "بوجدانتسي"، يملكها "فيلاه أفندي" وزوجته "شهيماه". يتولى "أمين أفندي" إدارة أعمال الأسرة في "سالونيكا"، ويزورها عدة مرات على مدار العام، يقضي أيامًا معدودة كل مرة، إمَّا في المزرعة أو بصحبة "الشاويش صالح". وخلال زياراته هذه إلى القرية، ازدادت العلاقة بين "أمين أفندي" و"ستيفانا" قوة، كما ازدادت اللقاءات حميمية مع مرور الوقت. كانا يتعانقان ويتبادلان القبلات، لكنهما لم يتمكنا قط من إطفاء كامل رغبتهما.

في إحدى المرات، كانت العاطفة في أعلى درجاتها، حينئذ سمحت "ستيفانا" لـ"أمين بك" بتجريدها من ملابسها. وسرعان ما خلع "أمين أفندي" ملابسه هو الآخر تحت تأثير الرغبة المتقدة، وإذا بهما على الكنبة غارقين بجنون في مداعبة حميمية. لكن عندما اعتلاها "أمين أفندي" في محاولة أخيرة لإغوائها، تقلبت "ستيفانا" فجأة، وتكورت حول نفسها وضمت فخذيها. واصل "أمين أفندي" المحاولة، لكنها أصرت على المقاومة.

قالت:

- لا أريد فعل ذلك.

- لكن ذلك سيحدث عاجلًا أم آجلًا، وأنت تعرفين ذلك.

- صحيح، لكن لن يكون إلا بعد زواجنا.

وكان هذا كل شيء! هب "أمين أفندي" واقفًا، وارتدى ملابسه، ثم جلس في آخر الكنبة.

- لا تسيئي الفهم يا حبيبتي، أنا لا ألهو بك، بل أرغب حقًا في الزواج منك، لكن لا سبيل إلى ذلك بدون نطقك الشهادتين واعتناقك الإسلام.

أدركت "ستيفانا" – رغم ضعف لغتها التركية – أن "أمين أفندي" يعرض عليها الزواج بطريقة غير مباشرة، فقبلت عرضه.

بعد صلاة ظهر اليوم التالي، تقابلا في بيت "الشاويش صالح" سرًا، وفي هذا اليوم أشهرت إسلامها بحضور "محمد خوجا[1]" من "جيفجليا"، مع "عمر أغا" و"الشاويش صالح" شهودًا. وبعد نطق الشهادتين، اختارت "ستيفانا" اسم "عائشة" ليكون اسمها الإسلامي، ثم قضت الليلة كلها مع أسرة "الشاويش صالح"، دون علم والدتها بشيء من ذلك.

بعد تناول العشاء، سحبت "ستيفانا" "أمين أفندي" إلى أحد الأركان وسألته بصوت منخفض:

- متى نكتب عقد الزواج؟

أخبرها "أمين أفندي" أنه سيرحل غدًا مبكرًا إلى "سالونيكا"، للحصول على موافقة أسرته، ثم الرجوع لاصطحابها معه، حيث سيكون الزواج في "سالونيكا". شعرت "ستيفانا" بسعادة بالغة، ولم تستطع حبس دموعها، فسألها "أمين

(1) خوجا كلمة تركية تعني الأستاذ أو المعلِّم

أفندي" عن سبب البكاء، قبل أن يطلب إذنها في الذهاب إلى النوم، حيث سيضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا. تمنى "أمين أفندي" لها ليلة طيبة، ودخل إلى حجرته.

عندما كان الجميع نائمين، دخلت "ستيفانا" إلى حجرة "أمين أفندي" على أطراف أصابعها، وخلعت ملابسها، ثم تسللت إلى فراش الرجل الذي أحبته. استيقظ "أمين أفندي" – الذي داهمه النوم للتو – حينما شعر بجسدها الدافئ ملاصقًا لجسده، فاسترد كامل وعيه ونشاطه، واستدار ليواجهها، ثم ضاجعها دون حتى خلع ملابس النوم.

كانت "ستيفانا" تحلم بهذه اللحظة، لكنها انتهت سريعًا، ولقد حاولت إطالتها، لكن ما إن أفرغ "أمين أفندي" شهوته، حتى استدار واستأنف النوم.

استلقت "ستيفانا" إلى جواره، شاعرة بخيبة أمل، وبرغبة لم تنطفئ شعلتها، وما إن تمكنت من النوم حتى أيقظها صوت حركة "أمين أفندي" في الغرفة. تعجبت من حزمه أغراضه في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، وسألته عن وجهته في هذه الساعة.

- أحتاج إلى العودة إلى "سالونيكا" حالًا كما أخبرتك من قبل، يا جميلة العينين. لكن لا تقلقي، سأعود من أجلك، أقسم لك بهذا.

أجابته "ستيفانا" بعينين دامعتين:

- سأعد الساعات والدقائق حتى أراك ثانية. لا تتركني في نار الانتظار طويلًا، أرجوك يا حبيبي.

هدَّأ "أمين أفندي" من روعها، ثم طلب منها البقاء عند "الشاويش صالح" وأسرته إلى أن يعود، حيث سيتولون رعايتها.

في "سالونيكا"، تحدث "أمين أفندي" إلى أسرته، فعارضوا زواجه من بلغارية أول الأمر، لكنهم عدلوا عن القرار فيما بعد، مع إصرارهم على توثيق إسلامها عند القاضي. وعلى الفور، أرسل "أمين أفندي" إلى "الشاويش صالح" و"عمر أغا" يخبرهما أنه سيستقل أول قطار إلى "جيفجليا" كي يحضر "ستيفانا"، وأنه سينتظرهما في منزل "محمد خوجا".

لكن هناك مشكلة، لقد غادرت "ستيفانا" بيت "الشاويش صالح"، بعد مجيء الأم وإعادتها إلى بيتها. حاول "الشاويش صالح" و"عمر أغا" التوصل إلى طريقة لتحريرها قبل وصول "أمين أفندي" إلى "جيفجليا"؛ فكرا في انتظارها عند البئر، لكنهما صرفا النظر عن الفكرة بعد علمهما من بعض النساء بانقطاعها عن زيارة البئر منذ فترة، وهكذا لم يعد أمامهما إلا تهريبها من المنزل، فاختبأ كلًا منهما في الغابة الواقعة خلف البيت، وانتظرا مغادرة والدة "ستيفانا" البيت، إلا أنهما اضطرا إلى تعديل الخطة مرة أخرى، بعد أن طلبت منهما "ستيفانا" لقاءها عند البئر.

* * *

هبطت "ستيفانا" السلم، والتقطت دلوين من المطبخ لإحكام الخدعة، تسللت عبر الباب الخلفي إلى الخارج، ساعتها فوجئ "فلاديمير" – الذي جاء يطلب من "ماركو" التوقف عن اللعب والعودة إلى المنزل - لرؤية "ستيفانا" ودلويها.

جذب "فلاديمير" ذراعها، وسأل عن سبب مغادرتها المنزل.

- دعني أذهب! ألا ترى أنني ذاهبة لجلب الماء؟

- ألم تمنعك أمي من الخروج؟

- وماذا في ذلك؟ لقد نفد الماء؛ هل يتوجب علينا الموت عطشًا! أو اذهب بنفسك لإحضار الماء، إن كنت تنوي منعي.

كان جلب الماء في القرية من اختصاص النساء، وشعر "فلاديمير" بالإهانة لمجرد اقتراحها ذلك.

قال بعصبية:

- هل أبدو كامرأة أمامك؟

- إذًا دعني أذهب للقيام بذلك.

لم يستطع "فلاديمير" الرد، وأخذ يراقب أخته وهي تسير مبتعدة، متسائلًا عن وظيفة الحقيبة الصغيرة التي تحملها معها.

بلغت "ستيفانا" البقعة المنشودة وهي تلهث من الإجهاد، وفوجئت النساء اللاتي يحضرن الماء ويثرثرن عند البئر برؤيتها، فقد منعتها والدتها من الذهاب إلى البئر منذ فترة طويلة.

قالت النساء:

- مر زمن على لقائنا الأخير يا "ستيفانا".

- كنت مريضة بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر.

لم تقتنعن النساء بهذه الحجة، لكنهن فضلن عدم الضغط عليها بالأسئلة، واستأنفن أحاديثهن.

انتظرت "ستيفانا" صامتة انتهاء النساء البلغاريات من ملء دلائهن، وعندما أوشكن على الرحيل، شرعت في ملء دلويها هي الأخرى، كي تحفر هذه الصورة في ذاكرة هؤلاء النسوة.

مع شروع البلغاريات في المغادرة، جاءت "خديجة" زوجة "صالح" وبعض النساء المسلمات، فتوقفت البلغاريات ونظرن بريبة إليهن، يتعجبن من اجتماع "ستيفانا" والمسلمات عند البئر في التوقيت نفسه، ورحن يثرثرن معًا.

- عجبًا لتجمع هذا العدد من المسلمات هنا، والآن!

- أشم رائحة خيانة.

- فلننتظر لنرى ما سيحدث.

- لا، دعكن من هذا، هيا نذهب. إنه أمر لا يخصنا.

في تلك الأثناء، كانت النساء المسلمات يتحدثن إلى "ستيفانا".

- كيف حالك يا "ستيفانا"؟ لقد أثار غيابك قلقنا.

- شكرًا جزيلًا. إنها أمي، منعتني من مغادرة المنزل.

- هذا ما بلغنا أيضًا. من أين جاءت"ماتو" بهذه القسوة!

- ما إن وصلتني الأخبار من "الشاويش صالح"، حتى جئت على الفور.

- أما تزال والدتك في البيت؟

- لا، لقد خرجت.

- هل يحتمل قدومها إلى هنا؟

- لا أظن ذلك. فهي تجمع أوراق التوت الآن، أو – على الأقل – هكذا قالت لإخوتي.

- إذًا فعلينا الإسراع، هيا بنا فورًا.

- إلى أين، يا "خديجة"؟

- إلى منزل "إسماعيل أغا".

- لماذا لن نذهب إلى منزلك؟

- لا أعرف، إنهم بانتظارك هناك.

بدأت النساء البلغاريات – اللاتي كن يراقبن الموقف من بعيد – يطاردن "ستيفانا" والنساء المسلمات، ويلقين عليهن الحجارة، لكن سرعان ما توقفن عن ذلك واستسلمن.

كان "إسماعيل أغا" و"الشاويش صالح" ينتظران في المنزل. وفور رؤيتهما للنساء، أطلق "الشاويش صالح" زفيرًا قويًّا علامة على الارتياح، وقال:

- يبدو أن الأمر مر بسلام، الحمد لله. فلننتظر ظلام الليل، يمكننا حينئذ اصطحابها إلى منزلي.

- لكن منزلك ليس بالمكان الآمن، يا "صالح"؛ فستأتي الأم – لا محالة – للبحث عنها هناك. لذا أفضل قضاءها الليلة هنا. عد مبكرًا في الصباح وسننطلق جميعًا معًا.

- أوافقك الرأي يا "إسماعيل أغا"، سأذهب للبحث عن بعض الخيل. وربما تحتاج إلى ارتداء ثياب الأولاد، تجنبًا للفت الانتباه. أظن بعضًا من ملابس ابني ستفي بالغرض. ماذا ترى؟

- فكرة جيدة! عد إلينا قبل الشروق، كي نبدأ مبكرًا، ولا تتأخر، سيكون من الصعب إخراج فتاة من القرية في ضوء الشمس.

- لا تقلق، فليعنك الـلـه.

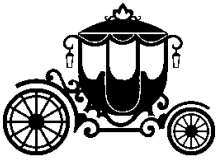

إسطنبول – ١٧ مارس ١٩٢٠

بانقضاء منتصف تلك الليلة، أُسدل الستار على يوم خزي جديد في التاريخ التركي. قبض الجنود البريطانيون على "تحسين بك" في منزله، وأودعوه قبو أحد قصور "توفان". جلس "تحسين بك" في الزنزانة، وحيدًا خلف الأبواب الحديدية، عاجزًا عن النوم طيلة الليل.

وفي وقت مبكر من صباح الغد، جاء الجنود البريطانيون وطلبوا منه التوقيع على بعض الأوراق، ولما رفض، أهانوه لفظيًا. ثم أيقن القائد أن "تحسين بك" لن يغير موقفه، فطلب من الجنديين الحاضرين شهادة مكتوبة تفيد عدم استخدامه العنف مع السجين، لاستخدامها مستقبلًا ضد أي شكوى محتملة تتعلق بالتعذيب أو الإفراط في استخدام القوة.

اصطحبه الجنود مع شروق الشمس إلى الميناء، ثم حملوه في قارب إلى "بينبو"؛ السفينة الحربية الرابضة في البحر. هناك، هبط إلى حجرة خزين معتمة ومكتومة الهواء. كان الظلام يحجب كل شيء، لكنه شعر بوجود أشخاص آخرين. وعندما ألقى السلام، تلقى عددًا من الردود. انتظر إلى جانب الباب، ريثما تعتاد عيناه الظلام. حينها نادى أحدهم على اسمه، فظن أنه ميَّز

صاحب الصوت، فدقق النظر في الظلام. سأل "تحسين بك" عن هوية المنادي، وتلمَّس طريقه إلى مصدر الصوت.

- ألم تميِّز صوتي؟ أنا "رؤوف".. "حسين رؤوف"..

- آه، أهذا أنت يا "رؤوف"!

كان عاجزًا عن التصديق، فأخذ يحدِّق في وجه الرجل للتأكد من هويته.

- هل قبضوا عليك أيضًا يا "رؤوف"؟ مستحيل! لا أصدق ذلك.

عندما اعتادت عيناه الظلام رآه أمامه بشحمه ولحمه جالسًا على الدكة الخشبية، وكم كان حزنه عظيمًا لرؤية "بطل معركة الحميدية" في هذا الوضع.

قال "رؤوف بك":

- لم يعتقلني أحد، بل قمت بتسليم نفسي.

- سلمت نفسك؟ لا يمكنني استيعاب ذلك، لم عزمت على فعل ذلك؟

- سأخبرك بالقصة كاملة عندما يحين الوقت.

- حسنًا، كما تشاء.

قالها "تحسين بك"، وراح يقلب عينيه بين الوجوه. ميَّز بينهم "مصطفى واصف بك" المعروف باسم "كارا واصف"، مؤسس جمعية الضباط، والرجل الذي كان يخطط لطلب مساعدته في بلوغ الأناضول. انقبض قلب "تحسين بك"، لكنه تغلب على الصدمة وخاطبه قائلًا:

- كنت سأتصل بك اليوم لطلب المساعدة في بلوغ الأناضول، فكرت في ذلك قبل أن يتم اعتقالي.

كان من الواضح أن "واصف بك" يبذل جهدًا كبيرًا في محاولة سماعه، ونبَّه "رؤوف بك" إلى تدهور حاسة سمعه بصورة مستمرة، ناصحًا "تحسين بك" برفع الصوت قليلًا. وبالفعل، حاول "تحسين بك" عدة مرات، لكن التكرار أتعبه، فأنهى الحديث بالتعبير عن أسفه.

بعد فترة صمت، قال "تحسين بك":

- لقد أُلقي القبض علي في منتصف الليلة الماضية؛ إنهم لقطاء لا شرف لهم، ولا كرامة! بلغت بهم الجرأة والوقاحة إلى درجة اقتحام حجرة نومي، ونقلوني إلى هنا دون السماح لي بتوديع زوجتي وأبنائي.

شعر "تحسين بك" بدمائه تغلي في العروق، فكف عن الكلام.

ثم تحدث "كمال باشا" وزير الدفاع السابق:

- فعلوا الشيء نفسه معي، دفعتهم الوقاحة إلى اقتحام غرفة نومي والقبض علي في حضور زوجتي. أخبرتهم أني باشا عثماني، وأنه لا يجوز احتجازي، لكن الكلمات لم تنفع في شيء.

توقَّف "كمال باشا" والسخط واضح عليه، بدا أنه يجد مشقة في العثور على الكلمات المناسبة، ثم أردف:

- إنه خطئي أنا، فقد أخطأت التصرف. كان علي البقاء في "قونية" عندما استدعوني إلى إسطنبول، وعدم التخلي عن منصبي. كان علي الإذعان إلى قرار مجلس "أماسيا". كان علي الاعتذار عن منصب وزير الدفاع مهما كلفني ذلك.

لم يستوعب أحد من الحضور سبب لومه نفسه، فقد كان الجميع يجهل تفاصيل ما جرى.

بحث "تحسين بك" عن مكان للجلوس، وأخيرًا وجد بقعة إلى جوار المرحاض، لكن الرائحة كانت سيئة للغاية فلم يحتملها.

اعتبر البريطانيون ائتلاف الحركة الوطنية – المكوَّن من واحد وخمسين حزبًا، وجمعية، ومؤسسة – كيانًا تخريبيًا يتآمر على المصالح البريطانية، ولهذا عومل مؤسسه "محمد عزت باشا" بطريقة سيئة عند القبض عليه، وهو ما سبَّب له شعورًا قاسيًا بالإهانة والحزن العميق. جلس "عزت باشا" يستمع إلى قصة القبض على "تحسين بك" و"كمال باشا"، بقدمين مرتعشتين، وعندما أوشك على البكاء، راح يروي قصة القبض عليه.

مع نهاية القصة، أدركوا أنه لم يكن حزينًا بسبب القبض عليه، أو احتجازه في السفينة، بل لعجزه الآن عن رعاية طفله المقعد، إضافة إلى اقتحام الجنود البريطانيون غرفة ابنته، التي لم تتعاف بعد من الولادة. كما أصابوا زوجته بجرح، وقبضوا على ابنه وزوج ابنته وأودعوهما عربة نقل بملابس النوم.

كذلك، حكى "محمود باشا"، و"جواد تشوبانلي باشا"، و"محمد شريف بك"، و"أحمد فائق بك" قصص القبض عليهم. حيث قُيِّدَ "جواد باشا"،

و"محمود باشا" بالأغلال، وضربت زوجة "محمود باشا" أمامه، بينما قبض على "محمد شريف"، و"أحمد فائق" داخل البرلمان.

تبع ذلك صمت طويل، كان الجميع مستنزفًا بسبب المحنة التي يمر بها، وبسبب قلة النوم. وسرعان ما خلد الجميع إلى النوم، إلا "تحسين بك"، فبالرغم من اتخاذه وضعية الجنين مثلهم، فإن الرائحة حرمته من النوم. فاعتدل، وراح يتذكر كل ما حدث خلال العام ونصف الماضيين.

بعد التوقيع على هدنة "مودروس" في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ بأيام قليلة، رست سفينة حربية بريطانية تحت قيادة القبطان "ألان ديكسون" في خليج "إزمير"، رحَّب السكان اليونانيون بالبحرية البريطانية بحماس شديد وزيَّنوا أحياءهم بالأعلام اليونانية.

وفي منتصف ليلة ١ نوفمبر ١٩١٨، صعد "أنور باشا"، و"كمال باشا"، و"طلعت باشا" إلى متن سفينة الطوربيد الألمانية "ر - 01" "German Torpedo Boat R-01" التي وصلت من روسيا، ورست في ميناء "أسيتينيا"، قبل أن تنطلق في اليوم التالي متجهة إلى البحر الأسود، والأعلام الألمانية ترفرف فوقها.

وفي ٨ نوفمبر، اتهم "فتحي بك" – وزير الداخلية، وصديق طفولة "تحسين بك" – بالإهمال في أداء وظيفته، مما أسفر عن هروب "طلعت"، و"أنور"، و"كمال"، و"سعيد حليم" إلى خارج البلاد. وهو الاتهام الذي تسبب في انهيار وزارة "أحمد عزت باشا".

قبل استقالة حكومة "أحمد عزت باشا" بفترة قصيرة، عُيِّن "تحسين بك" واليًا على مقاطعة "آيدن" وعاصمتها "إزمير". تم اختياره بناءً على ما بذله في حكم دمشق من عملٍ جاد، وإقدام، وعزيمة. وصل "تحسين بك" مع حاشيته إلى "إزمير" في منتصف ليلة ٨ نوفمبر، يوم سقوط الحكومة التي عينته. نزل في "الفندق المبهر"، وفي اليوم التالي باشر مهامه، والتقى بنخبة من كبار الموظفين والمواطنين المرموقين. كما أجرى لقاءً قصيرًا مع "جلال بك" – رئيس فرع جمعية الاتحاد والترقي في "إزمير" – حيث تحدثا عن الوالي السابق "رحمي بك"، ووضع جمعية الاتحاد والترقي، واحتمال إعادة تعيين "كريستوستوموس" – الذي التقى به "تحسين بك" في "دراما" – مطرانًا لـ"إزمير". وأفضى إليه "جلال بك" بهمومه المتعلقة بمستقبل الأمة.

بعد اللقاء بفترة بسيطة – ١١ نوفمبر تحديدًا – شكَّل "توفيق باشا" حكومته، وأخذ يطيح بكل من تربطه علاقة بالجمعية. أدرك "تحسين بك" أن الحكومة الجديدة لن تسمح له بالاحتفاظ بمنصبه، فلم يهتم بقراءة الفرمان أو المرسوم الذي تسلمه قبل وصوله بأيام قليلة، حيث لا فائدة ترجى من ذلك، رغم حرصه القديم على قراءة تلك النصوص المهمة. وبالفعل، أثبتت الأيام صحة تصرفه، فسرعان ما تسلَّم برقية تفيد إعفاءه من منصبه.

كانت مسيرة "تحسين بك" في الخدمة العمومية عبارة عن سلسلة من النجاحات التي أكسبته سمعة حسنة أينما خدم. تسلَّم وظيفته الأولى في سن التاسعة عشرة، مشرفًا على مقاطعة "برسيتشان" في مقدونيا، تلتها وظائف في "تشي تشي"، و"أوجست"، و"رازلوج"، و"جيفجليا"، و"فلورينا"، و"كاسَّاندرا"، و"سالونيكا"، و"دراما"، استغلها جميعًا في إنشاء مراكز إدارية، ومدارس، وكباري، وسدود، وسجون، ومكاتب بريد. هذا إلى جانب

جهوده العظيمة للحفاظ على النظام العام، حيث أخمد تمرد اليونانيين والبلغاريين بحسم، ونجا من عدد من الكمائن دون خدش. كما تمتع بنجاح متواصل خلال توليه منصب مفتش ورئيس شرطة مقاطعة "بايوجلو" في إسطنبول، قبل أن يصير نائبًا لوالي "بورصة"، ومن ثم واليًا على"فان"، ثم "أرضوم"، ثم "دمشق". أما في "إزمير"، فحلم بتدشين مشروعات تخلِّدها ذاكرة المدينة، لكن للأسف، لم يحدث هذا، وانشغل بالنظام العام، حيث وقَّع على ميثاق إحدى المنظمات التي تعارض ضم اليونان لغربي الأناضول.

كانت مسؤولياته في "إزمير" كثيرة حتى أنه لم يجد وقتًا لزيارة أقربائه هناك. وعندما جاءه أخوه "حسين" زائرًا إلى مكتبه، منعته المشاغل من مقابلته. حيث لم يتمكن من رؤية أخيه خلال إقامته هناك إلا مرتين، زار في إحديهما منزل أخيه في "تيلكيليك"، حيث التقى بأولاد أخيه "مجيدة"، و"سلامي"، و"كافيده"، وتذوق طعام زوجة أخيه السالونيكي الرائع. كانت "كافيده" في قمة السعادة لرؤية عمَّها المفضَّل، حتى أنها ارتدت فستانها الأحمر المكشكش بتلك المناسبة، فوجئ "تحسين بك" برؤية هذه السيدة الجميلة، صغيرة السن، فداعبها قائلًا إنها صارت جاهزة للزواج، مما جعل وجنتيها تحمَّر خجلًا.

أعدت له "مقبولة" طبقًا خاصًا، من أوراق الكباب الأبيض والعدس، ومكرونة "فرفور"، وكرات اللحم التركية "سوجوكاكي"، إضافة إلى "مافيش" للتحلية. وقد أنشد "تحسين بك" الشعر في لذة "المافيش"، حتى أن "مقبولة" شعرت بالخجل، قبل أن تفصح عن السر: "يجب أن تكون العجينة رقيقة، تقطع إلى شرائح وتضفر، ثم تقلى في زيت شديد السخونة. أمَّا الشربات فيكون باردًا عند إضافته إلى المعجنات، إياك أن تضيفه دافئًا وإلا أفسدها".

في ساعة متأخرة، بعد تناول قهوة ما بعد العشاء، استأذن "تحسين" في المغادرة، معللًا بأن الغد شديد الازدحام، مملوء بالمقابلات.

كانت تلك هي زيارته الأولى والأخيرة لهم، فحتى عند إعفائه من منصبه، سيرحل إلى إسطنبول سريعًا، دون فرصة لوداع أخيه. ليصل إلى المنزل المطل على البحر في "بوكدري"، بعد رحلة شاقة وطويلة بالقطار. وفور دخوله المنزل، سيحتضن ابنه العزيز "جلال الدين". ويحاول بعدها الاسترخاء في الحديقة. قبل أن تأتيه "مديحة" بنسخ من جريدة "المنبر"، التي ينشرها "فتحي بك" صديق طفولة "مصطفى كمال". وبينما هو منهمك في القراءة، سيرفع عينيه عن الجريدة، ويتوجه بالحديث إلى "مديحة هانم" بخصوص المقال الذي يقرؤه، قائلًا:

- إن "فتحي بك" رجل كفء وشجاع، كما أنه كاتب ممتاز. لقد وجَّه انتقادات حادة إلى حكومة "توفيق باشا".

- أخشى أن يسبب لنفسه المتاعب، فهو يوجه الانتقادات إلى البريطانيين كذلك.

- هذا أمر طبيعي، فهناك الكثير من الأوضاع التي تستحق النقد.

أمضى "تحسين بك" ثلاث ساعات، افترس فيها الجرائد التي تراكمت خلال الأسابيع الثلاثة التي قضاها بعيدًا.

كان منزعجًا من تعطيل السلطان "وحيد الدين محمد السادس" للبرلمان في ٢١ ديسمبر ١٩١٨، ممَّا قضى على أي أداة لمراقبة سياسات السلطان وحكومته أو كبحها. والأسوأ من ذلك كان إنشاء "تورك سفاش سوتشلولاري توتكيك

كوميسيونو" أو "لجنة التحقيق في جرائم الحرب التركية"، وقرار معاقبة كل من يثبت تورطه بالتهجير القسري.

لقد شرعوا في إلقاء القبض على بعض أعضاء الوزارة السابقة، والضبَّاط، والأعضاء البارزين في جمعية الاتحاد والترقي، تحت زعم مسؤوليتهم عن قرار مشاركة العثمانيين في الحرب، إضافة إلى تورطهم في التهجير القسري، وأودعوهم مكانًا يدعى "بيركيلا بولو".

لكن ذلك أثار سخط البريطانيين، فقاموا – مع نية قمع المقاومة في الأناضول – بكتابة ما أسموه بـ"القائمة السوداء"، التي تحوي أسماء ٢٢٣ شخص، سلموها إلى حكومة السلطان في إسطنبول، مع المطالبة بإلقاء القبض عليهم بناءً على تهم ملفقة مثل: خرق الهدنة، وعرقلة تنفيذ شروطها، وإهانة القادة والضبَّاط البريطانيين، وإساءة معاملة أسرى الحرب، والتحرش بالأرمن وبعض الأقليات الأخرى ونهب ممتلكاتها، ومخالفة كل معاهدة وميثاق حربي.

تحطَّم قلب "تحسين بك" عند قراءة التصريح الذي أدلى به السلطان "وحيد الدين" لـ"ج. وارد برايس" صحفي "دايلي ميل"، حيث قال: "لقد ورثت تبجيل واحترام البريطانيين من والدي السلطان عبد المجيد. أشعر حقًا بالأسى من أجل الرعايا الأرمن الذين أُسيء إليهم من قِبَل لجان سياسية تعمل تحت إشراف حكومتي. إن هذه الجرائم وغيرها - مثل المذابح المتبادلة بين أبناء الوطن الواحد - لتدمي القلب. لقد أمرت بالتحقيق في ذلك فور تنصيبي، كي تتم معاقبة كل المحرضين، لكن هناك بعض العوامل التي أعاقت التنفيذ الفوري لأوامري. أمَّا الآن، فهناك تحقيق تفصيلي يتم إجراؤه في هذه المسألة. ولسوف يسود العدل، ولن نسمح أبدًا بوقوع أي من هذه الوقائع الكريهة ثانية".

كان ذلك تصريحًا مبهمًا بالنسبة إلى "تحسين بك"، فقد رأى فيه تجسيدًا للضعف، وخيانة تنذر بكارثة قريبة.

بعد استيلاء الجيش اليوناني على "إزمير" في ٥ مايو ١٩١٩، ساد الصمت أنحاء إسطنبول، ولم يدرك "تحسين بك" أن ذلك هو الصمت الذي يسبق العاصفة. فلم يكن ليتوقع احتلال البريطانيين لإسطنبول، والإغارة على البرلمان وحله، ولم يتوقع إغارة الجنود البريطانيين على محل إقامته خلال الخمس سنوات ونصف الأخيرة، بل وإلقاء القبض عليه في حجرة نومه. وستكون هذه الواقعة بداية عامين من المنفى.

في ظلمة الليل، راح "تحسين بك" يسترجع الماضي، ومرَّتْ فترة طويلة، قبل أن يستسلم للنعاس في النهاية، فيتكوَّر في موضعه ويغيب في نوم عميق.

جيفجليا – ٥/٤ مايو ١٨٧٦

قضى "الشاويش صالح" ليلته يتقلب في الفراش، تمنعه شدة الحماس من النوم. جلس يحدق فترة في بقع الدهان المقشر في السقف. وراحت الأشباح تسبح أمام عينيه فحجبت عنه النوم. كان العرق يغطي كل جسده. ولما يئس من النوم، نهض وذهب إلى النافذة وأزاح الستارة. لم تشرق الشمس بعد، وها هي السماء لم تزل سوداء كالفحم.

عندئذ قرر الاستعداد في الحال، فارتدى ملابسه بسرعة وتوجَّه إلى منزل "إسماعيل أغا". لم يستغرق الطريق سوى بضع دقائق. طرق الباب بقبضته، فقفز "إسماعيل أغا" من على فراشه وأسرع لفتح الباب.

- ما الذي أخرجك في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟ ستوقظ القرية هكذا.

- آسف، ذهني مشوَّش بعض الشيء، لم أنم طوال الليل.

- لا تشغل بالك، لا يهم. يمكننا الانطلاق حالًا.

- هل استيقظت؟

- لا، لكن يمكننا إيقاظها.

طرق "إسماعيل أغا" باب حجرة "ستيفانا" بلطف، وأخبرها أن الوقت قد حان.

عندما فتحت "ستيفانا" عينيها، نظرت حولها بذهول، فقد التبست عليها الأحداث، فلم تعد تعرف أين هي. وعندما نهضت وفتحت الباب، أعطاها "إسماعيل أغا" بعض الملابس، وطلب منها ارتداءها، كنوع من التخفي. أخذت "ستيفانا" تحدِّق في الملابس فترة، حيث فوجئت بأنها ملابس رجالي، لكنها هزت كتفيها بلا مبالاة في النهاية وارتدتها. ضحك "الشاويش صالح" حينما خرجت إليهم، فقد كانت لها هيئة الأولاد، خاصة مع ارتدائها الطربوش.

رحلوا عن القرية قبل الفجر، وركبت "ستيفانا" أحد خيولهم. ثم توقفوا في غابة قرب القرية، وانتظروا هناك الشروق. قال "إسماعيل أغا":

- علينا تجنب السير في الطريق، سيكون ذلك أكثر أمنًا، ولنتتبع منحدرات الجبل حتى نصل إلى النهر عبر جنوب قرية "جافاتو". أتذكر وجود معدية، يمكننا استخدامها في عبور النهر.

أجابه "الشاويش صالح":

- أنا موافق، لا يمكننا المخاطرة بمقابلة أي شخص في الطريق.

وصلوا إلى نهر "فاردار" قرب المساء، لكنهم لم يجدوا هناك شيئًا. سأل "الشاويش صالح" عن المعدية، فأجابه "إسماعيل" بعد أن رآها على الناحية الأخرى من النهر:

- ها هي هناك، عسى أن ترجع إلى هنا سريعًا. يمكننا الجلوس في هذه الأثناء والحصول على بعض الراحة.

جلسوا جميعًا منتظرين المعدية تحت ظل شجرة، وبدأ النعاس يتسلل إلى "ستيفانا"، فقال "الشاويش صالح":

- لماذا لا تستلقين هناك للنوم قليلًا، سنوقظك عند وصولها.

وصلت المعدية بعد فترة طويلة، واستشعر قائدها حالة التعجل التي تسيطر عليهم. نبَّه قائد المعدية على ضرورة توزيع الأحمال بالتساوي، والالتزام بالأماكن وإلا انقلبت بهم.

كان تيَّار مياه نهر "فاردار" قويًا، مما جعل عبوره عملًا خطيرًا. أخذ قائد المعدية يدفعها بواسطة الحبل الذي يتدلى فوق عرض النهر، حتى وصلوا إلى الضفة الأخرى بأمان.

ساروا إلى الجنوب بمحاذاة النهر، وبلغوا "جيفجليا" قبل الظلام. سأل "صالح" أول شخص قابلهم في وسط القرية عن منزل "محمد خوجا".

سأله الرجل:

- أي "محمد خوجا" تقصد؟

- ممم.. إنه يعرف في قريتنا باسم "خوجا جيفجليا".

- عرفت قصدك، يدعوه البعض كذلك، لكنه من "دوجران".

- المهم، أي يسكن؟

- اتجه يمينًا، وواصل السير إلى أن تبلغ أطراف المدينة، هناك سيدلك أي شخص على مكانه.

- شكرًا لك.

استغرق الوصول إلى منزل "محمد خوجا" عشر دقائق، وهناك ألجمت المفاجأة لسانه فور رؤيتهم عند الباب، واحتاج إلى دقيقة لاستيعاب الأمر، ثم سأل:

- إلى من أدين بشرف زيارتكم لنا في هذه الساعة من المساء، يا "إسماعيل أغا"؟

- ألم تتعرف على "ستيفانا"؟ لقد زوَّجتها بـ"أمين أفندي" يا رجل.

رأى "محمد خوجا" "ستيفانا" خلفهم، في ملابس ولد.

- ماذا فعلتم بها؟

- نحن نساعدها على الهرب.

- ماذا؟ ما الذي تقوله؟

- لا داع للقلق.

- كيف وقد أخبرتني للتو أنكم خطفتموها؟

- لا تقلق! استمع إلي. أرسل "أمين أفندي" إلينا خطابًا يطلب فيه إحضارها إلى هنا، وسيصل يوم الخميس لاصطحابها إلى "سالونيكا". ألم يعلمك بالأمر؟

- لا! قضيت بضعة أيام في "دوجران". إن كان قد أرسل رسالة فهي لم تصلني بالتأكيد. لكن لا يهم، الآن فهمت الوضع.

- إذًا علينا الانطلاق فورًا، ما زال أمامنا طريق طويل.

- لماذا لا تقضون الليلة هنا، وترحلون مبكرًا في الصباح؟

- هناك أمور كثيرة علينا إتمامها في القرية الآن. لو لم نرجع هذه الليلة، ستشعر عائلاتنا بالقلق.

- إنه قراركم. وعلى كل حال، أتمنى لكم رحلة آمنة.

دعا "محمد خوجا" زوجته ليعلمها بقدوم ضيف. لم تدرك "جيلنهال هانم" أن الضيف أنثى إلا بعد خلعها الطربوش وإرسال شعرها، كانت تود السؤال عن سبب وجود هذه الفتاة في منزلهما في مثل هذا الوقت، لكن التردد منعها من سؤال زوجها، لكنه شرح لها الموقف، وعندما انتهى من سرد القصة كاملة، قالت:

- يا للمسكينة! هل أنت واثق من مجيء "أمين أفندي"؟

- من أين لي ذلك؟ لقد علمت بهذه القصة لتوي. لكن، لا تقلقي؛ لا داع لاستباق الأحداث. ولنأتيها ببعض الملابس المناسبة أولًا، فلا يعقل بقاؤها بملابس الرجال هذه.

قالت "جيلنهال هانم" مخاطبة "ستيفانا":

- تعالي يا عزيزتي؛ فلنبحث عن شيء لترتدينه.

- لا عليك، لقد أحضرت معي بعض ملابسي.

- اسمحي لي برؤيتها.

أخرجت "ستيفانا" الملابس، وعرضتها على "جيلنهال هانم".

- لكنها ملابس مسيحية.

- ماذا تقصدين؟

- إذا أسلمتِ، توجب عليك ارتداء الملابس التي ترتديها النساء المسلمات. خذي هذه الملابس وارتديها في تلك الغرفة.

دخلت "ستيفانا" الغرفة وارتدت العباءة السوداء، وربطت طرحة خضراء حول رأسها. وعندما خرجت عليهم، قال "محمد خوجا":

- نعم، الآن تبدين كـ"عائشة" حقًا.

لم تعتد "ستيفانا" على اسمها الجديد بعد، وكان استعمال الآخرين له يربكها.

بعد تناول العشاء، سألت "ستيفانا" عن سبب تأخر "أمين أفندي"، فطلب منها "محمد خوجا" التحلي بالصبر، وأخبرها أنه سيصل في وقت متأخر من هذه الليلة.

- هل هناك قطارات تصل ليلًا؟

- لا أعرف، يمكننا الذهاب إلى المحطة للتأكد إن كنت ترغبين.

- نعم، هيا بنا.

قال "محمد خوجا" مخاطبًا زوجته:

- يا "جيلنهال"، سنذهب إلى المحطة للسؤال عن مواعيد القطارات.

بدأ العمل في خط سكة حديد وادي "سالونيكا" - "فاردار" في ١٨٧١، وافتتحت محطة "جيفجليا" في ٩ أبريل ١٨٧٣، وهي أكبر المحطات التي بُنيت في هذه الفترة.

توجد أربعة مداخل إلى المحطة ذات الطابقين، تلي المداخل ساحة انتظار بلا سقف، تليها غرفة انتظار مغلقة. هناك حمام على يسار شبَّاك التذاكر. يحوي الدور العلوي مكتب ناظر المحطة، إلى جانب عدد من غرف المعيشة.

تقع المحطة في الجانب الغربي من المدينة، وتحتاج "ستيفانا" و"محمد خوجا" إلى السير حتى وسط المدينة ثم التوجه جنوبًا للوصول إليها. وهناك، وجدوا المحطة غارقة في ضوء القمر. نظرا حولهما، لكن "أمين أفندي" لم يكن هناك، ولم يكن هناك ما يوحي باستقبال المحطة لأي قطار جديد على المدى القصير. وبينما هما يسيران باتجاه مصباح الكيروسين المزروع وسط رصيف المحطة الخاوي، خرجت امرأة من غرفة الانتظار، ظنت أن "محمد خوجا" هو ناظر المحطة بالخطأ، وسألته عن موعد وصول القطار، فأخبرها أنه مواطن عادي ينتظر القطار أيضًا، وأنه لا يعرف شيئًا عن ميعاد الوصول.

وفي ضوء مصباح الكيروسين، أدركت المرأة أنها تتحدث إلى "خوجا" لا ناظر محطة.

- يا "خوجا"، التبس الأمر علي بسبب الظلام فظننتك من موظفي المحطة.

- لا عليك. لكن ما سبب الغياب التام للموظفين في محطة ضخمة كهذه؟

قاطعت "ستيفانا" الحديث بحماس:

- أرى ضوءًا في الأعلى يا "خوجا"، أليس هذا مكتب ناظر المحطة؟

نظر "محمد خوجا" إلى الأعلى ونادى:

- هل من أحد هناك؟

أطل رجل من النافذة وسألهم عن مرادهم.

- نحن نسأل عن ميعاد وصول القطار.

- لم يصل القطار بعد، ولم يبلغنا أحد بالسبب. وما دام لم يصل حتى الآن، فلن يصل قبل الغد. لا جدوى من الانتظار. يمكنكم العودة إلى منازلكم الآن.

عند سماع ذلك، تعالت أصوات التذمر، واتجه رجلان ناحية الـ"خوجا"، يبدو أنهما ذوي خبرة بالمكان، خاطبه أحدهما:

- سنتتبع النهر حتى نصل إلى "بوليكاسترو" وهناك سننتظر القطار. ماذا عنك يا "خوجا أفندي"؟

رد "محمد خوجا":

- آه، لا أعرف!

كان يفكر أن الواجب يحتم عليه – بعد غياب "أمين أفندي" – اصطحاب الفتاة إلى "سالونيكا"، ففكر في التوجه إلى البيت والانتظار هناك حتى الصباح، لكنه عدَّل عن رأيه سريعًا، لأن مواعيد القطارات لم تكن منتظمة قط. فالخدمات تُلغى تارة، أو تستدير قبل الوصول عائدة إلى نقطة الانطلاق تارة أخرى.

قال "محمد خوجا" بعد تردد:

- هيا بنا! فلنذهب إلى "بوليكاسترو" مع هؤلاء الناس. إذا جاء القطار يمكننا ركوبه هناك.

أحنت "ستيفانا" رأسها في يأس، وسارت خلف "محمد خوجا".

- ألن تخبر "جيلنهال"بما حدث؟

- إنها خبيرة بأحوالي، وقد اعتادت على اختفائي المفاجئ.

* * *

في الصباح التالي، شرعت "ماتو" في البحث عن ابنتها. فلما كان منزل "صالح" هو وجهة ابنتها في المرة الأخيرة، قصدته أولًا. عندما فتحت زوجة "صالح" الباب ورأت "ماتو" سألتها:

- ماذا هناك يا "ماتو"؟ لماذا أنت غاضبة هكذا؟

- كفي عن التظاهر بالجهل. أين ابنتي؟

- هل أنا مربية ابنتك؟ من أي لي معرفة ذلك؟

لم تستسلم "ماتو" لردود زوجة "صالح" الغامضة، بل ازدادت غضبًا وصاحت:

- لتكن لعنة الـلـه على كل أسرتك وعلى بيتك!

فأغلقت زوجة "صالح" الباب في وجه "ماتو".

تنقلت "ماتو" من منزل إلى منزل، تسأل عن ابنتها، لكن لم يعطها أحدًا جوابًا مرضيًا. فهؤلاء الذين يعرفون ما يجري أخفوا الأمر عنها، بينما الآخرون لا يعرفون أي شيء عما يجري.

بحلول المساء، سلكت "ماتو" الطريق إلى منزلها، محملة بيأس عميق، بعد أن فشلت في العثور على ابنتها رغم كل محاولاتها. وفي طريقها، لاحظت أن "تاتيانا" تراقبها من خلف نافذة بيتها، فتجاهلتها وواصلت السير. فتحت "تاتيانا" النافذة وسخرت منها قائلة:

- آه يا عزيزتي، لقد أخذوا "ستيفانا" بعيدًا، أليس كذلك؟ يا لها من مأساة!

استدارت "ماتو" وأسندت يدها إلى وسطها.

- وما دخلك أنت؟

- كنت أنوي إخبارك بشيء، لكن من الواضح أنك لا تريدين الاستماع.

- كفي عن الثرثرة الفارغة، ماذا تعرفين؟

- سمعت أنهم أخذوا ابنتك إلى "سالونيكا".

- من أخبرك بذلك؟

- كانت بعض النساء يتحدثن عند البئر.

- مستحيل، فما الذي ستفعله ابنتي في "سالونيكا"؟

- لا أدري، لكني سمعت أنها بلدة حبيبها.

- فهمت! سأتصرف حالًا.

استدارت "ماتو" وأسرعت الخطى، لكن "تاتيانا" نادتها:

- انتظري دقيقة، أدين لك ببعض المال. لقد نسيت ثمن اللبن بالأمس.

فعادت "ماتو" وأخذت النقود.

كانت محطة "ماتو" التالية هي الأب "تورجيون"، كاهن "بوجدانتسي".

- أرجوك يا أبي، أحتاج إلى مساعدتك. لقد خطفوا ابنتي، وأجبروها على الإسلام، وتزوجت بمسلم. سمعت أنهم يخططون لأخذها إلى "سالونيكا" بالقطار. أنا ضائعة، لا أعرف ماذا أفعل. أرجوك ساعدني يا أبي.

- إذا كانوا سيستخدمون السكة الحديد، فسيستقلون القطار من "جيفجليا". لا تضيعي ثانية، اذهبي وراءها في الحال.

شكرته وطلبت منه الصلاة لابنتها، ثم أسرعت إلى الخارج، لكن الكاهن ناداها.

أخذ الأب "تورجيون" قصاصة ورق من مكتبه وبدأ في الكتابة، فانتظرت "ماتو" بصبر نافد إلى أن انتهى من الكتابة وناولها الورقة.

- عندما تبلغين "جيفجليا"، اذهبي مباشرة إلى مكتب التلغراف. اطلبي منهم إرسال هذه البرقية إلى هذا العنوان.

أخذت "ماتو" الورقة وشكرته، وكانت في طريقها إلى الخارج عندما ناداها الأب "تورجيون" ثانية، وطلب منها الانتظار. وفتح درج المكتب وأخرج مبلغًا من المال.

- خذي، فربما تحتاجينه.

أصاب الخرس "ماتو"، ولم تعد تدري كيف تعبر عن امتنانها للأب "تورجيون". أرادت شكره، لكن لسانها لم يتفوه بحرف. في النهاية، أمسكت "ماتو" بيدي الكاهن وضغطت عليهما.

تركت "ماتو" الأب "تورجيون" قرب منتصف الليل، وأسرعت إلى البيت بأقصى سرعة. ولما كان الناس في القرية لا يغلقون أبوابهم، أدارت "ماتو" المقبض ودخلت إلى المنزل. توجهت مباشرة إلى حجرتها، وجمعت أشياء قليلة أودعتها حقيبة. وبينما هي تهبط السلم، خرج "فلاديمير" من حجرته وسألها عن وجهتها. حاولت التخلص منه برد غامض، لكنه ألح عليها، فقالت:

- بلغني أن "ستيفانا" في الطريق إلى "سالونيكا"، للانضمام إلى ذلك الرجل. سأذهب وأعثر عليها، وأجرها إلى البيت.

- ماذا تقولين؟ ما حكاية "سالونيكا" هذه؟

- لا أملك الوقت للشرح، علي الذهاب الآن.

- أتفهم ذلك، لكن أليس من الأفضل الانتظار حتى الصباح؟

- أحتاج إلى بلوغ "جيفجليا" في أسرع وقت. أنا لا أعرف حتى مواعيد القطار، وليس هناك من يمكنني سؤاله في هذا الوقت من الليل. علي الذهاب إلى "جيفجليا" قبل النهار، ويمكنني الانتظار هناك، لا مشكلة في ذلك.

- لا يمكنني السماح لك بالخروج وحدك في هذه الساعة من الليل. سآتي معك، وحينما تركبين القطار سأعود إلى المنزل.

لم تملك "ماتو" ردًا على ذلك، فقالت:

- حسنًا، هيا بنا إذن.

وبينما هما يغادران المنزل، تذكرت "ماركو" فجأة. كيف نست أمره؟ إذا رافقها "فلاديمير"، فسيبقى "ماركو" وحيدًا في المنزل. وفي الحال أيقظت "ماركو"، الذي نظر إليها باندهاش.

- لا وقت للأسئلة. سأذهب مع "فلاديمير" إلى "جيفجليا"، وستبقى أنت مع "تاتيانا".

تبع "ماركو" أمه وأخيه دون التفوه بكلمة.

وصلت "ماتو" و"فلاديمير" إلى ضفة نهر "فاردار" الشرقية مع شروق الشمس. وركبا المعدية واستعملا الحبل لسحبها وعبور النهر. ثم استغرقا نصف ساعة للوصول إلى المحطة التي لم تكن بعيدة عن النهر. في أول الأمر، لم تفهم "ماتو" سبب ازدحام المحطة، فلم تكن تدري أن القطار السابق تم إلغاؤه، رغم حاجة الجميع إلى بلوغ "سالونيكا" بمناسبة يوم القديس جورج.

تذكرت "ماتو" قصاصة الورق التي أخذتها من "تورجيون"، والتي طلب منها إرسالها من مكتب التلغراف، فأخرجتها وأعطتها إلى "فلاديمير".

- أترى هذه القصاصة يا ولدي؟ أعطاني إياها الأب "تورجيون" بالأمس، وطلب مني أخذها إلى مكتب التلغراف. لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر، لكن علينا

إرسال البرقية. خذ هذه القصاصة إلى مكتب التلغراف. آه، تذكرت.. وخذ هذا المال، فربما تحتاجه.

أخذ "فلاديمير" المال وقصاصة الورق وانطلق مسرعًا. سأل أحد رجال الشرطة عن مكان مكتب التلغراف، فأجابه:

- اذهب إلى الأمام مباشرة، وستجده إلى يمينك قبل أن تبلغ الميدان.

ذهبت "ماتو" إلى شبَّاك التذاكر وسألت عن موعد مغادرة قطار "سالونيكا".

- يفترض – طبقًا للجدول – مغادرته في العاشرة، لكنه لم يصل بعد. ونتيجة لذلك سيتأخر ساعة على أقل تقدير.

- لكنه سيأتي، أليس كذلك؟

- كيف لي أن أعرف؟

- ماذا تقصد؟

- لقد أُلغي قطار الأمس يا سيدتي!

أصاب الارتباك "ماتو"، فإلغاء قطار الأمس يعني أن "ستيفانا" ما تزال هنا في مكان ما. ركضت الأم في الأرجاء وهي تنادي على ابنتها، لكن دون جدوى.

في هذه الأثناء، كان "فلاديمير" قد عاد إلى المحطة. وجلس صامتًا يشاهد أمه تركض هنا وهناك بصورة عشوائية، كان يعرف أنها ستصب غضبها عليه إن تحدث إليها بأي شيء الآن. لكنه توجه إليها في النهاية وقال:

- إن الورقة...

قاطعته، قائلة:

- الوقت غير مناسب لذلك!

بعد فترة، ظهر القطار قادمًا من بعيد، وركضت "ماتو" عائدة إلى شباك التذاكر.

- تذكرة واحدة إلى "سالونيكا".

- أي درجة؟

- لا أعرف، أعطني الأرخص.

- درجة ثانية... سيكلفك ذلك نصف ليرة.

أعطته "ماتو" العملة، وأخذت التذكرة والتفتت إلى "فلاديمير".

- ليس هناك ما يدفعك إلى مزيد من الانتظار الآن، عليك العودة قبل أن يقلق "ماركو".

- لن أغادر قبل أن أراك جالسة في القطار بأمان.

- حسنًا يا بني، حسنًا.

انخفضت سرعة القطار مع اقترابه من الرصيف، وعندما توقَّف تمامًا، فُتحت الأبواب وبدأ الركاب في الدخول جماعات. لاحظ "فلاديمير" رجلًا طويلًا، أنيقًا، يرتدي نظارة، يشوب لحيته البياض. راقبه "فلاديمير" بحرص. أطل الرجل على حجرة الانتظار، ثم اختفى خارج المحطة.

عندما رأت الأم الذهول على وجه ابنها، قالت:

- ما الأمر يا بني؟ تبدو كمن رأى شبحًا.

- لقد رأيت رجلًا خرج من القطار، وأنا متأكد أني رأيته في القرية من قبل.

- لا بد أنك مخطئ.

- لا، أنا واثق من ذلك.

- دعك من ذلك الرجل الآن. بالمناسبة، لا يعرف أحدٌ بذهابي إلى "سالونيكا"، عدا الأب "تورجيون" و"تاتيانا". إن سألك أي شخص، أخبره أني مريضة، ألزم البيت للراحة.

- حسنًا يا أمي، لا تقلقي.

- لا تنسَ حلب البقر أيضًا، وبعدها قم بالمرور على الزبائن، لكن تأكد من تدوين الكمية التي يأخذها كل شخص. وسأتولى أنا جمع النقود عند عودتي.

- ماذا لو احتجنا إلى المال؟

- إذًا خذ المقابل من بعضهم، لكن اكتب المبلغ حتى نعرف ما حدث بالضبط.

- لا تقلقي يا أمي.

- يجدر بك الذهاب الآن؛ التذكرة معي، والقطار هنا، إذًا لا داعي للانتظار.

استسلم "فلاديمير"، وقال:

- حسنًا، إذًا وداعًا. فلتكن رحلة آمنة، وأتمنى ألا تعودين خاوية الوفاض.

احتضن "فلاديمير" والدته، ثم استدار مغادرًا. وبينما هو يسير مبتعدًا، وجدت "ماتو" صعوبة في حبس دموعها.

* * *

ضل "أمين أفندي" الطريق، واحتاج إلى بعض الوقت للوصول إلى منزل "محمد خوجا". فهو وإن كان قد زار هذا المنزل من قبل، إلا أنه لم يشغل باله بالطريق، لأن "محمد خوجا" كان معه. اضطر "أمين أفندي" في النهاية إلى سؤال أحدهم عن الاتجاهات. عندما وصل، طرق الباب بنعومة، فجاءه صوت امرأة تسأل عن هوية الطارق، فقال:

- أنا "أمين أفندي"، عضو برلمان في سالونيكا. هل "محمد خوجا" في المنزل؟

أسرعت المرأة تفتح الباب فور سماعها اسمه، وقضت وقتًا في النظر إليه دون نطق كلمة.

- ما الأمر؟ هل وقع مكروه؟

- كان زوجي ينتظرك بالأمس. وعندما لم تصل في موعدك، ذهب مع الفتاة إلى المحطة. لكنه لم يخبرني بأي شيء.

- ذهب إلى المحطة؟ إذا فأين هو الآن؟

- كيف لي أن أعرف؟ أنا أيضًا قلقة. كانت الفتاة تتحدث عن "سالونيكا"، لكني لا أصدق ذلك، فلم يورط زوجي نفسه في مثل هذه الأمور من قبل.

تملكت الحيرة من "أمين أفندي"، وقال:

- علي العودة إلى المحطة لمعرفة ما يجري.

قالها وأسرع إلى المحطة، وهو يفكر في الورطة التي سببها لنفسه.

بدأ يسائل نفسه: "هل تستحق هذه الفتاة الريفية كل هذا العناء حقًا؟"، ومع ذلك سأل موظف شباك التذاكر هل رأى فتاة بصحبة رجل ملتحي الليلة الماضية.

- كيف يمكنني ملاحظة اللحية في الظلام؟ لكن هناك رجل سأل عن قطار "سالونيكا"، وأخبرته أنه لن يصل قبل اليوم. لحظة! أتذكر رؤية مجموعة من الناس تسير جهة الجنوب، ربما انضما إليهم.

انهار "أمين أفندي" على الدكة من اليأس، ثم أدرك أن ذلك يعني عدم عودتهما إلى "بوجدانتسي"، وربما ذهبا إلى "سالونيكا". نهض "أمين أفندي"، وعاد إلى شبَّاك التذاكر، ودفع ليرة من أجل تذكرة درجة أولى للعودة إلى "سالونيكا".

لم تكن "جيفجليا" المحطة الأخيرة للخط الجديد، لكن الخدمة لم تكن متاحة في المناطق التي تليها، فرغم وجود القضبان، كان إنشاء بعض المحطات لم يكتمل بعد. تسير معظم القطارات بالفحم، وتتزود بالمياه في "جيفجليا"، ثم تعود إلى "سالونيكا". وقد استغرق التزود بالوقود ساعتين تقريبًا.

كان القطار الآن جاهزًا للمغادرة، بعد أن قضى ساعتين في المحطة. وعندما أبلغوا ناظر المحطة بذلك، أطلق صفارته وصاح: "فليصعد جميع الركاب إلى القطار!"

سمع "أمين أفندي" الصفارة، فألقى السيجارة على الأرض، وداسها بقدمه ثم قام. جلس في أحد مقاعد الدرجة الأولى، بالجزء المخصص للرجال في مقدمة القطار.

في تلك الأثناء، غادرت "ماتو" الدكة واتخذت مكانها في المقصورة المخصصة للسيدات من مقاعد الدرجة الثانية.

عندما توقف القطار في "بوليكاسترو"، أطلت "ماتو" من النافذة ونظرت حولها. لاحظت فتاة في عباءة سوداء وطرحة خضراء، في صحبة امرأة سوداء ورجل معمم له مظهر الـ"خوجا". لم تميز "ماتو" ابنتها في البداية، لأن جسدها كان مغطى من الرأس إلى القدمين عدا العينين. لكنها دققت النظر، فلم تصدق عينيها! نعم، إنها "ستيفانا". لم تتمالك "ماتو" نفسها وصرخت من الفرح، فالتفتت سائر نساء العربة ونظرن إليها.

كان الـ"خوجا" متجهًا ناحية مقصورة الرجال، أمَّا "ستيفانا" والمرأة فتوجها إلى المقصورة التالية لمقصورة "ماتو". لم تكن "ماتو" تعرف التصرف المناسب الآن.

عندما بدأ القطار في الحركة، سارت "ماتو" باتجاه المقصورة الأخرى، ورأت "ستيفانا" عبر الباب الزجاجي، وقد خلعت الطرحة عندما صعدت إلى القطار. فتحت "ماتو" الباب غاضبة وصاحت في "ستيفانا":

- ماذا تفعلين؟ هل تحاولين قتلي؟ ما الذي تفعلينه بهذه الملابس؟

- هذا ليس من شأنك، أنا مسلمة الآن، وسأعيش مع الرجل الذي أحبه.

أثار ذلك جنون "ماتو"، فأمسكت بكتفي "ستيفانا" وأخذت تهزها.

- ارجعي إلى صوابك يا "ستيفانا". ألا تدركين الأذى الذي تسببينه لي؟

- هذا لا يهمني.

- ماذا تقولين يا ابنتي؟ هل أترك إخوتك وألحق بك، ويكون ذلك جزائي! عار عليك! عار عليك!

لم تتفاعل "ستيفانا" مع كلمات أمها، مما زاد "ماتو" غضبًا. لكنها لم تكن تملك فعل شيء، لقد اتخذت ابنتها قرارًا، ولن تغيره. حينئذ أدركت أنها لا تملك سوى تقبل الأمر، وجلست أمام "ستيفانا" صامتة تمامًا طوال ما تبقى من الرحلة.

إسطنبول/مالطا – ٢٢/١٨ مارس، ١٩٢٠

بدأت محركات السفينة "بينرو" في العمل قبيل الفجر، وأيقظت جميع سجناء المخزن. كانت كل عظام "تحسين بك" تؤلمه بسبب النوم على الأرضية الصلبة الباردة، ووجد صعوبة في الوقوف. ولما كانت أصوات الأوامر الصادرة، وركض طاقم السفينة هنا وهناك يصل إلى أذن "تحسين بك"، حاول استراق السمع لمعرفة ما يجري على متن السفينة، وحينئذ أدرك أن السفينة تستعد للإقلاع.

وعلى الرغم من أنه لم يهتم أحدٌ بإخبار السجناء بوجهتهم، فقد خمَّنوا أنهم سينقلون إلى مالطا، فإلى هناك نُقِل بعض أعضاء الحكومة، والبرلمانيين، والباشوات الذين أُلقي القبض عليهم من قبل.

قبل إقلاع السفينة، أرسل "روبيك" – المندوب السامي البريطاني – برقية إلى اللورد "بلومر" حاكم مالطا، يعلمه فيها بتحرك السفينة "بينرو" بمجموعة من سجناء الحرب، وتوقع وصولها يوم ٢١ مارس على الأغلب.

مع حركة السفينة، سُمِح للسجناء الخروج إلى سطحها. وقف "تحسين" عند المؤخرة مستندًا إلى سور السفينة، يراقب قصر الباب العالي ومسجد آيا صوفيا والجامع الأزرق وهم يزدادوا بعدًا، شعر حينئذ بحزنٍ شديدٍ كحبيب يرحل عن حبيبته. وفي لحظة اليأس تلك، جال بخاطر "تحسين" سؤال واحد: "هل ستُكتَّب له العودة ثانية، أم لا؟".

مع اختفاء إسطنبول من المشهد، كانت يداه قد تيبستا من طول إمساكهما بالسور. أفلت "تحسين بك" السور، وقبض أصابعه وأرخاها عدة مرات، فشعر بألم يديه يتضاءل، لكنه أدرك أن ألم قلبه سيزداد سوءًا.

لعن البريطانيين لاعتقالهم إياه في غرفة نومه، أمام زوجته. وازداد غيظًا حينما فكَّر أن وفاة الأرمن، الذين أُجبروا على الرحيل أثناء حكمه مدينة "أرضروم"، قد تكون السبب وراء اعتقاله. ومع استرجاعه لهذه الوقائع، ازداد مزاجه سوداوية.

لم يكن "تحسين بك" يشعر بالمسؤولية عن وفاة آلاف الأرمن الذين هلكوا – نتيجة لأسباب مختلفة – أثناء تهجيرهم. فهو لا يتذكر أنه أساء معاملتهم مرة، إضافة إلى سعيه في مساعدتهم بكل ما يملك وما لا يملك من سلطات. لقد أمهلهم أربعة عشر يومًا للاستعداد للرحيل، وسمح لهم ببيع مقتنياتهم، وحمل كل ما يرغبون فيه، فائتمن بعض التجار الأرمن الكنيسة الأرمنية على ممتلكاتهم، وأودعها آخرون في البنك العثماني. كما عيَّن وحدة من الشرطة لحمايتهم خلال نقلهم إلى "أرزينجان" و"سيواس" بالعربات التي تجرها الثيران. كما سمح للنساء غير المتزوجات، واليتامى، والمرضى بالبقاء في "أرضروم". لكن من الواضح أن للبريطانيين وجهة نظر أخرى، نتج عنها اعتقاله ونفيه إلى أجلٍ غير مسمى.

كانوا يبحرون وسط "بحر مرمرة"، والماء على مرمى البصر من كل جانب، و"تحسين بك" يقف عند ذيل السفينة يصب كامل انتباهه على خيوط الزبد التي تخلفها السفينة وراءها، فلم يلحظ "أحمد فائق بك" عندما جاء ووقف خلفه.

- لقد راقبتك بعض الوقت يا "تحسين بك"، ما الأمر؟ لماذا أنت غارق في التفكير هكذا؟

- آه، لا تشغل بالك، أشعر أني لا أستحق كل ما يحدث لي.

- كيف هذا؟

- في الحقيقة، الأمر أكبر من ذلك.. إنه ظلم. يُفترض أني أسأت معاملة الأرمن عندما كنت واليًا على "أرضروم". أنا متهم بالتسبب في موتهم!

- حتى لو افترضنا ذلك، ما المشكلة؟! ألم تكن هناك حرب مشتعلة؟ ألم ينضم الأرمن إلى صفوف الأعداء؟ ألم يطعنوننا من الخلف؟

- أوافقك فيما تقول، لكني رغم ذلك لم أحمل لهم أي ضغينة قط، وهو ما لا ينطبق على كثيرين غيري.

- من تقصد؟ اضرب لي بعض الأمثلة.

- بلغتني أخبار عن استخدام بعض الحكَّام القسوة مع الأرمن، لكني لا أستطيع التأكد من صحة هذه الادعاءات.

- إذا فلن تحدد أسماء بعينها!

- قد يكون الأمر مجرد تخمينات، أو إشاعات مغرضة. كيف لي أن أتهم أشخاص دون دليل كاف؟ فأنا لست قاضيًا أو محلفًا. على أيّ حال، إن تهمتي واضحة أمامي. ماذا عن تهمتك أنت؟

- لم يذكروا أمرًا بعينه. ربما هو بعض التخوُّف من موقفي القومي. لكن لا أهمية لما يقولونه الآن، سنكتشف الأمر عند بلوغنا هذه الجزيرة اللعينة.

- لماذا تلعنها؟

- ممم، لا أعرف. شيء ما داخلي يخبرني أن إقامتنا هناك لن تكون مريحة.

- لا تشغل بالك بالمستقبل الآن. سنرى ما تخفيه لنا مالطا عندما نصل إليها.

- أنت تتمتع بالتفاؤل، وهذا ما ينقصني يا "تحسين بك".

* * *

وصلت السفينة "بينرو" إلى مضيق "دردنيل" مع الغروب، وأبطأ القبطان المحركات عندما بلغت بقعة مناسبة للرسو وقضاء الليلة. كانت مقدمة السفينة في مواجهة الشمال عندما أُديرت المحركات في الاتجاه المعاكس لإيقاف السفينة، وألقيت المرساة فأصدرت السلاسل صوت قعقعة عظيم، قبل أن تتوقف المحركات تمامًا.

كان نسيم المساء محملًا بشيء من البرودة. أعيد الإحدى عشر مسجونًا سياسيًا إلى حجرة الأسر بعد حلول الظلام، وهناك جلسوا القرفصاء على الأرض، وغطوا أنفسهم بالملاءات التي أعطاهم إياها طاقم السفينة. انقضى

بعض الوقت في صمت تام، كان الجميع جوعى ينتظرون وجبة العشاء. ومع دخول رجلين من الطاقم بصوانٍ ضخمة، اتجهت أنظار الجميع إليهما.

لم يستطع "تحسين بك" النوم بعد تناول الطعام، بسبب الهم الذي تسببت فيه ذكرى أحداث ماضية. ذكرته الظلمة والرائحة النتنة بأحد أيام يوليو منذ سنوات، حين قبض عليه رجال السلطان "عبد الحميد" وألقوه في زنزانة. وقع ذلك خلال السنة الثالثة من دراسته في كلية العلوم السياسية. كان قد سمع قبل ذلك بسنوات عن جمعية الاتحاد والترقي التي أنشأها الدكتور "إسحاق سكوتي"، والدكتور "عبد اللـه جودت"، و"إبراهيم طمو"، و"محمد رشيد"، وجميعهم طلَّاب في "المدرسة الطبية العسكرية". ازداد اهتمام "تحسين بك" بالجمعية، والتحق بها بعد ذلك بتوصية من أحد طلاب "سالونيكا" في الطبية العسكرية، ليصبح مع الوقت من أكثر أعضاء الجمعية نشاطًا. أخذ يشجع زملاءه على الاقتداء به، وسرعان ما أسس فرعًا لها في قسم العلوم السياسية.

تم نفي ثلاثمائة طالب طب خلال شهر رمضان في عام ١٨٩٧، لكن ذلك لم يكبح زمام الثورة، بل زاد المؤسسة نشاطًا.

كُلِّف فرع "كمال بك السادس" - الذي ينتمي لعضويته "تحسين بك" – بتوزيع ولصق مئات الصحف، والمنشورات، والملصقات؛ التي كان يجب تسلمها من البار الألماني الكبير المواجه للسفارة الروسية. وفي أحد الأيام، أوكل طالب طب يدعى "حليم بك" إلى "تحسين بك" مهمة استلام هذه الصحف والمنشورات؛ قبَل "تحسين بك" المهمة، وذهب برفقة "حليم بك" ليتعرف بمالك البار، فقدَّمه "حليم بك" إليه ثم غادر.

اصطحب الألماني "تحسين بك" إلى حجرة خلفية وعرض عليه الأوراق التي سيوزعها. تفحص "تحسين بك" الورق بدقة بعد أن تركه الألماني في الحجرة وحده، حتى أنه حمل معه بعضها إلى المنزل. في اليوم التالي، وزعها "تحسين بك" على الإثني عشر رجلًا الذين يتبعونه ليقرؤونها قبل توليهم أمر التوزيع. وبالفعل استمر التوزيع فترة من الزمن دون أي إزعاج.

ذهب "تحسين بك" في أحد أيام يوليو – الذي وافق يوم عيد ديني – إلى البار بهدوئه المعتاد، وبينما هو يهم بعبور الباب سمع أحدهم يهمس "سيقبضون عليك الليلة يا تحسين". فتسمَّر في مكانه، حيث رأى نفسه في الحلم ليلة أمس مسجونًا في قبو، وتضرعت إليه أمه باكية كي يتخلى عن هذه المهمة الخطيرة بعد أن سرد عليها ما رأى.

بعد فترة تردد فتح الباب، وما إن دخل حتى قال الألماني

- طالت غيبتك هذه المرة، وتراكمت الأوراق هنا.

توجَّه على الفور إلى الحجرة الخلفية. وبينما هو يتصفح الأوراق، دخل الألماني ليخبره بتواجد بعض الغرباء في البار. ترك "تحسين" الأوراق وذهب إلى البار وطلب كأسًا من البيرة، وأخذ من موقعه يراقب الغريبين وهو يحتسي البيرة. ثم أفضى إلى المالك الألماني بشكوكه، وأبلغه بقراره بعدم نقل المنشورات. أنهى شرابه وهم بالمغادرة، لكن ما إن بلغ الطريق الرئيسي حتى قبض رجلان على ذراعيه وأدخلوه في سيارة ما. ليجد نفسه – في وقت قصير – ماثلًا أمام "شركس محمد باشا". خضع "تحسين بك" لتفتيش دقيق، ورغم فشلهم في العثور على أي شيء مثير للريبة في حوزته فإنهم قاموا باستجوابه.

وصلتهم في تلك الأثناء إذن بالتفتيش من السفارة الألمانية، ففتشوا البار، وأخذوا المنشورات التي عثروا عليها إلى مكتب رئيس موظفي البدالة "كمال بك". سألوه عن سبب ذهابه إلى البار في يوم عيد ديني، وإذا كانت له أي صلة بالوثائق. فأجابهم بهدوء أنه لم يكن يعلم بأمر العيد، وأنه لا يعرف شيئًا عن هذه الأوراق. في الصباح، وقَّع المالك الألماني شهادة تنفي صلة "تحسين بك" بالمستندات. لكنهم واصلوا استجوابه رغم ذلك، ثم أفرجوا عنه بعد تسع وعشرين يومًا من التعذيب في زنزانة شديدة الرطوبة وسيئة الرائحة بقسم شرطة "بشكتاش".

مع استحضار "تحسين بك" لهذه الذكريات بدأ يشعر بالبرودة وأخذ جسده في الارتعاش، ثم غطَّى نفسه بالملاءة وسرعان ما راح في النوم.

* * *

وصلت السفينة إلى ميناء "بيرايوس" في منتصف الليل، ورُفعت المرساة في الصباح عقب التزود بالوقود. بعد يومين من الإبحار المتواصل في المياه الهائجة، بلغت السفينة البحر الأيوني. كان الجميع يعاني من دوار البحر. فأحيانًا ما يجد قليلو الخبرة مشقة في قطع البحار الهائجة، إضافة إلى التأثير السلبي للتواجد في مكانٍ مغلق. إلا أن الهواء المنعش أنعشهم بعض الشيء عند صعودهم في الصباح على متن السفينة. لكن حالة "تحسين بك" و"واصف بك" كانت شديدة السوء، فقد كانا شديدي الشحوب إلى درجة مقلقة، مع تقيؤ مستمر على مدار الساعة.

عندما أبصر "تحسين بك" اليابسة على مرمى البصر، سقط في حيرة بين الشعور بالفرح والشعور بالفزع. أهذه هي جزيرة مالطا الملعونة؟ فرغم كونها

سجنًا محتملًا له إلى أجل غير مسمى، فإنه كان يريد بلوغها في أسرع وقت للتخلص من معاناته.

إنها مالطا، لا جدال في ذلك. وبينما هم يقتربون منها، نمت النقطة البعيدة وأخذت تزداد حجمًا، لتدخل السفينة الميناء وقد انكشفت أمامهم تضاريس الجزيرة وزال عنها كل الغموض. كانت قابعة أمامهم، في زينتها وبهائها، أكبر حجمًا حتى من تخيلاتهم.

بعد ساعات من الجلوس في صمت إلى جوار "رؤوف بك"، التفت "تحسين" إليه وقال:

- حسنًا، من الواضح أنها جزيرة ضخمة بصورة خيالية.

كان يشعر براحة شديدة لتخلصه أخيرًا من دوار البحر.

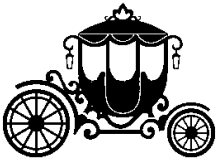

"سالونيكا" – ٥ مايو ١٨٧٦

أتى الفجر ومعه يوم آخر مشؤوم. الشمس مترددة في إشراقها، ومع معاناة أم جاءها المخاض وتعاني من ألام الولادة، دفع الظلام قرص الشمس عاليًا. كانت الطبيعة غاضبة من الشمس التي تعاند مشيئتها، لكنها ارتفعت على مضض فوق "سالونيكا" بالتدريج، مختبئة خلف الغيوم، بعد أن عجزت عن مواصلة المقاومة. أغضب سلوكها أجراس الكنيسة التي دوت عاليًا، كأنها تقول: "تماسكي قليلا! ماذا بك؟".

عندما استيقظت "إيليني" على صوت أجراس الكنيسة، كان ضوء الصباح يملأ الحجرة بالفعل. ألقت نظرة على الساعة البرونزية ذات الطراز الفرنسي على الكومودينو المجاورة لفراشها؛ كانت تشير إلى السابعة إلا الثلث. أصابها القلق فورًا، وأيقظت زوجها "ستافروس" قائلة:

- هيا، انهض وإلا تأخرنا على الكنيسة.

دعك الرجل عينيه ونظر إلى زوجته بارتباك، فقالت بتذمر:

- إنه عيد القديس جورج، هل نسيت ذلك؟

قفز "ستافروس" من الفراش، خشية غضب زوجته. وغسل وجهه بالماء في الحوض، ثم نظف جسده وإبطيه بالفوطة الصغيرة التي ناولته إياها زوجته، قبل أن يجفف نفسه بأخرى ويرتدي ملابسه على عجل. تناول قطعة بقسماط من صندوق الخبز ووضعها في اللبن الذي اشترته زوجته من اللبَّان ذلك الصباح، وتناول طعامه سريعًا. كانت زوجته "إيليني" قد أنهت فطورها بالفعل.

ارتدى "ستافروس بانايديس" حذاءه وقبَّعته الزرقاء سريعًا وغادر المنزل خلف زوجته على مضض.

لم يكن "ستافروس" رجلًا متدينًا، بل كان لا يتردد على الكنيسة إلا في أيام الأحد، ويحاول تجنب زيارتها في الأعياد. لكن لا مفر من زيارة الكنيسة ذلك الصباح، حيث أنذرته زوجته مساء أمس، فاضطر إلى إعطائها وعدًا بالذهاب اليوم.

يقع منزل "ستافروس" عند تقاطع شارع "مانولاكو" مع شارع "ميلينيكو"، قرب "ألتن كابي"، شرق ضاحية "مدحت باشا". قطع "ستافروس" و"إيليني" شارع "كرياكو مانولاكو"، ووصلا إلى "كنيسة القديس بندلايمون"، واجتازا البوابة الرئيسية. قبل عبورهما الباب الداخلي، تناولت "إيليني" شمعة وأنارتها، ثم ثبتتها في الصينية النحاسية الكبيرة المملوءة بالرمال، وصلت من أجل زيجة قريبة لابنتها، أما "ستافروس" فوقف قرب أحد الجدران يراقب ما يحدث. وفي طريقهما إلى الداخل، قبَّلا الأيقونات التي تشغل أحد الجانبين، ورشما الصليب، ثم جلسا صامتين، برأس محن وأياد متشابكة أمامهما بخضوع، في انتظار بدء القداس.

اتجه القسيس وخلفه اثنان من الشمامسة يحملان المباخر إلى المذبح وبدأ القداس بقوله: "مباركة هي مملكة الأب، والابن، والروح القدس، الآن وغدًا وإلى أبد الآبدين".

توجها بعد القداس الطويل إلى المنزل. لكن "ستافروس" توقف فجأة في الطريق، قائلًا:

- مهلًا يا "إيليني"، فلنذهب إلى "يورجو" لإحضار بعض مقرمشات اللوز احتفالًا بالعيد.

ردت "إيليني" غاضبة بحسم:

- أنت لا تفكر إلا في الطعام. هذا الأمر مرفوض!

ولم ينطق أحدهما بحرف آخر طوال الطريق.

قال "ستافروس" بعد تناول الغداء:

- يفترض عودة القنصل من رحلته اليوم أو غدًا، لذا علي الذهاب إلى القنصلية للتأكد من عودته.

- لكني ظننت أننا سنزور أمي اليوم.

- لا تنتظريني، اذهبي أنت لزيارة أمك. لا يمكنني التغيب عن العمل لحظة، علي أن أكون هناك للترحيب بالقنصل لحظة وصوله.

صعد "ستافروس" التل في عجالة، وتوجه يمينًا إلى شارع "فاردار"، ليصل إلى القنصلية خلال دقائق.

* * *

أنشئت القنصلية الأمريكية في "سالونيكا" عام ١٨٣٥ لخدمة عمليات الشحن الأمريكية في شمال بحر "إيجه". بعد وفاة "ب. و. ليولين"، القنصل الأول عام ١٨٤٢، انقضت فترة طويلة قبل تعيين قنصل آخر لـ"سالونيكا"، حيث وقع ذلك في عام ١٨٧٠ عندما عُيِّن مواطن روسي من أصل يوناني يدعى الحاج "بيرسليز لازارو" قنصلًا شرفيًا. وكان أول ما قام به "لازارو" هو شراء مبنى من ثلاثة طوابق بحديقة أمامية صغيرة في شارع "فاردار" لتكون سكنًا له وقنصلية في الوقت ذاته.

كانت القنصلية تشغل الجانب الأيسر من المبنى، حيث تقابلك قاعة فسيحة عند عبورك الباب الأمامي، وتجد على يسارك مكتب سكرتير القنصلية، وعلى يمينك مكتب أصغر حجمًا. أمَّا مكتب القنصل فيقع في الطابق الأول، أمام السلم مباشرة، وعلى يمينه غرفة لاستقبال كبار الزوار. تطل الغرفتان على الحديقة الخلفية، وشارع "إكساديختيلو"، و"كنيسة القديس خرالمبوس".

كان الطابق الأعلى مخصصًا لإقامة القنصل، حيث يعيش مع زوجته، وابنه، وابنته، ومربية الأطفال، ووالدته، وأخيه "نيكولاس".

أخرج "ستافروس" ساعة الجيب التي أعطاه إياها القنصل هدية في ذكرى تأسيس القنصلية، وألقى عليها نظرة.

- يا الـلـه، إنها الثانية والنصف!

أسرع بعبور البوابة الحديدية، وألقى التحية على الحارس المتواجد هناك.

- صباح الخير "يورجو".

- صباح الخير سيد "ستافروس".

فتح "ستافروس" باب القنصلية مستخدمًا مفتاحه الشخصي، ولما كان اليوم عيدًا فقد توجه إلى مكتبه مباشرة. فلو لم يكن كذلك، لتوجه إلى مكتب القنصل بالطابق الأول، وطرق الباب بعجلة، ثم انتظر الإذن بالدخول، ليدخل المكتب ويعتذر عن التأخير، فيجيبه القنصل بنبرة باردة مترفعة: "لقد اعتدنا على ذلك يا سيد "ستافروس". كان هذا المشهد بمثابة جزء من الروتين اليومي في السفارة.

* * *

قبل أربعة أيام، ذهب الحاج "بيرسليز لازارو" القنصل الشرفي للولايات المتحدة إلى "إذيسا" بصحبة السيد "فاتيكيوتيس" القنصل اليوناني في "سالونيكا"، والسيد "مافروكورداتو" عضو البرلمان اليوناني. خلال هذه الأيام الأربعة، أنهى "ستافروس" كل المهام المتراكمة، وصار متفرغًا إلى حد كبير.

حتى أنه أكمل كل الوثائق المكدسة على مكتبه، وأعاد ترتيب المكتب نفسه أيضًا.

قال القنصل إنه سيرسل برقية إذا اضطر إلى تأجيل عودته، لذا ذهب السيد "ستافروس" إلى حجرة التلغراف المجاورة ليسأل عن الأمر، لكنه لم يجد أي برقيات. فيما بعد، بينما هو ينظر عبر النافذة شاردًا، لاحظ عربة القنصلية التي يجرها الخيل، ففتح النافذة ونادى على السائق.

- هل يمكنك القدوم إلى مكتبي يا "ديمتري"؟ أود إخبارك بشيء.

أسرع "ديمتري" إلى المكتب.

- ماذا هناك يا سيد "ستافروس"؟ أهو أمر عاجل؟

- لا تقلق. كل ما في الأمر أني تذكرت ما قاله القنصل قبل سفره، عن رغبته في قضاء عيد القديس جورج هنا حال فراغه من مهامه في الموعد المقرر. علينا أن نستعد، فلربما جاء في قطار السادسة. حبذا لو قمت بتجهيز الخيل، وتنظيف العربة.. نريد ترك انطباع جيد عند ضيوف القنصل.

* * *

في الثالثة تقريبًا من مساء ذلك اليوم، بينما ينعم "ستافروس" بقيلولته على مكتبه، رن جرس آلة التلغراف، وبدأت الإبرة المتصلة بالجهاز في تسجيل النقاط والشرطات على لفافة الورق. ترك "ستافروس" مكتبه وأسرع إلى حجرة التلغراف ظنًا منه أن المرسل هو القنصل لا محالة. كانت الرسالة قد دونت بالكامل، فاقتطعها من اللفافة وجلس على مكتبه لفك شفرة الرسالة المدونة بأبجدية "صامويل مورس"، المخترع الأمريكي عام ١٩٤٠. كانت أبجدية صعبة، تتكون من نقاط وشرطات مرتبة بطرق معينة، اضطر إلى تعلمها حينما بدأ العمل في القنصلية. انتهى "ستافروس" من فك شفرتها سريعًا، ثم دوَّن الرسالة على ورقة، ثم قرأها ثانية للتأكد من خلوها من الأخطاء.

"عاجل. مايو ١٨٧٦. إلى القنصلية الأمريكية في سالونيكا سعادة الحاج بيرسليز لازارو. اختطف مسلمون فتاة بلغارية تدعى ستيفانا في بوجدانتسي يوم الأربعاء. أُجبرت على اعتناق الإسلام. تفيد المعلومات أنه سيتم نقلها إلى سالونيكا اليوم بواسطة القطار. يتوقَّع المجتمع البلغاري الأرثوذكسي منكم كل مساعدة ممكنة لإنقاذها. الأب تورجيون. نيابة عن الأبرشية الأرثوذكسية في بوجدانتسي".

شعر "ستافروس" بالقلق عند قراءة كلمة "عاجل" في مقدمة الرسالة، حيث كان يجهل التصرف المناسب لهذا الموقف. لم يكن بإمكانه تحمل مثل هذه

المسؤولية وحده، فقرر الإسراع بالعثور على "نيكولاس" شقيق القنصل فورًا. صعد السلم إلى السكن وأخبر الخادمة، التي استقبلته عند الباب، بحاجته إلى مقابلة السيد "نيكولاس" فورًا. فأجابته الخادمة بغطرسة أن السيد "نيكولاس" نائم وأن عليه العودة لاحقًا، لكن "ستافروس" تخطاها واتجه إلى مكتب "نيكولاس". هناك، كان "نيكولاس" يغفو في مقعده الوثير، ولم يسمع طرقات "ستافروس"، لكن عندما طرق الباب ثانية، استجمع "نيكولاس" قوته وقال:

- دقيقة واحدة، دقيقة من فضلك.

وعندما انتهى من ضبط هندامه، أذن لـ"ستافروس" بالدخول.

مع دخول "ستافروس" المحموم إلى الحجرة، سأله "نيكولاس" عن سبب مجيئه.

- إنها رسالة عاجلة إلى السيد "بيرسليز"، ولما كان في سفر حاليًا، قدرت أن التصرف الأمثل يقتضي عرضها عليك.

- أحسنت الفعل، دعني أقرؤها.

قرأ "نيكولاس" الرسالة بسرعة، ومع آخر جملة، نظر إلى النجفة الكريستال وتمتم بشيء ما مخاطبًا نفسه.

- ...

- معذرة، لم أسمعك جيدًا يا سيدي. هلا أعدت قراءة الجملة؟

- آاه، لا شيء! لا تشغل بالك!

- إذا فلتسمح لي بالمغادرة. هل هناك ما تود إخباري به؟

- لا. لا، يمكنك المغادرة.

لكن "ستافروس" استدار وهو في طريقه إلى الخارج، وقال:

- أخبرنا السيد "بيرسليز" قبل مغادرته باحتمال عودته اليوم، لكننا لم نتسلم أي رسالة منه بعد. سأكون مع "ديمتري" في المحطة لاستقبال القطار تحسبًا لوصوله.

- كنت لأذهب معكما، لكني تعهدت باصطحاب أمي في نزهة اليوم.

* * *

نظر "ستافروس" في ساعته فوجدها تعدت الخامسة بالفعل، فغادر مكتبه متجهًا إلى حجرة "نيكولاس". كان الباب مفتوحًا، ووجد "نيكولاس" واقفًا أمام المرآة يتأمل ثيابه. فوجئ "نيكولاس" بطرقة "ستافروس" على الباب، قبل أن يخاطبه قائلًا:

- نحن على وشك المغادرة يا سيدي، هل هناك أي أوامر؟

- اصطحب "مركيلا" و"إيلينا" معك إلى المحطة، سيستمتعان بالنسيم. أطلب من المربية تجهيز الأطفال وإرسالهم إلى الأسفل بسرعة.

- لكن السيد "بيرسليز" سيأتي ومعه بعض الضيوف، ولن تسع العربة الجميع.

- إذًا خذ عربتي معك.

- أذكر أنك كنت تنوي الخروج مع والدتك، ألن تحتاج العربة؟

- نحن لا ننوي الابتعاد كثيرًا، لذا لن نحتاج إليها. كذلك هناك الوعد الذي أعطته أمي للأطفال. لذا اصطحب الأطفال معك.

انحني "ستافروس" وغادر الحجرة.

وصل الأطفال بصحبة المربية إلى القاعة، و"ستافروس" يفكِّر من الورطة التي وقع فيها. وخاطبته "ماركيلا" بتعالٍ:

- سنرافقك نحن أيضًا إلى المحطة يا "ستافروس".

- أعرف ذلك.

والتفت إلى الأطفال:

- اصعدوا إلى عربة عمكم بأقصى هدوء ممكن.

صعد الأطفال والمربية إلى العربة، وقاد "ديمتري" العربة الأولى، و"ستافروس" الثانية. عبرت العربتان الحديقة الأمامية إلى شارع "فاردار" حيث اتجهتا يمينًا. بادر "ديمتري" بضرب الهواء مستخدمًا سوطه، وتبعه "ستافروس"، وازدادت سرعة العربتين مع صياح "ديمتري" في المارة ليفسحوا الطريق. مرت العربتان إلى جوار "ألتن كابي" ووصلتا إلى المحطة.

في هذه اللحظة، أخذت آلة التلغراف الخاصة بالقنصل في إصدار الرنين.

"عاجل. ٥ مايو ١٨٧٦. السيد ستافروس بانايديس. القنصلية الأمريكية. لم ننتهي من شؤوننا في فودينا. تأجل موعد عودتنا إلى سالونيكا إلى الغد. انتظرونا في محطة القطار غدًا. بيرسيليز لازارو القنصل الشرفي لأمريكا".

* * *

اقترب القطار الذي غادر "بوليكاسترو" في الظهيرة من "سالونيكا"، بعد التوقف في محطتي "كاروجلو" و"قرقلر أيلي". تجاهلت "ستيفانا" والدتها والمرأة السوداء، ونظرت عبر نافذة عربة السيدات إلى الخارج، حيث أعواد القصب تتمايل على ضفة النهر مع مرور القطار. بدا الأمر لـ"ستيفانا" كأن القصب يلوِّح للقطار.

في النهاية، مع اقتراب القطار من المحطة، فتحت "ستيفانا" النافذة وأطلت إلى الخارج. لم تستطع قراءة اللافتات التي تحمل اسم المحطة، لكنها استنتجت أنها المحطة المقصودة، فقد كانت اللافتات أكبر حجمًا بكثير من لافتات المحطات الأخرى. التفتت إلى أمها وقالت:

- نحن نقترب من محطة كبيرة، لا بد أنها "سالونيكا".

ولما لم تجب الأم، أدركت أنها ما تزال غاضبة، فتجاهلت الأمر، وسارت باتجاه مقدمة عربة القطار. وعندما رأت "محمد خوجا" في إحدى العربات سألته:

- هل وصلنا إلى "سيلانيك"؟

وقبل أن يتمكن "محمد خوجا" من النظر عبر النافذة، رمقها صاحب القبعة الجالس بجانبه من فوق نظارته، وقال:

- أظنك تقصدين "سالونيكا"، والإجابة في هذه الحالة هي نعم، وصلنا بالفعل.

لم يكن الرجل الذي تحدث إلى "ستيفانا" بغطرسة سوى "جورج أبوت"، أحد أقرباء الحاج "بيرسليز لازارو" قنصل أمريكا الشرفي. كان والده "جاك

أبوت" أحد أكثر الرجال ثراءً في المدينة. ورغم أن السبب المعلن وراء ثرائه هو تربية وبيع الديدان العلقية، فقد كان – في الواقع – مرابيًا. لم يكن "جاك أبوت" يتقبل أي معارضة، وقد بلغ من القسوة حدًا جعله يرشو كبار الموظفين ليلقى بمنافسيه في السجن. ورغم كونه أرثوذكسيًا يونانيًا من ناحية الديانة، إلا أنه كان مواطنًا بريطانيًا، يوفِّر له جواز سفره قدرًا كبيرًا من الحصانة والنفوذ.

لم يكن "جورج أبوت" أقل قسوة أو عجرفة من والده. يعرف الجميع بأمر كرهه للأتراك، وهو ما ظهر في معاملته مع "ستيفانا". وإن كان تصرفه – في الوقت ذاته – انعكاسًا للشعور اليوناني بالتفوق على الأتراك، ذلك الكبرياء اليوناني المتنامي. كانت سيطرة العثمانيين على "سالونيكا" تثير سخطهم، مما جعل رفضهم الأسماء الجديدة التي يطلقها العثمانيون على بلادهم أمرًا متوقعًا. لكن "ستيفانا" كانت تجهل كل ذلك، فنظرت إلى الرجل بغيظ، وتمتمت في طريق عودتها تتحدث إلى نفسها قائلة: "يا له من غبي! ما الفارق بين "سالونيكا" و"سيلانيك"!".

عدَّلت "ستيفانا" من وضعية العباءة بحيث تغطي كل جسدها، وأخفت أنفها وفمها باليشمك. وأشارت إلى والدتها والمرأة السوداء أن القطار وصل إلى المحطة، وأن الوقت قد حان للمغادرة. ثم حملت حقيبتها وتوجهت إلى الباب دون انتظار أحد، لا والدتها ولا غيرها. كانت في عجلة من أمرها حتى أنها لم تلحظ الرجل الذي أزعجها قبل دقائق. فكانت أول من غادر القطار.

كان تخيلها لمشهد اجتماعها المترقب بالرجل الذي تحبه يشعل النار في قلبها، فاحمر وجهها، وشعرت بالخجل.

انضمت إليها والدتها والمرأة السوداء عند رصيف المحطة، وسار الثلاثة ناحية المخرج، قبل أن يغادر "محمد خوجا" القطار ويتبعهم.

نظرت "ماتو" بوجهٍ جامد إلى ابنتها، كان القلق الرهيب واضحًا عليها. كانت تخاف على ابنتها من التعاسة في مثل هذه السن المبكرة. وتعجبت، أي رجل هو هذا "الأمين أفندي" لتتخلى ابنتها من أجله عن كل ماضيها وتخطو إلى المجهول؟ هل يحب ابنتها حقًا؟ ما الدافع الخفي وراء اعتناقها الإسلام وزواجها بمسلم؟ ما الذي تفعله هي باتباع ابنتها إلى هذه المدينة؟

هكذا هو قلب الأم. كانت ابنتها مصممة على الزواج من ذلك الرجل، ولم يكن أمامها كأم سوى تقبل هذا المصير. على أي حال، كان ذلك المصير قد تشكَّل في القرية. وبينما هذه الخواطر تعصف برأسها، لم تستطع منع نفسها من التساؤل عن سبب تذمر هذا الحشد المتجه إلى المحطة.

لم تكن "ستيفانا" تعرف عن "أمين أفندي" إلا كونه عضوًا في المجلس المحلي، ولم تكن على علم – ولا "محمد خوجا" – بمكان سكنه. لذا لم يكن أمامهما إلا التوجه إلى مبنى الحكومة والسؤال هناك. وبينما هما يبحثان عن شخص يصف لهما الطريق إلى مبنى الحكومة، رؤوا مجموعة من رجال الشرطة منشغلين في حديث ما. أسرعت "ستيفانا" إليهم، وسألتهم في لهفة بتركية عرجاء ونبرة صوت بشكل جزع عن الطريق إلى مبنى الحكومة.

- تمهلي قليلًا! لم العجلة؟

فبدأت – بتردد وخجل – تحكي قصتها.

قال شرطي:

- حسنًا، حسنًا، فهمنا. هذا أمر يخص شخصية هامة. تعالي معنا.

وفي طريقهم إلى بوابة "فاردار"، أخذت "ماتو" في الصياح فجأة، بعد أن كانت مستعدة لتقبل الأمر قبل دقيقة واحدة.

- لقد أرغموا ابنتي على الإسلام! هل من مسيحي شجاع بينكم لينقذها؟

كان هناك جمع من اليونانيين يقف في ميدان المحطة بمناسبة عيد القديس جورج، أخذ هذا الجمع في الاقتراب استجابة لصرخات "ماتو". في الوقت نفسه، كان رجل أنيق يدعى "هانجي فاسيلي" يبذل أقصى جهده لإثارة هذا الجمع.

لم تكن الشرطة قد استوعبت بعد ما يجري، وبدأ الجمع في جذب ودفع "ستيفانا". أما "جورج أبوت" الذي أساء إلى "ستيفانا" في القطار، فقد مزق اليشمك وألقاه على الأرض، لتدوسه أقدام اليونانيين. تزامن ذلك مع مرور مجموعة صغيرة من الشباب المسلم، الذي أثار هذا المشهد المسيء إلى دينه حفيظته، فبدأت مشادة كلامية، تطورت إلى اعتداء من الجمع اليوناني البالغ عدده حوالي مئة من الرجال والنساء على الشباب المسلم. في تلك المرحلة، أوشكت محاولات الشرطة للسيطرة على غضب اليونانيين أن تزج بهم كطرف في ذلك الصراع، لكنهم انتبهوا حينئذ إلى الفارق العددي الهائل بينهما، فتراجعت الشرطة تاركة الفتاة تحت رحمة الجمع الغاضب.

كانت "ماتو" منتبهة إلى تطور الأحداث، لكنها لم تكن تدري ما يتوجب عليها فعله لحماية ابنتها. كان خوفها في الأساس من المسلمين، ولقد أربكها هجوم المسيحيين على "ستيفانا". اخترقت "ماتو" الحشد ووقفت أمام ابنتها لحمايتها، وهي تصرخ:

- اتركوا ابنتي وشأنها! أرجوكم باسم المسيح أن تتركوها!

تجاهل اليونانيون توسلاتها اليائسة وواصلوا الهجوم على الفتاة وسبها.

- إنك فتاة خائنة!

- أيتها الساقطة!

- يا كافرة!

شعر بعض اليونانيون بضرورة التدخل، عندما رؤوا أن الموقف يخرج عن السيطرة. فسحبوا "ستيفانا" إلى عربة القنصل الأمريكي الشرفي، التي كان قائدها يستعد للمغادرة، بعد علمه بعدم وصول القنصل في القطار. لم يكن "ديمتري" السائق يعرف ما يتوجب عليه فعله بخصوص المجموعة التي تقترب من العربة.

صاح أحدهم:

- أدخلوها العربة، بسرعة، بسرعة!

ودفعوا "ستيفانا" إلى عربة القنصل التي يجرها حصانان، وألقوا بها داخلها كشوال بطاطس.

استجمعت "ستيفانا" قوتها وحاولت الخروج، لكن "ديمتري" أمسك بها بحزم وأعادها إلى الداخل ثانية.

- كفي عن الحركة، والزمي العربة!

- كيف تجرؤ على معاملتي هكذا؟

- تحلِ ببعض العقل يا فتاة! ألا ترين أنهم عازمون على قتلك؟

وضرب "ديمتري" بسوطه الهواء، وانطلق بالعربة دون التفوه بكلمة أخرى. أما "ماتو" فلم تملك سوى الوقوف هناك ومراقبة ما يجري.

* * *

توجه "أمين أفندي" مباشرة إلى العربة التي تنتظره عند المدخل، جاهلًا بأمر ركوب "ستيفانا" القطار نفسه. جلس إلى جانب السائق، فراح الثاني يصيح بالناس لتفسح الطريق. وبينما العربة تبتعد عن المحطة، رأى "ستيفانا" تساق إلى عربة القنصل، لكنه لم يسرع لإنقاذها، بل اكتفى باللعن والسباب الخافت.

وصلت العربة التي تحمل "ستيفانا" إلى القنصلية مع حلول الظلام. صاح "ديمتري" بـ"يورجو" يحثه على فتح البوابة، فألقى الأخير نظرة فضول داخل العربة.

- هيا! أسرع يا رجل!

قالها "ديمتري" فركض "يروجو" إلى البوابة. قاد "ديمتري" العربة إلى باحة القنصلية، والحارس يشاهد ما يجري بدهشة، عاجزًا عن الفهم. توقفت العربة أمام منزل القنصل بالضبط، وترجل "ديمتري"، الذي تناول يد "ستيفانا" في محاولة منه لإخراجها. فلما قاومته حاول إقناعها بلطف:

- هيا بنا! لا تخافي، أنت بأمانٍ هنا!

لم يمر وقت طويل حتى وقفت العربة التي يقودها "ستافروس" هي الأخرى أمام البوابة، تحمل داخلها والدة "ستيفانا".

سأل "يورجو" – حارس البوابة – بدهشة:

- من تكون هذه المرأة يا "ستافروس"؟

- إنها والدة الفتاة التي أتت مع "ديمتري". رأيتها تجري خلف العربة، ولما سألتها عن السبب قالت إنهم خطفوا ابنتها. فأشفقت عليها وجئت بها إلى هنا.

اصطحب "ديمتري" "ستيفانا" إلى حجرة الطعام، ولحق بهما "ستافروس" مع "ماتو" سريعًا. ركضت الأم وعانقت ابنتها، لكن "ستيفانا" – التي كانت باردة كالجليد – لم تتجاوب معها.

شرعت "ماتو" في البكاء قائلة:

- آه يا ابنتي العزيزة، الغالية، كم كنت خائفة! لم أكن أعرف إلى أين تتجه بك العربة. الشكر للرب على اجتماعي بكِ ثانية.

لكن الفتاة حافظت على جمودها، ومرت فترة طويلة من الصمت التام.

غادر الرجال وتركوهما لحالهما، ولم يأتِ أحد لتفقدهما، فجلستا في انتظار ما سيكون.

كانت "إيفجينيا" – والدة "بيرسليز" – أول أفراد العائلة عودة إلى البيت. حينما رآها سائق العربة بادرها بالحديث:

- أظنني أسأت التصرف يا سيدتي! لقد ذهبت إلى المحطة لاستقبال السيد "لازارو"، لكنه لم يكن ضمن ركاب القطار. ثم رأيت جمعًا كبيرًا يهاجم فتاة، وأخذ بعضهم يدفعها باتجاهنا، يريدون إدخالها في العربة. حاولت منعهم، لكن سرعان ما تبين لي الخطر الذي تتعرض له الفتاة، فلم أملك إلا السماح لها بالركوب وإحضارها إلى هنا. وحمل "ستافروس" والدتها في العربة الأخرى.

قالت "إيفجينيا" في نبرة توبيخ:

- كيف تفعل ذلك أيها الرجل! كيف فعلتها بحق المسيح!

ثم سألت عن مكان تواجدهما.

- هما الآن في حجرة الطعام.

هرعت "إيفجينيا" إلى حجرة الطعام، وسألت "ماتو" في غضب:

- من أنت؟ وماذا تفعلين في بيتي؟

نزلت "ماتو" على ركبتيها أمام السيدة العجوز تستعطفها.

- أرجوكِ ساعدينا، لا تتخلِ عنا.

ساعدتها "إيفجينيا" في الوقوف ثانية، وقالت:

- تماسكي من فضلك. لا يمكنني تقديم أي وعد قبل التحدث إلى ابني.

في هذه اللحظة، دخل "نيكولاس" من الباب.

لكن قبل أن يتسنى لـ"نيكولاس" سؤال أمه عما يجري، أخذت "ماتو" تتضرع إليه.

- أرجوك ساعدنا. إن ابنتي لا تدرك عظم خطيئتها، وإن طردتنا فستذهب إلى ذلك الرجل وتضيع أسرتنا.

- أي رجل؟ ماذا تقولين؟ أخبريني بمشكلتك.

سردت "ماتو" قصتها في إيجاز.

وطلبت "إيفجينيا" من "نيكولاس" مرافقتها إلى خارج الحجرة.

وفي طريقه إلى الخارج، لاحظ "نيكولاس" عيني "ماتو" الدامعتين فحوَّل نظره عنها. كان مقدرًا لحجم المأساة التي تشهدها هذه الأسرة، لكنه لم يكن يعرف التصرف المناسب.

عندما سألته أمه عن القرار المناسب، شعر "نيكولاس" بشفقة شديدة على هذه الأسرة.

- لا يمكننا طرد هؤلاء الناس في مثل هذه الساعة يا أمي. دعيهم يقضون الليلة هنا وسنصل إلى قرار مناسب في الصباح.

مالطا – ٢٢ مارس ١٩٢٠

اعتاد "ضياء بك" الحياة على الجزيرة، وهو من نُفي أولًا إلى جزيرة "ليمنوس" قبل نقله إلى جزيرة مالطا منذ ستة أشهر. كان يقضي وقت فراغه بين السينما والمكتبة، وقد يذهب أحيانًا إلى عروض الأوبرا الصباحية مع أصدقائه. يتنزهون خلال الأيام المشمسة في الحدائق والريف، يستمتعون بالزهور البرية الملونة، والماشية، والطيور المغردة. كانوا لا يشعرون بثقل المنفى والحرية المسلوبة إلا عند عودتهم إلى المعسكر كل مساء. فما كان للغريب الذي يجهل ظروفهم إلا أن يحسبهم سياحًا أتوا لقضاء إجازتهم.

في أحد الأيام المشمسة، بينما هم يسيرون في الشارع المجاور للشاطيء، انخرط "حسين شهيد" و"أحمد" في نقاش محموم. وفي منتصف هذا النقاش، حدق "ضياء بك" في السفينة التي تدخل الميناء، ثم التفت إلى أصدقائه قائلًا:

- مفاجأة، مفاجأة! إنها سفينة حربية أخرى. فلنخمن طبيعة الأشخاص الذين تقلهم هذه المرة.

رد عليه "حسين شهيد":

- أجد في أفعال هؤلاء القوم نوعًا من الغموض. لقد أحضروا "حقي مرسال باشا" ووصيفه قبل ثلاثة أسابيع. يمكنني تفهم إلقائهم القبض على الباشوات، لكن ما الذي يريدونه من وصيف مسكين؟ إنهم يلقون بكل شخص وأي شخص تطاله أيديهم في المنفى.

حينئذ أطلقت السفينة صافرة طويلة. وسكت الجميع فترة من الزمن، قبل أن يخرق "أحمد بك" الصمت:

- لا يمكنني تحديد المنهجية التي يتبعها البريطانيون. إنهم يجمعون باشوات ورجال حكومة وأعضاء برلمان ويأتون بهم إلى هنا، هذا كل ما يفعلونه. صدق أو لا تصدق، سمعت باعتقالهم يونانيًا ضمن أعضاء مجلس مدينة "قارص".

- لا أرى غرابة في ذلك، فهم يقبضون على أي شخص – يونانيًا كان أو تركيًا – ما دام يعمل ضد المصالح البريطانية.

- صحيح، إنه نهج ميكافيلي بامتياز، أليس كذلك؟

-أجل، يمكن اعتباره كذلك.

واصلوا الحديث حتى وصلوا إلى الميناء، حيث وقفوا يراقبون السفينة الحربية "بينرو" وهي تقترب من الرصيف. ثم تعاظم حماسهم مع رسو السفينة وإنزال سلمها. تُرى أي شخصيات أتت بهم السفينة هذه المرة؟

كان "رؤوف بك" أول من نزل من السفينة، وتبعه "واصف بك"، و"تحسين بك"، ثم سائر الرجال، وعندما رأى "حسين شهيد بك" "رؤوف بك" صاح:

- أليس هذا وزير البحرية السابق الذي وافق على الشروط البريطانية ووقَّع هدنة "موردوس"؟ ماذا يفعل هنا؟ لا أصدق عينَيّ!

- انظروا، انظروا! إنه "واصف بك" أيضًا.

- هل تعرفون الرجل الثالث؟

- يبدو مألوفًا، لكني لست واثقًا.

- لا أستطيع تحديد هويته أيضًا.

- وهذا الذي يتبعهم، أهو "تحسين بك"؟

- أنت محق. لكنه ازداد وزنًا، وحلق لحيته. لم أتعرف عليه في البداية.

أخذت السفينة تلقي بحمولتها، والسجناء يمضون وقتهم في الحديث على الرصيف. وبعد طابور التفتيش، سار السجناء بين صفين من الجنود يرفعون بنادقهم أمامهم، ثم اصطفوا بمحاذاة الجدار. وعندما وجه الجنود أسلحتهم باتجاه السجناء، ظنوا أن الأمر جاء بتصفيتهم، فأغلقوا أعينهم وبدؤوا في الدعاء.

فتح "كارا واصف" عينيه عندما سمع الضحكات، فرأى الجنود منحنين فوق بنادقهم تهتز رؤوسهم من الضحك.

صاح "كارا واصف":

- إنهم يسخرون منا!

ففتح الآخرون أعينهم، وأدركوا أنهم كانوا ضحية مزاح إنجليزي سخيفٍ وقاسٍ.

وضع الجنود القادمين الجدد في شاحنة، والابتسامة ما تزال على وجوههم، تتبعهم سيارة ملاكي مكشوفة تحمل ضابطين بريطانيين على الكنبة الخلفية. عبر الموكب طرقات المدينة، مرورًا بالمتاجر، والحانات، والمنازل حتى وصل إلى ثكنات "فولفيريستا". قضى "رؤوف بك" تلك الرحلة في غمٍ شديدٍ، بسبب الخدعة القاسية من ناحية، والطريقة المهينة التي يعرضونهم بها على أهل الجزيرة من ناحية أخرى.

التفت "رؤوف بك" إلى "تحسين بك" قائلًا:

- لماذا يعاملوننا بهذه الطريقة؟ كنت أحسب البريطانيين أكثر تهذيبًا من ذلك.

عندما توقفت الشاحنة أمام الثكنات، جال "تحسين بك" بنظره في المكان. كان السياج الذي يحيط المباني أوَّل ما لفت انتباهه، إضافة إلى الحرس البريطانيين في أماكنهم خارج السياج. كانت الشرفات تطوق الشقق من كل جانب، وهي الشقق التي كانت سكنًا للضباط البريطانيين وعائلتهم أول الأمر، قبل أن تضم الواحدة منها الآن ما بين ثلاثة وخمسة سجناء.

كان بعض السجناء يطلون من الشرفات، يدققون في وجوه القادمين الجدد بحثًا عن أي شخص يعرفونه.

- أليس هذا "كارا واصف"؟

- نعم، إنه هو! وها هو "رؤوف بك" إلى جانبه. لكني لا أميز أي من الآخرين.

- ها هو "محمد كمال باشا"، وزير الدفاع السابق، يقف خلف "رؤوف بك". ألا تعرفه؟

- لا، سمعت به كثيرًا لكني لم أره من قبل.

فجأة، تردد صدى صوت أحد الواقفين في الشرفات:

- "تحسين بك"! "تحسين بك"!

نظر "تحسين بك" إلى الأعلى يبحث عن المنادي، وعلى الفور ميَّز "شكري بك"، زميل الدراسة في كلية العلوم السياسية. لكنه كان مجهدًا إلى درجة عجز معها عن رد التحية، فاكتفى بالتلويح بيده.

خرج السجناء القدامى إلى الشرفات يشهدون دخول "تحسين بك" والعشرة سجناء الآخرين إلى المبنى. حيث اقتادهم الحرَّاس مباشرة إلى مكتب السكرتير، وهناك اصطفوا أمام مكتب قائد المخيم الذي سيعرفونه لاحقًا باسم "سترون". سأل القائد كلًا منهم عن اسمه ولقب العائلة، والمتعلقات التي جاء بها، والنقود التي معه. وتولى المترجم اليوناني "مايكل" مساعدة من لا يتقن الإنجليزية منهم. كما كان المكتب يضم رجلًا يدعى "فريد بك"، يدعوه الجميع بـ"المدير"، ويحظى باحترام الضباط البريطانيين في مالطا. فرح "تحسين بك" برؤية "فريد بك"، زميله في عضوية جمعية الاتحاد والترقي، لكنه كتم فرحته، وكذلك فعل الآخر أيضًا. ومع أول فرصة، همس "فريد بك" في أذن "تحسين بك":

- لا تخبرهم بمقدار ما تملك من المال، ولا بالصحف التي جلبتها معك. سيصدقون كلامك، ولن يفتشوا أحدًا.

بالفعل، عندما حان دور "تحسين"، قال إنه لا يملك إلا بضعة عملات معدنية، ولم يهتم الضابط البريطاني حتى بالسؤال عن قيمة هذه العملات، وقال ببساطة:

- حسنًا، شكرًا لك. رقمك هو ٢٧٧٤، وهو ما ستُعرف به من الآن فصاعدًا.

شحب وجه "تحسين بك" عند سماع ذلك، فها هو الرجل الذي شغل منصب الوالي في الخمسة أقاليم، إضافة إلى عدد من المناصب الرفيعة الأخرى، ها هو يُختزل إلى رقم، وهو ما كان أقسى على النفس من مجرد السجن. إلا أن تلك الغصة زالت في الأيام التالية، عندما أدرك أن استخدام الرقم يقتصر على طوابير التمام فقط.

"سالونيكا" – ٦ مايو ١٨٧٦

لم تتمكن "ماتو" من النوم، بسبب وقائع الأيام الأخيرة، والخوف مما يخبئه الغد لابنتها. قضت الليلة كلها تتقلب في الفراش، ولم تكد تغفو حتى أفزعها صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر. لم تكن هناك مساجد في "بوجدانتسي"، لذا كان الأذان غير مألوف بالنسبة لها. فردت "ماتو" جسدها في الفراش، ومع نهاية الأذان عادت فتكورت قبل أن يغشاها النوم سريعًا تلك المرة. في الحلم رأت "ستيفانا" تدخل كنيسة وهي ممسكة بذراع "ديلهيو". ومع اقترابهم من المذبح – حيثما يقف الكاهن – تبعهم الجميع بعيون تنطق بالإجلال. قابلهم العريس أمام الكاهن الذي راح يتلو الصلوات، بينما الأقارب ينثرون الأرز فوق العروسين. لكن فجأة اختفى الكاهن والعريس، وحل محلهما شيخ معمم وشاب يرتدي طربوشًا.

حينها استيقظت "ماتو" غارقة في العرق، وهي تصرخ: "لا! لا!"، وقبل أن تتخلص من حالة الارتباك، اقتحمت إحدى الخادمات الحجرة، وقالت بصوت مرتفع وآمر: "استيقظوا! يوشك النهار أن ينتصف!" فقفزت "ماتو" خارج الفراش فورًا، واستيقظت "ستيفانا"، ثم نظرت إلى المرأة بوقاحة وأعادت إغماض عينيها. لكن الخادمة صاحت ثانية بشيء من الخشونة، تحثهما على الحركة،

فأدركت "ستيفانا" أنها مضطرة إلى النهوض. وبالفعل، تبعت الفتاة وأمها الخادمة إلى حجرة بالأسفل، حيث تنتظرهما "إيفجينيا" مع رجل في رداء أسود.

وقف الرجل مخاطبًا "ستيفانا":

- أنا كاهن "كنيسة القديس خرالمبوس"، أخبروني أن مسًا شيطانيًا أصابك. تعالي لنصلي. إن الرب غفور ورحيم، وسيخلصك من الشرير.

ثم تلا بعض الآيات من رسالة يوحنا الأولى:

- إِنْ كُنَّا نَدَّعِي أَنْ لَا خَطِيئَةَ لَنَا، نَخْدَعُ أَنْفُسَنَا، وَلاَ يَكُونُ الْحَقُّ فِي دَاخِلِنَا. وَلكِنْ، إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا، فَهُوَ جَدِيرٌ بِالثِّقَةِ وَعَادِلٌ، يَغْفِرُ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ. فَإِنْ كُنَّا نَدَّعِي أَنَّنَا لَمْ نَرْتَكِبْ خَطِيئَةً، نَجْعَلُ الـلـه كَاذِباً، وَلاَ تَكُونُ كَلِمَتُهُ فِي دَاخِلِنَا!

لكن "ستيفانا" لم تأخذه على محمل الجد، ونظرت إليه ببرود.

كرر الكاهن ما قاله عند مجيئها:

- تعالي لنصلي. إن الرب غفور ورحيم، وسيخلصك من الشرير.

لكنها لم تتجاوب تلك المرة أيضًا، فالتفت الكاهن مخاطبًا "ماتو":

- تحدثي إلى ابنتك يا سيدتي. سليها – بحق المسيح – عما أعجبها في دين العرب الأوساخ.

كانت "ماتو" على وشك الكلام، عندما قاطعهما "نيكولاس"، الواقف بصبر إلى جوار الباب.

- لا بد أنهما جائعان يا أبانا؛ اسمح لنا بتقديم بعض الطعام للجسد قبل أن تطعم الروح. هيا، فلنتناول شيئًا أولا.

لم يعترض الكاهن.

- أنت محق يا "نيكولاس"، وسيمنحنا ذلك فرصة للحديث أثناء الأكل.

لم تنطق "ستيفانا" بكلمة خلال الطعام. وحينما انتهوا من الأكل، همست الخادمة في أذن "نيكولاس":

- جئتكم برسالة عاجلة يا سيدي. لقد أرسل السيد "أفجيرينوس" أحد رجاله، وأظنكم على علم بسبب ذلك، حيث ستنقل هؤلاء النساء إلى مكان آخر فورًا.

كان "سبيليوس أفجيرينوس" تاجرًا واسع النفوذ، أرسل إليه "نيكولاس" يطلب المساعدة عندما بلغه عزم الأتراك على اقتحام القنصلية هذا المساء لإنقاذ الفتاة، وعلى الفور أرسل "أفجيرينوس" أحد رجاله.

- نعم، أعلم ذلك. اطلبي منه الانتظار، سأقابله بعد دقائق.

عندما انتهى "نيكولاس" من الطعام التفت إلى والدته، قائلًا:

- اسمحي لي بالمغادرة الآن يا أمي، هناك أمر علي القيام به، ولن أغيب طويلًا.

نظرت إليه "إيفجينيا" مستفسرة، لكنه غادر الحجرة قبل أن يتسنى لها السؤال. وذهب لمقابلة الرجل عند الباب الخلفي.

بادره الرجل بالحديث:

- أنا "أليكس" يا سيد "نيكولاس". أرسلني السيد "أفجيرينوس" لاصطحاب السيدتين. هناك عربة يجرها الخيل تنتظر عند البوابة الجانبية، ونحن جاهزون لأخذهما في الحال، إذا سمحت لنا.

- حسنًا، انتظرني دقيقة من فضلك.

عاد "نيكولاس" إلى غرفة الطعام وقال لوالدته:

- وصل مبعوث السيد "أفجيرينوس" ومعه عربة خيل، يا أمي. ما رأيك؟

- لا مجال للرأي الآن، فلنتخلص منهما قبل فوات الأوان.

قاد "نيكولاس" "ستيفانا" وأمها إلى الباب، حيث ينتظر "أليكس"، الذي قال بأدب:

- اتبعاني من فضلكما، سأصطحبكما إلى مكان أكثر أمنًا.

تبادلت "ماتو" و"ستيفانا" النظرات الحائرة، فلم تكن أي منهما تعي ما يجري. كانتا في مدينة كبيرة لأول مرة في حياتهما، في بيت غريب، وها هو رجل غريب يطلب منهما مرافقته. لم يكن أمامهما سوى السباحة مع تيار الأحداث.

اصطحب "أليكس" "ستيفانا" و"ماتو" إلى البوابة الجانبية المواجهة لـ"كنيسة القديس خرالمبوس"، وكان "نيكولاس" يراقبهم من نافذة علوية، ومع خروجهم إلى الطريق وإغلاق البوابة الحديدية خلفهما تنفس الصعداء:

- الشكر للرب على خروجنا من هذا المأزق.

ظن "نيكولاس" أنه بلغ بر الأمان، لكنه كان يجهل كم المشاكل التي سيتسبب فيها نقل المرأتين إلى مكان آخر.

ساعد "أليكس" المرأتين في ركوب العربة، ثم جلس في الأمام، إلى جوار السائق. ضرب السائق بسوطه الهواء، وتحركت العربة متجهة إلى أعلى التل.

يقع المقر "الأفجيرينوسي" في الحي الأوروبي، فكان عليهم التوجه من عند البوابة يسارًا، ثم يمينا في شارع "فاردار". لكن السائق اتجه بالعربة يمينًا، مارًا بـ"كنيسة القديس خرالمبوس"، ثم إلى شارع خلفي قادهم إلى متاهة من الطرقات المتعرجة.

توقفت الخيل أمام بيت ضخم مكون من طابقين له بوابة حديدية، ونزل "أليكس" من العربة، وفتح الباب:

- وصلنا، السيد "أفجيرينوس" ينتظركما بالأعلى.

نزلت المرأتين من العربة ودخلتا البيت في توجس. قادهما "أليكس" إلى غرفة في الطابق الأول، ليجدا في انتظارهما رجلين وامرأتين، ليس فيهم من يعرف البلغارية أو التركية. أشارت لهما المرأة الأكبر سنًا بالجلوس، ثم أشارت إلى فنجان القهوة الخاص بها تعرض عليهما بعض القهوة، فأومأت "ماتو" علامة على القبول.

* * *

بعد أقل من نصف ساعة من مغادرة "ماتو" و"ستيفانا" للقنصلية الأمريكية، وصل يوناني يدعى "بيتروبولو أفندي" مع مسؤول حكومي. أثار وصولهما ارتباك "ستافروس"، فقام باصطحابهما على الفور إلى مكتب "نيكولاس".

- سيدي، وصل السادة الأفاضل من مكتب الحاكم للحديث معك.

- أدخلهم.

وبعد دخولهما، سألهما "نيكولاس" عن طبيعة الخدمة التي يستطيع تقديمها لهما. قال "بيتروبولو أفندي":

- سيد "نيكولاس"، لقد جئنا من أجل الفتاة والأم اللتان اختطفتا من محطة القطار بالأمس.

رد "نيكولاس":

- كانتا هنا بالأمس، لكني لا أعرف شيء عن مكانهما الآن.

- سيد "نيكولاس"، سيكون تعاونك موضع تقدير كبير من جانبنا. إن تحديد مكان الفتاة أمر ضروري بالنسبة لنا.

- لقد أخبرت سيادتك أني أجهل مكانهما، وهذه هي الحقيقة.

وأمام هذا الرد المحبط، لم يكن أمام الرجلين سوى المغادرة.

وسرعان ما غادر "نيكولاس" المنزل هو الآخر.

* * *

عقب غزو السلطان مراد لـ"سالونيكا" عام ١٤٣٠، حولت العديد من الكنائس – مثل كنيسة "أزوماتي" – إلى مساجد، إضافة إلى تشييد عدد من المساجد الجديدة، كان أولها مسجد "حمزة بك" عام ١٤٦٨، وأفضلها بلا جدال هو "ساعتلي"، أو "مسجد برج الساعة"، الذي شيده "سيف اللـه أغا" أول مرة، ثم أعاد بناءه "شريف سري سليم باشا" سليل عائلة "إفرينسوجلرا". ورغم تسميته رسميًا بـ"مسجد شريف سري سليم باشا"، فقد عُرف شعبيًا باسم مسجد "ساعتلي" أو "مسجد برج الساعة"، بعد بناء برج ساعة "شريف سليم سري باشا" والمعهد الديني وإلحاقهم بالمسجد.

يقع المسجد في شارع جانبي بضاحية "مدحت باشا"، إحدى ضاحيتي المدينة الرئيسيتين، والتي تضم مبنى الحكومة. كان المدخل الرئيسي إلى فناء المسجد يطل على شارع خلفي، وعلى يسار الفناء مقبرة صغيرة ومساكن للمعلمين، وعلى اليمين ضريح كبير. وأمام الباب الرئيسي يقع المعهد الديني وسبيل للوضوء.

عادة ما يذهب "سليمان" و"عبد اللـه" إلى مسجد "ساعتلي" بسبب قربه من منزلهما. في ذلك اليوم المشؤوم، توضأ الشابان من البئر الواقع في حديقتهما، وقبَّل "سليمان" يد زوجة أخيه علامة على الاحترام، فدعت له بالبركة والفلاح، ثم توجها إلى المسجد. أسرع الأخوان الخطا في شارع "ركتيفان"، وفي طريقهما سمعا صوت الأذان قادمًا من مئذنة مسجد "ساعتلي"، فزادا من سرعتهما خشية التأخير. لكنهما لم يصلا إلى المسجد إلا بعد نهاية الأذان.

في أثناء دخولهما المسجد، لاحظ "سليمان" قلة من الناس تشرع في الوضوء، فالتفت إلى أخيه قائلًا:

- أنظر، هناك من هم أكثر تأخرًا منا.

وأثار الزحام داخل المسجد دهشتهما، إضافة إلى استمرار توافد المصلين على المسجد.

قال "عبد الـلـه":

- يا للعجب! لم أرَ المكان مزدحمًا هكذا من قبل.

عثر "سليمان" على بقعة خالية تمكنا بالكاد من دس جسديهما فيها، ومع استقرارهما بين المصلين كبَّر الإمام وبدأت الصلاة.

لكن حينما فرغ المصلون من أداء الصلاة، وشرعوا في المغادرة، رفع عجوز يديه وأخذ يثير الحشد.

- اسمعوني! اسمعوني! خُطفت فتاة مسلمة بالأمس من محطة القطار وحُملت غصبًا إلى القنصلية الأمريكية. نزع الكفار عنها عباءتها ومزقوها قبل اقتيادها بالقوة إلى عربة خيل والهرب بها. إنها إهانة لديننا! علينا الثأر لهذه الفضيحة!

كان مسلمو "سالونيكا" في حالة من الهياج المسبق بسبب الفظائع التي ارتكبت ضد إخوانهم المسلمين خلال الانتفاضة البلغارية، فأشعلت أخبار الفتاة المختطفة فتيل قنبلة معدة للانفجار.

كان البلغاريون – بمساعدة من الروس – يكافحون من أجل الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية وتأسيس الدولة القومية الخاصة بهم، منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكان ضمن الشرارات الأولى لتلك الثورة، رجلًا يدعى "النايدانكيروف"، درس الصيدلة في فيينا، وعمل جاسوسًا لروسيا خلال حرب القرم، حيث عُيِّن هذا الـ"نايدانكيروف" قنصلًا روسيًا في "بلوفديف"، وهناك أخذ – بمساعدة أخيه – يشجِّع الفلاحين البلغاريين على التمرد. بدأت الثورة في أبريل حين بدأ بلغاريو "أوتلوك" و"بازارجيك" في تصفية الأتراك وحرق منازلهم. وسرعان ما وصلت الثورة إلى "بلوفديف" والمقاطعات المحيطة بها. فأرسل "عزيز باشا"، محافظ "بلوفديف"، يطلب إمدادات من الحكومة، خشية تطور الأمر إلى ثورة عامة، لكنه لم يتلق المساعدة التي توقعها. وزاد ذلك التراخي من جرأة المتمردين، فواصلوا قطع خطوط التلغراف، وتفجير الكباري، وحرق القرى.

لم يكن "سليمان" و"عبد الـلـه" على علم بأي مما يجري، حيث لم يغادرا المنزل قبل الظهيرة. اقترب "سليمان" من رجل في منتصف العمر، له لحية، ويرتدي عمة، وسأله عما يحدث. فأجابه الرجل:

- لقد مُزِقَتْ عباءة الفتاة، وجُرَّتْ على الأرض، ويحتِّم شرفنا علينا إنقاذها.

وسار مبتعدًا.

عندما طرح "سليمان" السؤال على رجل آخر تلقى إجابة شديدة الشبه بالأولى.

- إنها إهانة لديننا!

عندها التفت "سليمان" إلى أخيه يسأله:

- هل سمعت بما فعل الأوساخ؟

فأجاب شقيق "سليمان" الأكبر:

- دعنا نطلع على القصة الكاملة أولًا، قبل اتخاذ أي قرار.

لكن "سليمان" انضم إلى الجماهير الغاضبة.

* * *

كان "بيطار محمد رأفت باشا" – والي "سالونيكا" – يناقش قادة الحشد الذين تجمعوا في مكتبه داخل مبنى الحكومة. كان الزعماء هم الحاج"الملتزم حسن"، و"شوبوكلو حسين" و"داوود بك" من دائرة التسجيل العقاري.

تحدث إليهم الوالي قائلًا:

- لن يقف أحد أمام إرادة الدولة العثمانية هكذا وينجو دون عقاب.

لكنه سمع صوت الحشد قادمًا من ناحية مسجد "ساعتلي"، فقفز من على الكرسي وأسرع إلى النافذة ليتفقد الأمر، فلما رأى الهياج يسيطر على الحشد قال:

- انتظروا هنا، سأعود بعد دقيقة.

خرج من مكتبه مسرعًا. وفي طريقه إلى الخارج نادى "تيمور أغا" وقال:

- خذ "علي أغا" وكتيبة من الشرطة إلى الحي الأوروبي لتعزيز الوضع هناك.

ثم غادر مبنى الحكومة عبر البوابة الرئيسية، واستدار ليسلك طريقًا جانبيًا، ثم أسرع الخطى إلى المسجد، وهناك قابل رؤوس الحشد، الذين كانوا يهتفون: "اللـه أكبر، هيا ننقذ الفتاة من الكفار!".

بطريقة ما، وجد "سليمان" نفسه بين الجموع، تسيره الحماسة ويدفعه الهياج الذي يملأ الأجواء، وهكذا جرف التيار الفتى حتى القنصلية الأمريكية.

مع اقتراب الحشد من القنصلية، وقف الوالي أمامهم وصاح طالبًا منهم الانتظار، في محاولة للسيطرة على الوضع، لكن ذلك كان أمرًا ليس باليسير. حتى أن أحدهم صاح في الوالي طالبًا منه الابتعاد عن الطريق، والتوقف عن التدخل.

صرخ الوالي:

- توقفوا! توقفوا! استمعوا إلي! أنصتوا أولًا ولا تتعجلوا!

لان الجمهور بعض الشيء، فأردف الوالي:

- لقد أرسلت إلى القنصلية الأمريكية فور علمي بما جرى، وأبلغوني أن الفتاة لم تعد هناك.

برز رجل من بين الصفوف يسأل:

- إن لم تكن هناك، فأين هي إذا؟

- لا أعرف، لكننا نحاول. نحن واثقون أنها ليست في القنصلية، ولا جدوى من ذهابكم إلى هناك. تحلوا بالصبر. أعدكم أننا سنتوصل إلى مكانها.

بالفعل، هدأت النفوس قليلًا، وبدأ الحشد في التقهقر ناحية المسجد.

* * *

قرر "هنري أبوت" القنصل الألماني، و"جول مولن" شقيق زوجته – الذي يشغل منصب القنصل الفرنسي – الذهاب إلى مبنى الحكومة للاطلاع على تطورات الموقف والاطمئنان على أمن المسيحيين. وفي طريقهما مرا بجوار مكتب التلغراف عند إحدى زوايا حديقة المبنى، قبل أن يبلغا البوَّابة الرئيسية. هناك، طلب "هنري أبوت" من الحارس مقابلة الوالي. لكن قبل أن يرد الحارس، مر بهم "حسني أفندي" الذي خرج من البوابة مهرولًا في طريقه إلى المسجد، وأخبرهم بتواجد الوالي في المسجد. تبادل الرجلان النظرات، فشعر "حسني أفندي" بحيرتهما وقلة حيلتهما، فاقترح عليهما مرافقته إلى المسجد لمقابلة الوالي هناك. تبادل القنصلان النظرات ثانية، ولما لم يكن أمامهما حل آخر، سارا معه باتجاه المسجد. شق الثلاثة طريقهم بين الجموع المحتشدة في فناء المسجد، ودخلوا أول الحجرات الواقعة على يسارهم. هناك، وجدوا أعضاء مجلس المدينة؛ "المفتي إبراهيم بك"، و"أمين أفندي"، و"محمد باشا"، و"عثمان بك". كانوا جميعًا في انتظار الوالي، الذي كان منشغلًا بمحاولة تهدئة الناس في الفناء. وعندما رأى العقيد "سليم بك" القنصلين، ركض إلى الخارج لإعلام الوالي بوصولهما.

سأل الوالي:

- اللعنة! من جاء بهما؟

- جاءا برفقة "حسني أفندي" يا باشا.

- هذا الغبي اللعين!

سمعهما أحد المتظاهرين، فراح يصيح:

- فليستمع الجميع، إن قناصل الغرب هنا في المسجد!

انتشر خبر وصول القناصل سريعًا، وبدأ الحشد ينادي:

- أين الفتاة؟ سلموها لنا الآن!

رجع الوالي إلى الحجرة يحدث نفسه: "اللعنة على هذا الأحمق! أيريد التسبب في إحداث شغب مسلح عمدًا؟".

نهض "جول مولين" واتجه إلى الوالي فور وصوله، وسأله:

- هل نحن رهائن هنا؟

أجابه الوالي:

- بالطبع لا، لكن الحشد في قمة الغضب، وربما تسوء الأمور كثيرًا إذا لم تظهر الفتاة.

قال "هنري أبوت":

- لقد ذهب القنصل الأمريكي إلى "فودينا" يا باشا، ولا أدري أرجع أم لم يرجع. لكن شقيقه "نيكولاس" في القنصلية بلا شك. سأرسل إليه حالًا، وآمل أن يسفر ذلك عن فائدة.

- أجل، أعرف ذلك. أرسلت برجلين إلى القنصلية فور علمي بما جرى، لكن "نيكولاس" أكد لهم مغادرة الفتاة للقنصلية.

- بافتراض صحة ذلك، فلا بد أن "نيكولاس" على علم بمكانها. اسمح لي بمراسلته، فنحن أقارب، بغض النظر عن كل شيء آخر، وكلي ثقة في بذله كل الجهد للمساعدة.

أخرج "هنري أبوت" ورقة دوَّن فيها رسالة موجزة.

"عزيزي نيكولاس،

نحن الآن رهائن في مسجد "ساعتلي"، وأخشى أن يقتلوننا إذا لم تنجح في العثور على الفتاة البلغارية وتسليمها. أرجوك لا تتأخر، فحياتنا في خطر.

هنري أبوت، القنصل الألماني".

تناول العقيد "سليم" الرسالة وسلمها إلى أحد جنود الشرطة الذين يحرسون الباب.

- اذهب بهذه الرسالة إلى القنصلية الأمريكية في الحال. سلمها إلى السيد "نيكولاس" شقيق القنصل.

أخذ الشرطي الرسالة وأسرع إلى البوَّابة، لكن المتظاهرون استوقفوه قبل تمكنه من الخروج.

صادف ذلك تواجد "سليمان" قرب البوابة، فرأى المشادة بين الشرطي والحشد، ورأى أحدهم يجذب الورقة من يد الشرطي ويمزقها، لكنه لم يكن يعرف شيئًا عما يجري.

بعد فترة قصيرة، بدأ الجمهور في الصياح محذرًا من قتل القناصل إن لم تسلم الفتاة. لم يخطر على بال "سليمان" لحظة أن الأمور قد تسوء إلى هذه الدرجة. والحقيقة أن ذكر القتل قد أثار قلقه، لكن شروعهم في إلقاء الحجارة على الغرفة التي يحتمي بها القناصل هو ما أخافه بشدة. حينئذ، حاول "سليمان" الانفصال عنهم، لكن ذلك لم يعد ممكنًا.

ثم لم يلبث فزع "سليمان" أن تضاعف مع صوت تهشم الزجاج. حيث عبرت حجارة نافذة الحجرة لتستقر على الأرض بين "هنري أبوت" و"جول مولين".

توقف "هنري أبوت" عن كتابة الرسالة الثانية، ونظر حوله بوجه مستعطف، ثم قال:

- من الواضح أنهم ينوون قتلنا. لكننا نجهل مكان الفتاة، لماذا لا يصدقوننا؟

زعق "أمين أفندي" بما يشير إلى معرفته مختطف الفتاة.

- لا تتظاهر بأنك تجهل تورط أحد أقربائك في ذلك!

لكن "هنري أبوت" لم يكن على علم بتورط "جاك أبوت" – ابن عمه – في شجار محطة القطار، وأقسم على ذلك.

ثم كتب رسالة ثانية إلى أخيه "ألفريد".

"ألفريد،

أنا في مأزق حقيقي. تم اتخاذي أنا وجول كرهائن عند مسجد "ساعتلي". نحن محاصرون من قبل حشد مسلح يطالب بالإفراج عن الفتاة. إنهم على

درجة كبيرة من الوحشية. اعثر على الفتاة واصطحبها إلى مبنى الحكومة في الحال. قد يتسبب أي تأخير في سفك الدماء.

هنري".

كان العقيد "سليم" أكثر حيطة هذه المرة، فدعا رجال الشرطة إلى دخول الحجرة، وخاطب من توسم فيه منتهى الحذر:

- حافظ على هذه الورقة في جيبك. خذها إلى القنصلية الألمانية وسلمها إلى "ألفريد" شقيق القنصل.

أدى الشرطي التحية العسكرية، ووضع الورقة في جيبه. وفي طريقه إلى الخارج، طلب منه العقيد تجنب البوابة الرئيسية واستخدام إحدى البوابات الجانبية بدلًا منها.

* * *

استغرقت رسالة "هنري" زمنًا طويلًا للوصول إلى أخيه "ألفريد"، ولا ندري طبيعة الأحداث التي أدت إلى ذلك، إن كانت قدرًا مكتوبًا، أم مجرد سوء حظ. لكن ما إن تسلم "ألفريد" الرسالة حتى بذل كل ما في وسعه للوصول إلى مكان الفتاة.

ذهب أولًا إلى القنصلية البريطانية، وعرض الرسالة على القنصل "جوب إليجا بلانت" والساعة قد تعدت الثالثة.

- أتوسل إليك أن تساعدنا يا سيد "بلانت". هناك حشد من المسلمين يحتجز أخي والسيد "مولين" كرهائن عند مسجد "ساعتلي". وأخشى أن يتسبب ذلك لهما في الأذى لو لم نعثر على الفتاة وسلمناها.

أجاب السيد "بلانت":

- اذهب وتحدث إلى السيد "بيرسليز" القنصل الأمريكي، فهو يعرف مكانها بلا شك. نحن لا نملك وقتًا لنضيعه. وفي هذه الأثناء، سأذهب إلى المسجد ربما تمكنت من مساعدة الرهائن بأي طريقة.

انطلق "ألفريد" إلى القنصلية الأمريكية فورًا، لكن لم يكن يعرف أحدًا منهما بسفر السيد "بيرسليز" خارج المدينة. وهناك – في القنصلية – طلب "ألفريد" من "ستافروس" مقابلة السيد "بيرسليز" في الحال.

- مع الأسف، السيد "بيرسليز" خارج المدينة حاليًا. هل من مساعدة يمكنني تقديمها؟

- إذا فهو خارج المدينة؟ اللعنة! ماذا عن أخيه؟

- لقد غادر قبل قليل.

- ماذا عن والدته؟

- السيدة "إفجينيا" هنا، انتظر دقيقة، سأخبرها بقدومك.

ثم عاد "ستافروس" ومعه السيدة "إيفجينيا"، بعد فترة انتظار مرت على "ألفريد" كأنها دهر بأكمله.

- جئت من أجل الفتاة البلغارية التي أتى بها موظفو القنصلية الليلة الماضية، يا سيدتي. يجب علي اصطحابها فورًا.. الأمر مهم للغاية، فالمسلمون يحتفظون بالسيد "أبوت"، والسيد "مولين" كرهائن في المسجد. ولو لم نسلم الفتاة، فسيقتلونهما بلا شك.

بدا الاستياء على وجه "إيفجينيا"، وقالت في محاولة للتهرب:

- أقسم لك يا "ألفريد" أن الفتاة ليست هنا. أتمنى لو كان الوضع مختلفًا كي أتمكن من مساعدتك.

- لا بد أنك على علم بمكانها، يا سيدتي.

- لقد قضيا الليلة هنا، لكني لا أعرف مكانهما الآن. وغادرا قبل ساعات قليلة. ربما هما في المقر "الأفجيرينوسي" الآن.

شكرها "ألفريد" وغادر فورًا.

* * *

بعد رحيل "ألفريد"، غادر السيد "بلانت" مكتبه بصحبة "حسين أغا" حارسه الشخصي، ومع اقترابهما من المسجد فوجئا بمجموعة من الأتراك العزَّل تحيط بهما. حذرهما الأتراك من الذهاب إلى المسجد، ونصحوهما بالرجوع، لكن "ألفريد" تجاهلهم، وإن كان حاول استمالتهم بقوله:

- إن سفك الدماء خطيئة، وفعل ذلك في مكان مقدس مثل المسجد لهو خطيئة أكبر. تعالوا معي، لو وصلنا في الوقت المناسب لتمكنا من إنقاذ القناصل، ولمنعنا وقوع خطيئة كبرى.

حاول "حسين أغا" إثناء القنصل عن الذهاب إلى المسجد، ثم استسلم آخر الأمر وراح يقنع الناس بمساعدتهما، بالفعل وافق ستة من الرجال العزَّل على مساعدة القنصل. وأسرعوا جميعًا إلى المسجد، مرورًا بمبنى البنك القديم، وبوَّابات السجن، قبل المرور بشارع قابلوا فيه مجموعة من الألبانيين المسلحين. وحذَّر رجل من الستة السيد "بلانت" من مواصلة التقدم.

تعرف أحد المسلحين على السيد "بلانت" وقال:

- سيدي القنصل، لا تذهب إلى المسجد. لا تخاطر بنفسك، فلن يفيد ذلك بشيء.

لكن السيد "بلانت" حاول إقناعهم أيضًا:

- أرجوكم ساعدوني. هناك قنصلان في خطر، إذا وقع أي شيء فستكون العواقب وخيمة على الجميع.

مع اقترابهم من المسجد، ركض "يشار أغا" – الحارس الشخصي للقنصل الفرنسي – وأمسك بذراع القنصل، قائلًا:

- سيعرضك الذهاب إلى المسجد إلى خطر شديد. فالهياج يسيطر على الناس، مما يجعل اقتراب أي أوروبي منهم مخاطرة كبيرة.

نجح "حسين أغا" أخيرًا في إثناء السيد "بلانت" عن قراره، وقرر الذهاب إلى مبنى الحكومة. حينئذ اقترب عجوز من القنصل ووضع يده على كتفه، قائلًا:

- لا توجد طريقة لإنقاذ القنصلين سوى إحضار الفتاة إلى هنا، صدقني يا سيدي.

فرد السيد "بلانت":

- أعدكم بصفتي ممثلًا عن جلالة الملك أن تسلَّم الفتاة إلى السلطات التركية.

وتوقف دقيقة للتفكير، قبل أن يقرر مواصلة السير باتجاه مبنى الحكومة. وهناك صعد السلم، وطلب قلمًا وورقة من أحد الموظفين لكتابة رسالة موجزة.

"عزيزي بيرسليز،

قام حشد من المتظاهرين بمحاصرة مولين وأبوت واتخذوهما رهائن عند المسجد. إنهم يزدادون هياجًا والوضع خطير. اضطررت إلى التراجع خشية زيادة غضبهم. إذا كنت تود مساعدة زملائنا، فعليك إحضار الفتاة إلى مبنى الحكومة حالًا.

ج. ي. بلانت

القنصل البريطاني".

وضع السيد "بلانت" الورقة في ظرف، وكتب عنوان "بيرسليز لازارو" في القنصلية الأمريكية، ثم أعطاه إلى "حسين أغا"، الذي انطلق كالمدفع عبر بوَّابة الحديقة، واتجه يسارًا، ثم ركض خلال ضاحية "مدحت باشا"، وتوقف عند "كنيسة القديس ديمتريوس" لالتقاط أنفاسه. عبر "حسين أغا" الطريق، وسلك أول شارع جانبي قابله. ومع رؤيته لـ"كنيسة القديس خرالمبوس" أدرك أنه أوشك على الوصول. واتجه يسارًا في شارع "فاردار"، ليجد نفسه عند بوابات القنصلية الحديدية.

ضرب جرس البوَّابة في عجالة. تعرَّف "يورجو" حارس السفارة على "حسين أغا"، وسأله وهو يفتح البوابة:

- ما الأمر؟ لم العجلة؟ هل أمسكت النار بالبيت؟

- جئت برسالة عاجلة إلى القنصل يا "يورجو".

- لكنه غير موجود الآن، نحن بانتظار عودته هذا المساء.

تملك اليأس من "حسين أغا" وراح يفكر في التصرف المناسب دون جدوى، ثم رأى "ألفريد أبوت" خارجًا من الباب، فناداه باهتياج، وجاء "ألفريد" يستفسر منه عن الأمر.

- جئت برسالة من السيد "بلانت" إلى السيد "بيرسيليز لازارو"، لكنه ليس هنا.

- أجل، أعرف ذلك، لقد جئت إلى هنا بعد حديث مع السيد "بلانت". صحيح أن القنصل خارج المدينة، لكني تحدثت إلى والدته، وأخبرتني بمكان محتمل للفتاة.

- أخبرتك بذلك؟

- نعم، الفتاة والأم في منزل السيد "أفجيرينوس". أنا ذاهب إلى هناك الآن، يمكنك مرافقتي إذا شئت.

بدت الحيرة على وجه "حسين أغا".

- هيا بنا، كفاك تحديقًا في وجهي، ليس هناك وقت لنضيعه.

* * *

وصلا المقر "الأفجيرينوسي" في وقت متأخر، لكن ما إن شرح "ألفريد أبوت" موقف القنصلين الحرج وضرورة تسليم الفتاة حتى سلمهم "أفجيرينوس" الفتاة وأمها فورًا.

هكذا، أكمل "ألفريد ألبوت" مهمته وعثر على الفتاة وأمها، لكنه لم يكن ينوي اصطحاب الفتاة إلى المسجد بنفسه.

- أرى أن ذهابي معك سيكون قرارًا يفتقر إلى الحكمة يا "حسين أغا"، فسيعرضني لخطر شديد. خذ الفتاة وأمها إلى المسجد بأقصى سرعة ممكنة.

رحل "حسين أغا" في الحال ومعه الفتاة وأمها. وفي طريقه قابل مجموعة من رجال الشرطة فتحدث إليهم وطلب منهم مرافقته، كذلك تبعهم جماعة من الفضوليين، أخذوا يلحون عليهم بالأسئلة وهم يهرولون إلى جانبهم، ثم قرروا مرافقتهم بعد إدراكهم لطبيعة الموقف، فربما احتاجوا أي مساعدة.

عند مرورهم بمكتب البريد رؤوا حشدًا مسلحًا في شدة الغضب يتجه إلى الحي اليوناني، في طريقه – غالبًا – إلى السفارة الأمريكية. صاح "حسين أغا" وجماعته يخبرونهم أن الفتاة تم تسليمها بالفعل وأنها معهم الآن، لكن الحشد لم يصدقهم، وأشهر أحدهم سلاحه وضغط على الزناد، إلا أن السلاح لم يعمل لحسن الحظ. لكن بعد تصديق رجال الشرطة على كلام "حسين أغا"، اقتنعوا واستداروا إلى الخلف يعودون أدراجهم. وفي طريقهم إلى المسجد أطلقوا النيران في الهواء ورددوا صيحات النصر.

إلا أن هذه الأخبار لم تبلغ مسامع الجماهير عند المسجد، وأخذ صبرهم في النفاد. وفجأة، صرخ رجل عند مقدمة الجماهير: "اللـه أكبر!"

اتضح أن هذه هي إشارة الشروع في قتل "هنري أبوت"، وردد الناس جميعًا "اللـه أكبر"، وبلغ السعار بهم مبلغه. وانتشر الهرج والمرج في فناء المسجد مع زحف الجمهور إلى الحجرة التي يحتمي بها القنصلان. التفت "جول مولين" إلى "هنري أبوت" قائلًا:

- إن الأمور تخرج عن السيطرة!

في تلك اللحظة، جذب أحدهم "هنري أبوت" من الياقة، وصاح القنصل فيهم ليتوقفوا، أخبرهم بذهاب أخيه لإحضار الفتاة، لكنهم لم يستمعوا. تلقى بضع ضربات على وجهه طرحته أرضًا، وراح عدد من الشبان المتشددين يضربون رأسه بقضبان حديدية، وعجز آخر عن التحكم في نفسه فمال فوقه يكيل له اللكمات. ولم تتوقف الاعتداءات إلا وجسد القنصل ملقيًا على الأرض، غارقًا في دمه، بعد أن فارقته الحياة.

وقعت تلك الحادثة البشعة تحت بصر "جول مولين"، وأدرك أن دوره قد حان، فراح يتوسل إليهم أن يُبقوا على حياته، لكن سرعان ما أدرك استحالة النقاش مع هذا الحشد الثائر، وأنه سيلقى – لا محالة – مصير رفيقه، فنزل على ركبتيه ورشم الصليب. زاد ذلك غضب الجمهور اشتعالًا، وبدؤوا في ضربه بالقضبان الحديدية. ولم يصل الوالي ورجال الشرطة إلا وقد قضى الجمهور الغاضب عليه ولاذ بالفرار.

عاد الوالي إلى مبنى الحكومة، وقال محذرًا "بلانت" القنصل البريطاني:

- لقد قتلوا زملاءك، لا تكشف لهم عن هويتك ولا تدعهم يرونك. إنهم فصيل من الذئاب الجائعة، ولن يترددوا في إيذائك أنت الآخر.

اتسعت عينا السيد "بلانت" رعبًا، وبدأ جسده في الارتعاش. طلب من الوالي إخفاءه بين حريمه، ظنًا منه أن الجماهير الغاضبة لن تفكر في البحث عنه هناك. هم الوالي أول الأمر يعلن عن استحالة دخول أي رجل غيره على الحريم، لكن مع إصرار القنصل شعر الوالي أنه مضطر إلى الموافقة.

* * *

يملك "إبراهيم بك" منزلين يطلان على البحر في حي "بيليك سيسمي" بـ"سالونيكا"، قرب "يني كبي" التي شيَّدها عام ١٨٦٠؛ أحدهما هو السلملك الخاص بالرجال حيثما يستقبل زواره، يتكون من سبع حجرات، ومطبخ، وحمام، إضافة إلى اسطبلات الخيل في الطابق الأرضي، وحوض ماء كبير في الحديقة. أما الآخر فهو الحرملك الخاص بالنساء، مكوَّن من اثني عشرة غرفة، ومطبخ، وحمام، إضافة إلى حجرات للتخزين في الطابق الأرضي وحديقتين كبيرتين. تم تشييد المنزلين بالحجارة على الطراز التركي.

كسب "إبراهيم" ثروة طائلة من الزراعة والمصالح التجارية. يرجع أصل الرجل إلى قرية "سيرين" بحي "رادومير"، لكنه انتقل إلى "باليكيسير" ومنها قام بتصدير البضائع إلى "سالونيكا"، وسرعان ما كوَّن شبكة تجارية ضخمة. عاش "إبراهيم" في "باليكيسير" خمس سنوات، وفي هذه الفترة اتُهِم بتزويد الجيوش والأساطيل البريطانية والفرنسية والتركية بالمؤن خلال حرب القرم. ومع انتهاء الحرب عاد إلى "سالونيكا"، حيث تزوج "خديجة هانم"، بنت "مراد بك" القائد العسكري لقلعة "سالونيكا"، واشترى مزرعة "جورجوب" من "صالح بك" القادم من إسطنبول، وبدأ في الزراعة وتربية الأغنام.

يُمنح لقب "كدخدا"، تحت ظل الحكم العثماني، إلى قادة الشرطة النظامية والعسكرية، إضافة إلى المسؤولين رفيعي المستوى. لكنه يُطلق أيضًا على كبار المزارعين، ولطالما استخدمه "إبراهيم بك" عند تقديم نفسه، قائلًا: "إبراهيم بك كدخدا". كان "إبراهيم بك" رجلًا متدينًا، حج إلى مكة، وفي طريق عودته عام ١٨٦٠، شيَّد نافورة لتعويض شيء من نقص المياه في "سالونيكا"، ونقش

عليها: "شُيِدَتْ هذه النافورة من أموال صدقة الحاج إبراهيم بن كدخدا من قرية سيرين بمقاطعة بريزيرن".

رغم موقع سكن "إبراهيم بك" القريب من المسجد، فإنه كثيرًا ما كان يستثقل الذهاب إليه، ويفضِّل الصلاة في البيت. وهكذا كان الحال في ذلك اليوم، حيث شرع في أداء الصلاة في المنزل عقب سماع أذان العصر، لكنه فوجئ أثناء الصلاة بطرق شديد على بابه، تجاهله أول الأمر، معتمدًا على قيام غيره بفتح الباب. ولما لم يتوقف الطرق، قطع صلاته واتجه إلى الباب، ساخطًا، متمتمًا لنفسه: "هل خلا ذلك البيت الضخم من شخص يفتح الباب؟".

فتح "إبراهيم بك" الباب، وفوجئ بشقيق زوجته، في حالة يرثى لها وسأله "إبراهيم بك" مندهشًا:

- ماذا حدث يا "سليمان"؟

فأجابه:

- لا تسل. أنا في ورطة. لقد هربت للتو من الشرطة.

- لماذا؟ ماذا حدث؟ هيا، ادخل وأخبرني!

- كنت في مسجد "ساعتلي" مع أخي. فوجئنا بحالة من الهرج عمَّتْ الفناء عقب الصلاة، واضطرتنا الظروف إلى الافتراق. سرت مع الحشد لمعرفة ما يجري، لكن الغضب تملكهم فجأة، بعد أن كانوا في غاية التنظيم. راحوا يلقون الحجارة على إحدى الحجرات في ركن الساحة. في البداية، كنت أجهل سبب ذلك، ثم اكتشفت احتجاز قنصلين كرهائن هناك. دفعني الفضول إلى الاقتراب. هاجم المتظاهرون الحجرة وأخذوا يضربون الكفَّار، استخدموا كل ما تصل إليه

أيديهم، حتى إنهم استخدموا قضبانًا حديدية خلعوها من النوافذ. غطت الدماء الرجلين وأخذا يطلبان الرحمة، لكن الضرب استمر حتى فارقا الحياة. هرب القتلة على الفور وبقيت هناك وحدي مسمرًا في مكاني من أثر الصدمة. فجاء رجلي شرطة وقبضا على ذراعي، أخذت أقسم لهما أني لم أفعل شيئًا، لكن ردهما كان: "أخبر القاضي بذلك". وقالا للضباط عند البوابة إنهما سيقوداني إلى الحبس، بعد أن عثرا علي بجوار الجثتين. أقرهما القائد على ذلك، وأمرهما بالتنفيذ، فدفعاني أمامهما في الشارع، وعندما حاولت المقاومة ضربني أحد الجنود بمؤخرة بندقيته في المعدة. عبرنا شارع المسجد ودخلنا الحي. اصطحباني إلى مبنى الحكومة وأودعاني إحدى الزنازين هناك. كان هناك آخرون تم القبض عليهم عند المسجد، يجلسون جميعًا القرفصاء على الأرض، لكن أحدهم كان يجول في الزنزانة بعصبية، قال عندما رآني: "لقد تلقت هذه الخنازير ما تستحقه". كان طويلًا، بعينين آسيوتين مائلتين، كان من الواضح أن الغضب يسيطر عليه. تملكتني الدهشة، فما الذي جاء بي هناك وسط القتلة! توافد السجناء على الزنزانة حتى مُلئت تمامًا. عندما رأى القائد مقدار الزحام أمر الجنود باصطحابنا إلى البرج. خرجنا إلى الحديقة وأجبرنا على الوقوف في طابور مزدوج. ثم بدؤوا في تقييد أيدينا. لكن ما إن حان دوري حتى دخل الباشا من بوَّابة الحديقة وأخذ يطلق الأوامر يمينًا ويسارًا. تمكنت خلال تلك الفوضى من الهرب عبر البوابة، لم يبدؤوا في مطاردتي إلا بعد قطعي مسافة جيدة، كما أنهم أطلقوا رصاصتين لم تصبني أي منهما لحسن الحظ.

- هدئ من روعك، من الواضح أنك مذعور.

- لا بد أنهم يبحثون عني الآن، أعرف ذلك.

- هل رآك أحد عند دخولك منزلي؟

- لا أظن ذلك. الوضع شديد الفوضى في الخارج.

- جيد، إذا فلتسترخِ قليلًا، وسنفكر بعدها في الحل.

- هل أختي هنا؟

- إن زوجة "إفرينوس زادة" تضع طفلها الآن، ولقد أرسلوا يطلبون مساعدة أختك.

- لا داعي لإخبارها بشيء عند عودتها، فهي سريعة القلق. ربما نضطر لذلك فيما بعد، لكن ليس الآن.

- لا تقلق. عليك الذهاب أولًا لغسل وجهك ويديك في نافورة الحديقة. فإذا رأتك هكذا سيسيطر عليها القلق.

- أجل، أنت محق. سأذهب لتنظيف نفسي.

* * *

بعد تفرق الجمع وسيطرة الهدوء على الأوضاع بعض الشيء، غادر السيد "بلانت" مخبأه في حرملك الوالي وعاد إلى مكتبه. ومن هناك، اتصل بموظف التلغراف وطلب منه إرسال رسالة موجزة إلى السيد "و. ستوارت" السفير البريطاني في أثينا.

"من القنصل بلانت إلى السيد "و. ستوارت". سالونيكا ٦ مايو ١٨٧٦. قام المسلمون بأعمال شغب. تم اغتيال "جول مولين" القنصل الفرنسي و"هنري أبوت" القنصل الألماني. نحتاج سفنًا حربية لحماية مصالحنا".

مالطا – ٣٠/١ أبريل ١٩٢٠

تملك الحنين إلى الوطن قلب "تحسين بك" منذ اللحظة التي هبط فيها أرض مالطا. وفور تسلمه حجرته ونقل متاعه، سأل عن حدود التواصل مع الأهل التي يسمح بها البريطانيون لسجنائهم. وحينما علم بإمكانية مراسلة الأهل كتابة سر وانشرح صدره، رغم خضوع الرسائل للرقابة. وما إن اعتاد نمط الحياة على الجزيرة حتى كتب إلى "مديحة هانم".

"بولفرستا، ٧ أبريل ١٩٢٠

عزيزتي مديحة،

كتبت إليك بعد يوم من وصولي، لكنهم لم يسمحوا لي بإرسال خطاب قبل إنهاء الإجراءات الشكلية. طلبوا في البداية قائمة بأسماء الذين أود التواصل معهم. ثم أعطيتهم تعهدًا بخلو الخطابات من أي محتوى سياسي. عندها حصلت على إذن بإرسال واستلام الخطابات. وهكذا يمكننا التواصل متى نشاء.

لكني فقدت الخطاب الأول في فوضى السكن، وإن كنت لا أملك الكثير لأقوله حيث لم تمر على وصولي سوى أيام معدودة.

بعد اعتقالي في تلك الليلة، أودعت سفينة حربية. غادرت السفينة إسطنبول في اليوم التالي، وسألت نفسي هل أعود يومًا ما. لا أتذكر عدد الأيام التي

قضيناها في البحر تحديدًا، لكننا استغرقنا ما بين ستة أو سبعة أيام للوصول إلى مالطا. تم عرضنا على قائد المعسكر أولًا. ثم قُسِّمنا إلى مجموعات من ثلاثة إلى خمسة أفراد، ونزلنا في شقق جيدة المساحة، تتكون كل واحدة من ثلاث إلى خمس حجرات، لكلٍ حجرته الخاصة. أسكن شقة ذات ثلاث حجرات. لكل شقة شرفة كبيرة. نمكث في الشقة معظم الوقت، ونترك الأبواب مفتوحة خلال النهار، فالجو شديد الحرارة. أمَّا في الليل فنغلقها، لأن الجو شديد البرودة ليلًا.

لا أعرف الوضع في المعسكرات الأخرى، لكننا نعامل هنا كالضيوف. ويسمحون لنا بالتجوُّل في الحديقة.

أنا بصحة جيدة، وليس في الطعام ما يدفعني للشكوى. مشكلتي الوحيدة هي افتقادي إلى وجودك والأطفال، لكن تواصلنا هذا هو عزائي الوحيد. أرجوكِ لا تحرميني من رسائلك. سأكتب لك بشكل دوري كل أسبوع. يمكنكِ توجيه الخطابات إلى العنوان المدوَّن خلف الظرف. لكن إياكِ أن تغلقي الظرف بما يمنعهم من الاطلاع عليه قبل أن أتسلمه. ولا تكتبي لي إلا عن أمور الأسرة. يمكنك إرسال الخطابات عبر القنصلية البريطانية أو مكتب البريد البريطاني، فقد أخبرني الأصدقاء هنا أن رسائل مكتب البريد البريطاني تستغرق أسبوعًا أو أسبوعين للوصول. أما خطابات القنصلية البريطانية فتستغرق أحيانًا شهرًا أو شهرين.

سأسر كثيرًا لو ترسلين إلي ببعض البناطيل، والقمصان، والملابس الداخلية. ورغم اقتراب فصل الربيع، فإن إرسالكِ زوجًا من القمصان الصوفية سيدخل السرور على قلبي.

يوجد عدد من الأصدقاء هنا؛ الوالي "رحمي بك"، و"رؤوف بك"، وقليل من أعضاء البرلمان. هل تذكرين حديثي عن "كارا واصف" في آخر ليلة جمعتنا؟ لقد قبضوا عليه في اليوم التالي، وهو الآن معنا.

لكن قبل إنهاء رسالتي، أود معانقتكِ باشتياق. بلغي تحياتي إلى أختي "أمينة" وزوجها، وأخي "حسين"، وأختك، وجميع الأقارب والأصدقاء.

قومي باحتضان "صلاح الدين" و"جلال الدين" نيابة عني. وأبلغي كل من يسأل عني أني بخير حال، فلا داع للقلق.

وليحفظكِ الـلـه،

زوجك المحب

تحسين".

أرسل "تحسين بك" خطابه الثاني بعد أسبوع، أتبعه بثالث بعد الفترة نفسها، كل ذلك دون تسلم أي رد. ثم توقف عن الإرسال إلى أن تسلم أول خطاب من زوجته.

كان يجلس في ذلك اليوم في الحديقة إلى جوار البركة، منخرطًا في نقاش مع "سليمان سودي بك"، و"سليمان نعمان باشا"، و"شكري بك"، و"إبراهيم بك" وزير العدل السابق. كان الجميع ينصتون إلى حديث "تحسين بك" بكل جوارحهم، حتى أن مباراة التنس الجارية بين "حسين شهيد" و"صلاح بك" لم تسبب لهم أي إلهاء.

فجأة، صاح "حسين":

- اللعنة!

وتردد صدى صوته بين جدران ثكنات "بولفرستا". توقف الجميع عن الكلام والتفت لينظر. كان "حسين شهيد" يطلق إرساله الثاني، بعد اصطدام الأول بالشبكة. قذف الكرة وطوَّح بمضربه، لكنه أُحبط عندما سقطت الكرة خارج حدود اللعب، فألقى مضربه على الأرض. يتعامل "حسين شهيد بك" مع أي مباراة بجدية شديدة، وغالبًا ما يكون الفوز من نصيبه، لكنه استهان بـ"صلاح بك" هذه المرة، وعندما خسر بنتيجة اثنين إلى واحد غادر الملعب مهرولًا، وذهب إلى حجرته دون أداء أبسط الأعراف الرياضية وهو مصافحة الخصم، مما عرَّضه إلى انتقاد زملائه في الحال.

أتى "صلاح بك" للانضمام إلى المجموعة التي واصلت نقاشها، مع فوطة على كتفه ومضرب في يده.

سأل "تحسين بك":

- ماذا كنت أقول؟

- كنت تتكلم عن ألعاب القدر.

- ماذا كان السياق؟

- شيء يتعلق بالسلطان "عبد الحميد".

- نعم، تذكرت الآن. عندما كنت طالب علوم سياسية ألقى السلطان "عبد الحميد" بي في السجن. لكن يأبى القدر إلا أن يلعب لعبته، حيث تم الانقلاب

على السلطان ونفيه بعد أعوام، في عام ١٩٠٩ تحديدًا، وكنت حينئذ محافظًا لـ"سالونيكا" الوسطى. نقل "فتحي" السلطان خلسة إلى "سالونيكا"، وهناك كنت أنتظر في مركز "كيلكيس" العسكري، لتسلم السلطان المعزول وحاشيته، ومن ثم اصطحابه إلى قصر "الآلاتينى" حيث سيقضي فترة نفيه قيد الإقامة الجبرية. لن أنسى ذلك أبدًا. في طريقنا من "كيلكيس" إلى "الآلاتيني" أخذت أتذكر سنوات حكمه القاسية، والأيام التي قضيتها في حجز مركز شرطة "بيشكتاش" وأنا ابن الثامنة عشرة، أعاني أثناء نومي على الأرضية الحجرية الباردة، والفئران تروح وتجيء فوق جسدي. لقد استشعرت في تلك اللحظة معنى عدل الـلـه وعظمته.

قال "سليمان سودي بك":

- إنك تتحدث عن قسوته، لكن ألا توجد للرجل أية محاسن تذكر؟

أجاب "تحسين بك":

- لا شيء يستحق الذكر. لكني أقولها ثانية، لا تتوقع مني مدح شخص تسبب في تعذيبي.

- أتفهم موقفك، لكن الحديث بهذه الطريقة عن سلطان خدم أمتنا أعوامًا عديدة أمر لا يسعني تقبله.

- ربما أنت على حق، وأحترم رأيك رغم عدم اتفاقي معك.

كالعادة، كان نقاشهما آية في الاحترام والتأدب. ومع الوقت استسلما أمام زحف الظلام المتواصل، واتفقا على مواصلة الحديث في اليوم التالي، وعاد كلٍ منهما إلى حجرته.

توجه "تحسين بك" إلى المكتب قبل العودة إلى الحجرة، للاستعلام عن أي خطابات واردة.

- أنا "حسن تحسين"، هل وصلتني أية رسائل؟

- 2774 "حسن تحسين"، نعم، هناك خطاب بالفعل، تفضَّل.

- شكرًا.

تسلم أخيرًا بعد أسابيع عديدة خطابه الأول من "مديحة هانم". وذكره ختم "التصديق" بحريته المسلوبة، إلا أن ذلك لم ينقص من حماسه شيئًا. لم يكن يفكِّر في شيء حينئذ إلا كونه ممسكًا بخطاب من زوجته بين يديه.

فتح "تحسين بك" الظرف فور مغادرته المكتب، وبدأ في قراءة الخطاب.

"إسطنبول ٢٧ أبريل ١٩٢٠

حبيبي تحسين،

لقد أدخل خطابك السرور على قلوبنا جميعًا، حتى أني أعدت قراءته مرة تلو مرة من فرط السعادة. ثم أعطيته إلى أختك فلما قرأته تأثرت بشدة. كذلك أرسلت برقية إلى أخيك حسين أطمئنه فيها على صحتك.

لم تقع أمور كثيرة منذ مغادرتك. نتلقى اتصالات دورية من الأصدقاء والأقارب. ونحمد الـلـه على استقرارنا المادي. وصل "فيض الـلـه أغا" مؤخرًا من "جورجوب"، ومعه مكسبنا من بيع القطيع. لم يكن يعرف شيئًا مما حدث لك، فلما اطلع على الأمر حزن بشدة. باختصار، لا ينقصنا إلا وجودك.

أشعر بقلق حقيقي على صحتك. لذا سأكون ممتنة حقًا لو تخبرني بالمزيد عن صحتك وحياتك هناك. أحدث نفسي أحيانًا بأن زوجي الشجاع سيتخطى هذه المحنة مثلما تخطى الكثير من قبل. أدعو اللـه لك في كل ليلة قبل النوم، وأثق أن اللـه سيتقبل دعائي ويجمعنا بك مرة أخرى.

عزل "صلاح الدين" نفسه عن الجميع بعد ذهابك، ورغم ما يسببه لي ذلك من الحزن، فإنه لم يتسبب في أي مشكلة أخرى. أما "جلال الدين" فصار لا يُطاق، لا أصرف انتباهي عنه دقيقة إلا تورط في مشكلة ما. آخرها قبل أيام قليلة؛ حيث لطم ابن الجيران، لكن أمه كانت - لحسن الحظ – متفهمة للوضع الذي يمر به، فلم تسمح بتطور الموضوع إلى خلاف حقيقي.

آه، كدت أنسى! تسلمت خطابًا مريبًا بعد ثلاثة أيام من رحيلك، كان مرسلًا من قبرص. اضطررت إلى فتحه – أتمنى ألا يزعجك ذلك – عندما ظننته يحوي رسالة مهمة. أرسل الخطاب في مارس من العام الماضي، من امرأة تدعى "زهرة"، أعتقد أنها قريبة لك، ذكرت في رسالتها زواج ابنتها برجل غني يدعى "أحمد غالب بك" في شهر فبراير. لا بد أنها كانت تجهل مغادرتك دمشق، لذا أرسلته إلى هناك، ومن هناك أعيد توجيهه إلى إزمير، ثم أخيرًا إلى إسطنبول. ما زال تسلمنا هذا الخطاب يثير دهشتي، خاصة مع استغراقه عام من الارتحال هنا وهناك. لا أستطيع تحديد قصد المرأة بالضبط، لكنها تشكرك على الهدية، وهذا كل ما أرادت قوله لك.

جهزت كل ما أرسلت في طلبه، وقمت بشحنه إليك بالفعل. أتمنى أن تتسلمه قريبًا. لا تتردد في الطلب متى احتجت إلى أي شيء آخر، وسأرسله في الحال.

أعانقك رغم المسافة وأدعو اللـه أن يجمعنا قريبًا.

زوجتك المحبة

مديحة".

سالونيكا – ١٦/٨ مايو ١٨٧٦

لم تخط قدم "سليمان" خارج منزل أخته خلال الأسبوع الذي قضاه مختبئًا هناك. حتى أنه لم يغادر الحجرة المخصصة له بالأعلى خشية قدوم ضيف مفاجئ، وهناك كان يتناول طعامه أيضًا.

كانت أخته تجد سعادة في إعداد أطباقه المفضلة والصعود بها إلى حجرته. فلا شك أنها اعتبرت الوضع منحة في ثوب محنة، حيث سمح لها بقضاء بعض الوقت مع الأخ الذي لم تستطع رؤيته كثيرًا بعد زواجها "إبراهيم بك". وإن كانت مطاردة الشرطة له تقلقها بالطبع.

بعد انتهائها من مهامها بالأسفل، صعدت "خديجة هانم" وطرقت باب أخيها.

- هل يمكنني الدخول؟

- نعم، بالطبع، بالطبع. هيا تعالي.

- أتيت لأخذ الصينية.

- شكرًا لك على هذه الوجبة اللذيذة.

- كم أنا سعيدة لأنها لاقت إعجابك!

- بالطبع أعجبتني. كانت رائعة. سأقولها لكِ وإياكِ أن تبلغ مسامع "لطفية"، لا يجيد أحد إعداد "سولو بيتا" مثلك.

- أوه، أرجوك لا تبالغ.

وبينما تضع "خديجة" الأطباق في الصينية، قال "سليمان":

- أعرف أني أعرضك إلى الكثير من المشاكل، أنا آسف.

- لا توجد أي مشاكل.

بلغتهما أصوات طرقات على الباب الرئيسي.

- سأذهب لفتح الباب، لا بد أنه زوج أختك.

قالتها "خديجة" وتوجهت إلى الأسفل.

* * *

اعتاد "إبراهيم بك" زيارة السوق يوميًا منذ أن جاء "سليمان" للإقامة في منزله، وذلك للاطلاع على أي تطورات. إلا أن المدينة كانت هادئة إلى درجة غير مألوفة. لكنه لاحظ تزايدًا يوميًا للسفن الحربية في الميناء بأعلامها الأجنبية.

أرسل السيد "بلانت" برقية موجزة إلى السيد "و. ستيوارت" السفير البريطاني في أثينا، يوم اغتيال القنصلين. كانت البرقية عبارة عن: "قام

المسلمون بأعمال شغب. نحتاج سفنًا حربية لحماية مصالحنا". أرسل السيد "بلانت" في اليوم التالي برقية إلى سفينة "بيترن" الحربية، تحت قيادة القبطان "أنستروتر"، ينقل إليه طلب القنصل البريطاني العاجل. وفور تسلمه الرد، أرسل السيد "ستيوارت" إلى السيد "بلانت" يخبره بإبحار "بريتين" إلى "سالونيكا"، وبموعد متوقع لوصولها الثلاثاء القادم.

في التاسع من مايو، وصلت "جلادياتور"، السفينة الحربية الفرنسية إلى ميناء "سالونيكا"، و"سلامين" و"جورج الأول"، السفينتين الحربيتين اليونانيتين. كما شهد اليوم نفسه وصول "عز الدين"، السفينة الحربية العثمانية، تحمل تعزيزات تقدَّر بستمائة جندي تقريبًا، بالإضافة إلى "فاهان أفندي" وكيل وزارة العدل العثمانية، الذي أُختير للقيام بمهام القاضي، و"مصطفى أشرف باشا"، الوالي الجديد، وعديد من المندوبين الألمان والفرنسيين.

في تلك الأثناء كان "محمد رشيد باشا" قد فرض إجراءات أمنية مشددة وحظر تجوال. خيَّم الصمت على المدينة، بينما المواطنون المسيحيون والجاليات الأجنبية تفكِّر في مغادرة منازلها، بعد شكها في قدرة قوَّات الاحتياط العثمانية على حماية أرواحها.

شعر القناصل الأجانب والمندوبون بالسخط، لاستمرار تجميد الاعتقالات حتى بعد مرور يومين على قدوم التعزيزات العثمانية، كما احتجوا على إرسال قوات غير كافية.

حذت بعض الدول الأخرى حذو فرنسا واليونان، بعد وصول سفنهما الحربية إلى "سالونيكا". ففي الثاني عشر من مايو، استقبل ميناء "سالونيكا" الفرقاطة "أسكولد" الروسية، و الفرقاطة "ماريا بيا" الإيطالية، ثم تبعتهما

بعد يومين، "سويفتشور" السفينة الحربية البريطانية، بالإضافة إلى أخرى نمساوية وسفينة إيطالية ثانية. وعلى مدار الأسابيع التالية، وصلت الميناء الفرقاطات الألمانية "كيزر"، و"دويتشلاند"، و"كرونبرينز"، و"فريدريش كارل"، و"بوميرانيا"، والسفن الحربية "كوميت"، و"ميدوسا"، مما أعطى انطباع بقرب وقوع غزو حربي.

لم ترسل هذه السفن الحربية لإرهاب الحكومة العثمانية فقط، بل وللمطالبة بتعويضات من أجل أسر القنصلين اللذين قتلا بوحشية، ومحاكمة "محمد رفعت باشا" الوالي السابق، ومسؤولين مدنيين وعسكريين آخرين لم يفعلوا شيئًا لحقن الدماء.

لا شك أن وصول هذه السفن كان بداية لحملة مطاردات واسعة النطاق. حيث تسلم "كوستاس موسورس باشا" المبعوث العثماني إلى لندن – في الثالث عشر من مايو – رسالة من "فاهان أفندي" يخبره فيها بالقبض على ستة وثلاثين شخصًا، ثم أبلغه بعد يومين بالقبض على ثمانية عشر شخصًا آخرين.

* * *

- الأخبار لا تسر يا "خديجة".

- لماذا؟ ما الأمر؟ ماذا حدث؟

- إنها تلك السفن الحربية الأجنبية التي تملأ الميناء، لقد دفعت حكومة إسطنبول إلى إصدار أمر بالقبض على جميع المتورطين، كما عُيِّن "أشرف باشا" واليًا بدلًا من "محمد رشيد باشا". بلغني أنه تم القبض على عدد كبير من الأشخاص خلال الأيام القليلة الماضية. وبينما أحاول معرفة موقف "سليمان"،

سمعت بإلقاء القبض على شاب تتري يحمل الاسم نفسخ. من الواضح أنه شخص مسكين يعمل في المذبح.

- لا أفهم قصدك. هل يعني ذلك أنهم ما يزالون يبحثون عن "سليمان"؟

- لم أتمكن من معرفة شيء عن ذلك، فهو أمر لا يمكن السؤال عنه بطريقة مباشرة. تظاهرت أن الفضول هو سبب اهتمامي بالمطلوبين أمنيًا.

- هل نعرف أيًا منهم؟

- في الواقع، لست متأكدًا. لكن من الواضح أنهم ألقوا القبض على "هيلفاتسي عبد الـلـه"، ونجل "أحمد بك".

- ما التهمة؟

- لا أعرف بالضبط، فالشرطة تتعرض لضغوط هائلة، لذا يقبضون على أي شخص وكل شخص. ولو أعطاهم أي شخص وصفًا لـ"سليمان"، فسيأتون للطرق على بابنا عاجلًا أم آجلًا.

- لا تقل هذا!

- لا دخل لقولي أو صمتي بالأمر. إذا جاؤوا وعثروا عليه هنا فسنتعرض إلى الكثير من المشاكل.

- حسنًا، هل لديك حل للمشكلة؟

- لا أعرف، لكن ربما يمكننا إخفاءه في مزرعة "جورجوب"، أو في مزرعة أخيك غير الشقيق "إبراهيم أغا" في "قرقلر". لن يفكر أحد في البحث عنه هناك.

- ستكون مزرعة "جورجوب" أكثر ملاءمة. لا أريد توريط أخي في ذلك.

- إذًا فهي "جورجوب". سأذهب للتحدث معه في ذلك. يمكننا المغادرة فجر الغد وسنصل قبل المساء. فعلى كل حال، أحتاج إلى القيام ببعض الأشياء هناك. ويمكن لـ"نصر الدين أغا"، والجزَّار، وابنه "فيض الـلـه" الاهتمام بـ"سليمان" بعد عودتي. إنهم أمناء حقًا، وسيحسنون رعايته.

- عسى أن تزول هذه الغمة.

- آاه، كدت أنسى. إن قائمة المطلوبين تحوي "كزل حافظ أحمد أفندي" والد جارنا "علي رضا بك". سمعت أنه يختبئ في الجبال.

- إذا هل ما يقولونه صحيح؟ هل ذهب إلى الجبال؟

- مممم، هذا ما سمعته في المقهى، لكني لا أعرف إن كان صحيحًا أم لا.

* * *

بعد عودته من المزرعة، حاول "إبراهيم" معرفة المزيد عمَّا يجري. كانت المعلومة الوحيدة التي توصَّل إليها تتعلق بمحاكمة هؤلاء المسجونين، حيث ستُجرَى في محكمة تقام على ظهر السفينة الحربية "سليمية". ذهب "إبراهيم" إلى الميناء طمعًا في المزيد من الأخبار، فوجد طوقًا أمنيًا حول رصيف الميناء، وقد تجمَّع خارجه أقارب المتهمين ممن لم يُسمح لهم بحضور المحاكمة. فتخلى "إبراهيم" عن سعيه وراء أخبار جديدة، وتوجَّه عائدًا إلى المنزل.

في تلك الأثناء، بدأ انعقاد المحكمة برئاسة "فاهان أفندي". واتخذ كل من المندوب الفرنسي والمندوب الألماني مكانه، وبينما "فاهان أفندي" يخطو باتجاه مقعده، نهض الجميع واقفين.

كان أول شاهد نادى عليه "فاهان أفندي" هو العقيد "سليم بك" رئيس شرطة "سالونيكا".

- أخبرنا بما رأيت يا "سليم بك".

- ذهبت يوم الجمعة – الخامس من مايو – إلى الميناء في السادسة مساءً. وبعد ساعة ونصف تقريبًا عدت إلى مبنى الحكومة. أخبرني الرقيب المكلَّف بالخدمة بوقوع شجار في محطة القطار. حينما سألته عن التفاصيل أخبرني أن فتاة ترتدي عباءة وحجاب تريد اعتناق الإسلام طلبت المساعدة من بعض رجال الشرطة. كانت برفقتها امرأة سوداء. ويقال إن نجل "جاك أبوت" قام بتمزيق حجابها وألقاه على الأرض أثناء حديثها مع عريف شرطة وجنديين، عندها استغاثت الفتاة برجال الشرطة لإنقاذها. وهناك إشاعات تفيد قيام مجموعة من اليونانيين باختطاف الفتاة وإجبارها على ركوب عربة تجرها الخيل بمساعدة رجل يدعى "هانجي فاسيلي". أبلغت الوالي بذلك وأمرني بالعثور على الفتاة.

- ماذا حدث بعدها؟

- بلغتنا أنباء تفيد تواجدها في القنصلية الأمريكية، لكن الحصانة السياسية منعتنا من الدخول. لم يكن أمامنا سوى العودة. في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من صباح اليوم التالي تجمع حشد كبير من المسلمين قرب مبنى الحكومة. غادرت مكتب الوالي وتوجهت إلى قائد الحشد لإخباره بمخالفتهم

القانون والسؤال عن مطالبهم. قالوا إنهم يطالبون بتسلم الفتاة. طلبت منهم الصبر لبضع ساعات يتسلمون بعدها الفتاة لكنهم لم يستجيبوا. أبلغت الوالي بمطالبهم، ففتح النافذة وصاح يأمرهم بالتفرق. ثم أرسل الوالي في طلب "إبراهيم بك". وخرجت إلى الحشد وأمرتهم بالتفرق في الحال، والعودة إلى العمل بعد ترك بضعة ممثلين لمراقبة الجهود التي يبذلها الوالي لإنقاذ الفتاة. كان حشدًا غير مسلحًا لكنه غاضب وخطير. كان هناك مائة شخص تقريبًا، ولم نكن نملك سوى عشرين رجلًا.

- من كان يقود هذا الحشد؟

- الحاج "الملتزم حسن"، و"شوبوكلو حسين"، و"داوود بك" من السجل العقاري. كانوا يتزعمون الحشد. حذَّرهم "سليم بك" وطلب منهم المغادرة، لكن ذلك لم يسفر عن نتيجة محمودة، بل على العكس أخذ الحشد في التزايد. في تلك الأثناء وصل القاضي وعدد من النوَّاب إلى مبنى الحكومة. وتوجهت إلى الوالي وأخبرته أن الوضع يخرج عن السيطرة.

- ماذا فعل الوالي عندئذ؟

- أمرني الوالي بإرسال "تيمور أغا"، و"علي أغا"، وكتيبة من الشرطة إلى الحي الأوروبي لصد المتظاهرين عنه. ترك الحشد مبنى الحكومة وتوجَّه إلى المسجد. وعندما رأى الوالي ذلك قرر الذهاب إلى المسجد بنفسه. وعندما طلبنا منه الرجوع عن ذلك أمرني بالذهاب مع النواب للقضاء على الشغب. ذهبنا إلى المسجد مع عشرين رجلًا، وكان هنك رجل يرفع علمًا ويركض حول فناء المسجد. وحدث أن هدد الحشد بقتلنا إن لم تسلم الفتاة إليهم. أخبرت الوالي بمدى ثورة الحشد وضرورة طلب التعزيزات من القائد البحري في الميناء. فكتب في الحال

أمرًا رسميًا ذهبت به إلى الميناء. لم يكن العقيد "عطا بك" هناك، لكني قابلت النقيب "عزت بك"، وأخبرني بذهاب جميع القوات إلى حديقة الجميزات الخمسة للاحتفال بعيد الخضر كونه علامة على بدء موسم الصيف، لذا عدت.

- هل عدت إلى المسجد؟

- نعم يا سيدي. وبعد فترة قصيرة وصل القنصلان، ثم وصل الوالي بعد دقائق، فأخبرته بتواجدهما. كانت تلك مفاجئة له، فشق طريقه بين الحشد إلى الحجرة الواقعة على يسار الفناء حيثما ينتظر القنصلان والنواب. وتحدث معهما لكني لم أسمع شيئًا. ثم بدأ المحتجون في محاولة فتح الباب بالقوة، فدفعناهم إلى الوراء، لكن الأمر كان يزداد صعوبة. وراحوا يلقون الحجارة على النافذة، عندها شحب الوالي، ثم انفتح الباب ودخل "عطا بك" مهرولًا. انخلع قلبي لرؤيته وسألته عن القوَّات، فقال إنه لم يتسلم أي أمر بإحضار القوات، فأمره الوالي بإحضارها في أسرع وقت ممكن. أسرع "عطا بك" إلى الخارج لكن الحشد أحاط به عند بوَّابة الفناء ولم يسمحوا له بالمرور. حينئذ خرج النوَّاب وطلبوا من الناس التفرق، لكن الحظ لم يوافقهم أيضًا. فعادوا وأخبرونا بتسلُّح الحشد وأنهم يركضون في المكان حاملين الأعلام. كان الجنون يسيطر عليهم ويصيحون بأعلى صوت. حاولت تخفيف حدتهم بوعود بتحرير الفتاة، لكن النائب "حسين بك" أخبرني أن ذلك سيزيد من غضبهم. في النهاية قاموا بخلع القضبان الحديدية من النافذة واقتحموا الحجرة يحملونها في أيديهم. حاول أحدهم ضرب الوالي لكن أحد النواب تولى حمايته لحسن الحظ.

- هل كنت متواجدًا في الحجرة حين بدأ هؤلاء المجرمون في ضرب القنصلين؟

- لا يا سيدي، كنت خارج الباب أحاول منعهم من الدخول.

- هل رأيت من قاموا بذلك؟

- لا يا سيدي.

- حسنًا، إذًا يمكنك النزول عن منصة الشهود.

عندما جلس العقيد "سليم" على مقعده، طلب "فاهان أفندي" من الملازم "أحمد" الوقوف على المنصة.

- هلا أخبرتنا بالأحداث كما شهدتها أنت يا "أحمد أفندي".

- سيدي، وصلت إلى المسجد يوم الجمعة في الواحدة بعد الظهر مع "علاي بك"، قائد الشرطة السابق، ورقيب من سلاح الفرسان، فوجدت أعضاء المجلس مجتمعين في غرفة الكاتب على يسار فناء المسجد. دخل "علاي بك" الحجرة بعدما أمرني بحراسة الباب ومنع دخول أي شخص. عندما نظرت داخل الحجرة قبل إغلاق الباب رأيت "أمين أفندي"، و"محمد باشا"، و"عثمان باشا"، وعدد من النوَّاب الآخرين لا يمكنني تذكر أسمائهم. وصل "حسني بك" والقنصلان بعد ذلك، وغادر "علاي بك" بعد دخولهم الحجرة. ثم أرسل "الوالي" يطلبه في مبنى الحكومة، قبل أن يعودا معًا بعد فترة. كتب القنصلان خطابًا، لم أر ما كتب، لكني رأيته في يد "علاي بك"، في أثناء مغادرته برفقة "حسني بك".

- إذًا هل كان الخطاب في حوزة "علاي بك"؟

- أجل يا سيدي.

- شكرًا لك، يمكنك المواصلة.

- بعد خمسة وأربعين دقيقة، بدأ الحشد في الصياح. ميزت من بينهم "بوزكو"، و"بوشناق إبراهيم"، و"شركس يافير".

- من يكون "بوزكو"؟

- لا أعرف اسمه الحقيقي، كل ما أعرفه هو أنهم ينادونه بـ"بوزكو". دفعته هو و"بوشناق إبراهيم"، و"شركس يافير" إلى الوراء، عندما حاولوا الصعود إلى عتبة الباب، لكنه تسلق إلى السقف وتمكن من الدخول. نعم، كان أولهم. كسر "بوزكو" الزجاج وصاح في الحشد كي يتبعوه. وبذلت أنا والنقيب "علي أغا" كل الجهد لإيقافهم، لكنهم كانوا يفوقوننا قوة وعددًا. كان "شركس يافير" يقودهم. لقد فعلت كل ما في وسعي لحراسة الباب مع "علي أغا". خلع "بوزكو" القضبان الحديدية من النافذة واحتفظ بواحد طويل في يده. التقط كل من "إبراهيم صادق"، و"حسني أفندي" قضبانًا حديديًا ودخلوا الغرفة. تبعتهم إلى الداخل مع "علي أغا" وعدد من رجال الشرطة. اقتحم بعض المجرمين المسلحين بالقضبان الحديدية، والعصي، والسكاكين الحجرة بعد دخولنا. بذلت أنا و"علاي بك"، و"علي أغا" ما في وسعنا لردهم ومنع الكارثة لكننا عجزنا عن ذلك. حاولنا حماية القنصلين، وقدمنا أنفسنا دروعًا بشرية لهما، لكنهم ضربوهما من فوق رؤوسنا وأكتافنا. كان الوالي متواجدًا معنا أيضًا، صاح في الحشد ليتوقفوا عن الاعتداء عليهما. أحاط "علي أغا" أحد القنصلين بذراعيه لحمايته، لكن الحشد واصل الاعتداء عليهما. وصل الرائد مع عدد من رجال الشرطة لمساعدتنا في تفريق الحشد. كان "إبراهيم صادق"، و"حسني أفندي" أول المعتدين على القنصل الذي كنت أحاول حمايته أنا و"علي أغا". كما كان هناك شابًا طويلًا، أظنه يدعى "سليمان التتري". سقط

القنصل أرضًا، وكذلك سقط "علي أغا"، ممسكًا بظهره يصرخ من الألم. طلبنا ماء من أجل القنصلين لكن لم يناولنا أحد شيئًا. طلب الوالي و"علاي بك" بعض المياه لكن القنصلين كانا قد لقيا حتفهما بالفعل، ورغم ذلك واصل هؤلاء الحثالة ضربهما.

حينئذ قال "فاهان أفندي":

- يكفي هذا أيها الملازم "أحمد"، ولتجب على أسئلتي الآن.

- أجل يا سيدي.

- هل ذهب الوالي إلى هناك من تلقاء نفسه، أم أن النوَّاب أرسلوا يطلبونه؟

- لا أعرف. لا أملك جوابًا. لكن القنصلين سبقا الوالي في الوصول، حيث قدما برفقة "حسني أفندي"، ولم يكن معهما شخصًا آخر.

- هل تعرف سبب مجيء القنصلين إلى المسجد؟

- لا، لا أعرف يا سيدي.

- هل كانا مسلحين؟

- لا يا سيدي، لم يملك أحد سيفًا سوى "علاي بك" والضبَّاط. رأينا الحشد يتجمع في الخارج وسمعنا أنهم مسلحون. كان سبب مجيئنا إلى المسجد في المقام الأول هو محاولة حل الأزمة.

صمت الملازم "أحمد" بعض الوقت للتفكير، فأمره "فاهان أفندي" القاضي بمواصلة الحكي.

- عندما بدأ الحشد في خلع قضبان النافذة هرب جميع النواب...

- أكمل، ماذا حدث بعد ذلك؟

- حاول أحدهم إصابة الوالي باستخدام كرسي.

في تلك اللحظة رفع القنصل "بلانت" يده قائلًا:

- هل يمكنني طرح سؤال على الشاهد، يا جناب القاضي؟

- تفضل يا سيد "بلانت".

- ما دمت كنت تملك سيفًا، لماذا لم تستخدمه لحماية القنصلين؟

- نعم كنت أملك سيفًا، لكني لم أتلق أي أوامر باستخدام السلاح في حماية القنصلين.

قال السيد "بلانت":

- ليس لدي أسئلة أخرى، يا جناب القاضي.

قال "فاهان أفندي" مخاطبًا الملازم "أحمد":

- يمكنك مغادرة المنصة الآن.

جاء بعد ذلك دور النقيب "علي أغا" لسرد شهادته على الحادثة، التي جاءت موافقة لما قاله الآخرون. كان الاختلاف الوحيد هو تحديده "قماركشي بوشناق" قائدًا لهذه الفتنة، وأن أول من عبر النافذة كان "أراب كافيت" مولى "عبد الـلـه بك".

مع انتهاء النقيب "علي أغا" من سرد شهادته، أعلن "فاهان أفندي" عن فترة استراحة للمداولة مدتها نصف ساعة.

* * *

مع عودة المحكمة إلى الانعقاد بدأت في سؤال المسجونين. فنادى "فاهان أفندي" بصوته الجهوري:

- "شركس يافير"، قف!

- ...

- ما مهنتك؟

- خبَّاز يا سيدي.

- ما الذي دفعك إلى المشاركة في هذه الواقعة؟

- لم أفعل شيئًا يا سيدي. أنا بريء.

- لقد سمعت الشهود. شهد الملازم "أحمد" بأنك كنت تقود هذا الحشد. وذكر آخرون قيامك بالاعتداء على القنصلين.

- إنهم مخطئون يا سيدي، لم يصدر مني أي اعتداء.

- هل تقصد اتهام أحد الضباط الشرفاء لهذه الدولة العظيمة بالكذب؟ يا لجرأتك! هل لديك شيء آخر تود قوله؟

- أنا بريء. أضع نفسي تحت رحمة العدالة. وباسم أطفالي الصغار أتوسل إلى المحكمة طلبًا للبراءة.

- يكفي ذلك، اجلس.

- "أراب كافيت"، قف!

- ...

- ما مهنتك؟

- أنا حمَّال.

- بعد سماعك الاتهامات الموجهة إليك، هل لديك ما تقوله؟

- أنا بريء يا سيدي.

- يا ربي! الجميع يدَّعون البراءة. قال الشهود إنهم رأوك تضرب القنصلين. ما ردك؟

- صحيح يا سيدي، كنت حاضرًا في الغرفة عند مقتل القنصلين، وصحيح أني اعتديت على أحدهما بكرسي، لكني لم أقصد قتله.

- إذا تقول إنك ضربته دون أن تنوي قتله، لكن من الواضح أنك قتلته بالفعل.

- ...

- يكفي ذلك، يمكنك مغادرة المنصة.

- "أوزون سليمان".

- نعم يا سيدي.

لم يقف "سليمان"، بل أجاب النداء من مجلسه، مما ضايق "فاهان أفندي".

- لماذا لا تقف أولًا لنرى طولك؟

سرت ضحكات مكبوتة بين الحاضرين، فقال محذرًا:

- سكوت! وإلا أمرت بإخلاء القاعة.

ثم التفت إلى الشاهد.

- ما هي وظيفتك يا "سليمان"؟ يقول الملف إنك جزَّار، هل هذا صحيح؟

- صحيح يا سيدي، أنا أعمل في المذبح، أقصد أني كنت أعمل فيه حتى ذلك اليوم المشؤوم.

- سمعت شهادة الشهود. يقولون إنك كنت من بين قتلة القنصلين.

- كنت في المسجد بالفعل، لكني لم أعتدِ عليهما.

- هل أنت تتري؟

- أجل يا سيدي.

- سمعت معنا شهادة الملازم "أحمد"، ألست "سليمان التتري" الذي أشار إليه؟

- ...

- قف من فضلك أيها الملازم "أحمد".

- .....

- أهذا هو الرجل الذي اعتدى على القنصل؟

- أجل يا سيدي.

- هل سمعت ذلك يا "سليمان"؟ لقد هاجمت القنصل، لكنك تنكر ذلك. يكفي هذا. اجلس، اجلس!

وبعد انتهاء "فاهان أفندي" من استجواب كل المتهمين نادى على "أمين أفندي"، الذي تعمَّد تركه إلى النهاية حتى يتمكن من استعمال شيء من الرأفة واللين معه. كان "أمين أفندي" – رغم كل شيء – عضوا بارزًا في مجلس المدينة.

- قف، من فضلك يا "أمين أفندي".

- ...

- هلا أخبرتنا عن علاقتك بالفتاة البلغارية؟

- لكني لا أعرفها، يا حضرة القاضي.

- لكنهم يقولون إنك تزور قريتها كثيرًا، وقد شوهدت هناك أكثر من مرة.

- أنا أجهل حتى اسم قريتها.

- قرية "بوجدانتسي" في مقاطعة "أهريسيزار".

- لم أذهب إلى هذه القرية قط يا جناب القاضي.

- لكنكما كنتما في القطار ذاته.

- لم أكن أعرف ذلك يا جناب القاضي.

- ألم تستقل القطار في عيد القديس جورج؟

- لقد ركبت القطار مع "مصطفى بك"، و"طيفور أغا"، ومأمور "سكوبيه".

- أنت لم تجب على سؤالي حتى الآن!

- إنه أحد أعياد الكفار.

سأله "فاهان أفندي" وهو يشير إلى "ستيفانا":

- هل رأيت هذه الفتاة البلغارية في القطار؟

- لا، يا جناب القاضي.

- حسنًا، ماذا عن محطة القطار عند وصولك إلى "سالونيكا"؟ هل رأيت واقعة تمزيق حجاب الفتاة وإلقاؤه أرضًا؟

- لا، لم ألحظ أي اضطراب عند وصولي إلى "سالونيكا"، ولا رأيت حجابها يمزق ويلقى على الأرض.

كان كذب "أمين أفندي" مفضوحًا، ولم ير "فاهان أفندي" فائدة من الاستمرار في هذا الاستجواب.

- من الواضح أنك تنكر معرفتك بالفتاة، إذًا... يمكنك معاودة الجلوس.

لم تكن تلك الشهادة مرضية لـ"فاهان أفندي"، رغم تساهله مع "أمين أفندي". فنادى على "روشين" – المرأة السوداء التي رافقت "ستيفانا" إلى "سالونيكا" – من أجل استيضاح الأمر.

- هلا عرفتينا بنفسك؟

- "روشين".

- من أين أنت؟

- من "بوليكاسترو".

- هل تعرفين الفتاة البلغارية؟ هل رافقتيها إلى "سالونيكا"؟

- كنت أخطط لزيارة "سالونيكا" في عيد القديس جورج. ذهبت يومها إلى المحطة، قطعت التذكرة وصعدت إلى القطار. وكذلك فعلت الفتاة قبل أن تجلس معي في العربة نفسها. ثم غادرت القطار بعد وصوله إلى "سالونيكا" وكذلك فعلت أيضًا.

- من عرفك بالفتاة عند استقلالك القطار في "بوليكاسترو"؟

- لم يقم أحد بذلك. كانت برفقة "خوجا" لم أره من قبل.

- كيف عرفت أنه "خوجا"؟

- لأن الفتاة أخبرتني عند صعودها إلى القطار أنها في طريقها إلى "سالونيكا" مع "خوجا" لتوثيق إسلامها.

- ماذا حدث عند وصولكم إلى "سالونيكا"؟

- غادرت القطار قبلي، إلا أنها انتظرت حتى لحقت بها وتبعتني. ثم أخذ بعض الناس في مهاجمتي، لكن الشرطة تدخلت لإنقاذي.

طلب "فاهان أفندي" من "ستيفانا" الوقوف، فاستجابت لطلبه مرتعشة. ثم أشار إلى "ستيفانا" وسأل "روشين" إن كانت تربطهما معرفة قديمة، فنفت ذلك.

- أكانت رحلة القطار أول لقاء لكما؟

- نعم، كانت هذه أول مرة أراها.

- هل تعيشان في القرية نفسها؟

- لا، إنها من قرية أخرى.

- هل كان في العربة أي شخص آخر؟

- لا.

- ماذا عن أم الفتاة؟

- كانت في عربة أخرى.

- وماذا فعلت الأم بعد الوصول إلى "سالونيكا"؟

- جذبتها من ذراعها، لكن بدأت مجموعة من الناس في مهاجمتها فجأة، وقبضوا على الفتاة وأمها وأودعوا كل واحدة في عربة تجرها خيل، وحملوهما بعيدًا.

سمح "فاهان أفندي" لـ"ستيفانا" بالجلوس، وواصل استجواب "روشين". فسأل مشيرًا إلى "أمين أفندي":

- هل ترين هذا الرجل الذي يرتدي نظارة وطربوش؟ هل تذكرين رؤيته في محطة القطار؟

- لا أتذكر ذلك، أقسم لكم. فلم أكن مهتمة بالوجوه المحيطة بي.

طلب "فاهان أفندي" من "ستيفانا" الوقوف ثانية، بعد انتهائه من استجواب "روشين".

- ما اسمك؟

- اسمي "عائشة".

- "عائشة"؟ لكن هذه الأوراق تقول إن اسمك "ستيفانا".

- "عائشة" هو اسمي الوحيد.

- حسنًا، وما اسم والدك؟

- "ستيلو".

- أهو على علم بهذه الوقائع؟

- لقد توفي والدي منذ أربع أو خمس سنوات.

- آاه! وما اسم أمك؟

- اسمها الحقيقي "ماريا"، لكن الجميع ينادونها بـ"ماتو".

- هل لديك أي أخوة؟

- نعم، لدي شقيقين.

- من أين أنت؟

- من "بوجدانتسي".

- متى صعدتِ إلى القطار؟

- لا أعرف بالتحديد.

- هل تعيشين مع عائلتك في القرية؟

- لا، أنا أعيش في منزل الـ"خوجا".

- منذ متى تعيشين هناك؟

- في الواقع، لم أترك بيت عائلتي إلا منذ فترة قصيرة. قررت اعتناق الإسلام بعد وفاة والدي، وربطتني علاقة قوية بالمسلمين طوال الأربع سنوات الأخيرة. ذهبت إلى منزل الـ"خوجا" قبل يوم من سفري إلى "سالونيكا" بدون علم والدتي، وأخبرته برغبتي في اعتناق الإسلام. ثم تلوت الشهادة وأصبحت مسلمة.

لم يصدق "فاهان أفندي" ما سمعه، لكنه واصل الأسئلة.

- هل رأيت "أمين أفندي" هناك؟

ترددت "ستيفانا"، وتذكرت المقابلة التي جمعتها بمحامي "أمين أفندي"، وكلمات "باسم بك" المستشار: "إذا كنت ترغبين في العيش مع حبيبك، فعليك إنكار معرفتك بـ"أمين أفندي" أو رؤيته تمامًا أمام القاضي". فنظرت "ستيفانا" إلى "أمين أفندي"، وقالت:

- لا.

- إذًا متى كان أول لقاء بينكما؟

- إنها المرة الأولى التي يقع فيها بصري عليه.

- ألم تربطكما أي معرفة سابقة؟

- لا، لم يحدث قط.

- هذا ما تقولينه، لكنه كان مكثرًا من زيارة قريتك، فأين كان يقيم هناك؟

- من أين لي معرفة ذلك؟ إذا نزل قريتنا فلا بد أنه كان يقيم مع أحد السكَّان المسلمين.

- هل التقيت به في القرية من قبل؟

عاودت "ستيفانا" النظر إلى "أمين أفندي" وقالت:

- لا، لم يحدث قط.

- هل تقع "بوجدانتسي" على مقربة من "بوليكاسترو"؟

- إنها على مسيرة ست ساعات.

- وهل مشيتِ الست ساعات؟

- نعم، لقد مشيتها. وصلت إلى "بوليكاسترو" في الواحدة صباحًا تقريبًا. لكني قصدت "جيفجليا" أولًا، فلم أجد قطارًا. وقالت بعض النساء إن القطار لن يأتي، وشرعن في السير إلى "بوليكاسترو"، فسرت معهن.

- من أين حصلت على ثمن التذكرة؟

- من الـ"خوجا"، فلديه منزل في "جيفجليا"، وهناك أعطاني النقود.

- هل كانت توجد امرأة تركية أخرى في "جيفجليا"؟

- لا.

أشار "فاهان أفندي" إلى "روشين" وسأل:

- ماذا عن هذه المرأة؟

- رأيتها في "بوليكاسترو".

- ومتى رأيت والدتك؟

- من الواضح أنها ركبت القطار في "جيفجليا"، لكني صعدت في محطة "بوليكاسترو"، ولم أرها إلا عندما انتقلت إلى عربتنا. حينئذ سألتني إذا كانت هذه المرأة مرسلة لمرافقتي، فلم أجب. وغادرنا القطار في "سالونيكا". لكن رجلًا من الكفَّار هاجمني في رصيف المحطة وأخذ يدفعني، كان نفس الرجل الذي تعامل معي بوقاحة في القطار من قبل. أخذ يسألني عن اعتناقي الإسلام، ومزق كافر آخر حجابي وألقاه على الأرض، وفي تلك اللحظة وصلت الشرطة.

- هل يمكنك التعرف على الرجل الذي مزق حجابك عند رؤيته؟

- سأميزه بلا شك. ثم قام رجلان بسحبي بعيدًا عن المهاجمين، كان لكل منهما شارب، لكن أحدهما كان أكبر سنًا من الآخر. دفعاني إلى عربة يجرها

حصان، ووجدت هناك امرأة تبلغ حوالي الخمسين من عمرها ومعها طفلين، اصطحبوني حتى منزل القنصل، ثم أخذا في إهانتي لاعتناقي الإسلام.

- في أي أجزاء القنصلية كانوا يحتفظون بك؟

- أدخلوني مع أمي إلى حجرة ما، ولم أتحدث إليها قط خلال تواجدنا هناك. ثم أحضروا قسيسًا للجلوس معنا، لم أتحدث إليه أيضًا.

- ذكرت قضائك الكثير من الوقت مع المسلمين خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، لكن هل دخلت مسجدًا من قبل؟

- لا، إنها قرية كفَّار، لذا لا توجد بها مساجد.

- لماذا أتيت إلى "سالونيكا"؟

- لاعتناق الإسلام.

- ألم تذكري قبل دقيقة واحدة أنك أسلمت في قريتك؟

- لا أدري، لقد أخبروني بوجوب استلام شهادة تفيد ذلك من القاضي.

- من أخبرك بذلك؟

- الـ"خوجا".

- أي "خوجا"؟

- "محمد خوجا".

- كم تبلغين من العمر؟

- خمس عشرة سنة.

- هذا يكفي، يمكنك الجلوس الآن.

طلب "فاهان أفندي" من "ماتو" الوقوف.

- ما اسمك؟

- "ماتو".

- كم لديك من الأبناء؟

- ولدان وبنت واحدة.

- ما عمر ابنتك؟

- أربع عشرة سنة.

- ما اسمها؟

- "ستيفانا".

- متى هربت ابنتك يا "ماتو"؟

- يوم الأربعاء، في الساعة التاسعة تقريبًا... لقد خطفوا ابنتي من منزلنا في أثناء غيابي.

- من فعل ذلك؟

- سمعت أن "حسين"، و"جلال"، و"الشاويش صالح"، و"إسماعيل أغا"، و"عمر أغا"، وابنه "هليل إسماعيل" هم من فعلوا ذلك.

- وإلى أين أخذوها؟

- أخذوها في البداية إلى الغابة، ثم إلى منزل "الشاويش صالح".

- هل قضت الليلة هناك بعد اختطافها.

- نعم، كانت في منزل "الشاويش صالح".

- إلى أين ذهبوا بعدئذ؟

- ذهبوا إلى "بوليكاسترو" عن طريق "مايداج" و"قراصينيان" بعد أن ألبسوها ثياب الرجال وعلقوا على كتفها بندقية. لا أعرف أين قضوا الليلة، لكني عثرت عليهم في "بوليكاسترو".

- تتحدث ابنتك التركية جيدًا، أين تعلمت ذلك؟

- من نساء القرية المسلمات.

- هل تسري الألفة بين المسلمين والمسيحيين في قريتك؟

- نعم، إن العلاقات بيننا جيدة جدًا.

- هل سافرت مع ابنتك في العربة نفسها إلى "سالونيكا"؟

- أجل، وكانت هناك امرأة سوداء أيضًا.

- هل تحدثت مع ابنتك في القطار؟

- نعم، وأخبرتني باختطافهم إياها.

- هل قالت ذلك حقًا؟

- أجل، قالت إنهم اختطفوها بالقوة.

- من خلع حجابها؟

- فعلت ابنتي ذلك بنفسها، وأخذت تصيح بأعلى صوت.

أشار "فاهان أفندي" إلى "أمين أفندي".

- هل رأيت هذا الرجل الطويل الذي يرتدي النظارة عند وصولك إلى "سالونيكا"؟

- لا، لم أره، لكن ابنتي ذكرت أنه عضو في مجلس المدينة.

- هل رأيتيه في القطار؟

- لا.

- حسنًا، هل رأيتيه في قريتك؟

- لا، لم أره قط هناك.

- هل أخبرتك ابنتك أنها ستتزوجه؟

- لا، سمعت ما يشبه ذلك في القرية بعد اختطافها لكني لم أصدقه.

- ماذا سمعت؟

- سمعت أن الـ"خوجا" زوجهما.

- هل استفسرت منها عن ذلك؟

- نعم، ونفته تمامًا.

- كم من الأعوام مضت على وفاة زوجك؟

تجمدت "ماتو" دقيقة ونظرت بعيدًا.

- سألتك عن سنة وفاة زوجك يا سيدتي، هل سمعت السؤال؟

أجابت "ماتو" بعد تكرار "فاهان أفندي" سؤاله بشيء من الصرامة.

- خمسة أو ستة أعوام.

- متى تزوجتما؟

- منذ فترة طويلة.. لا أستطيع التذكر.

- انتهينا، يمكنك الجلوس.

استغرقت الجلسة بقية اليوم، وتضمنت تناقضات رهيبة بين الشهادات. قبل رفع الجلسة، راجع "فاهان أفندي" نصوص إفادات الشهود الذين التقى بهم من قبل في "بوجدانتسي"؛ "ديلهيو"، و"توكو"، و"إسماعيل"، و"مختار أحمد"، وأعضاء مجلس شيوخ القرية؛ "فيض الـلـه أغا" و"عثمان أغا" و"تراجيو"، إضافة إلى شهادة "الأب تورجيون" قسيس القرية، و"الشاويش صالح"، و"إسماعيل أغا"، و"عمر أغا".

شعر "فاهان أفندي" بالحيرة بعد قراءة تلك الشهادات، وعلم أن تلك الحيرة ستزداد مع استمرار المحاكمة. وأعلن فجأة عن استراحة قدرها ساعتين.

خلال هذه الفترة قام المحكمون بمناقشة القضية معًا.

قال "فاهان أفندي":

- إن الشهادات مليئة بالتناقضات، مما يجعل الوصول إلى حكم عادل أمرًا عسيرًا. والحقيقة أني أفكر في إرجاء الجلسة إلى الغد.

لكن السيد "هاوفمان" المبعوث الألماني رفع حاجبيه قائلًا:

- السيد "فاهان"، إن حكومتنا تتوقع قيام هذه المحكمة بمعاقبة الجناة دون أدنى تأخير. ألا تلحظ نفاد صبر مبعوثي الأمم الأخرى هم أيضًا؟ علينا شنق بعض الجناة لتخفيف هذا الاحتقان.

ثم قرأ "فاهان أفندي" أسماء المتهمين وسأل أعضاء المحكمة عن قرارهم.

انعقدت المحكمة ثانية بعد مرور الساعتين، وكان "فاهان أفندي" آخر العائدين إلى القاعة. بعد الجلوس، أعلن عن أحكام بإعدام "شركس يافير"، و"عرب ميركان"، و"حسين أفندي"، و"بوشناق إبراهيم"، و"شاكر"، و"سليمان الطويل"، و"عربي صالح أغا"، و"بزقو ميتو"، و"برنجالي حاج إبراهيم"، و"السيد محمد النجَّار"، والحاج "أمين الشاويش"، و"باسم أفندي". ثم أتبع ذلك بالأحكام على ثلاثة وعشرين متهمًا آخرين، بما فيهم "أمين أفندي"، وفتى في الحادية عشرة يدعى "صالح" سرق ساعة القنصل الألماني.

وقف "أمين أفندي" حينما بدأ القاضي في قراءة الحكم الخاص به. ورغم إنكاره أي علاقة تجمعه بـ"ستيفانا"، ونفيه كل صلة تربطه بهذه الأحداث، فقد حكم عليه بثلاث سنوات من النفي في طرابلس. شعر "أمين أفندي" بصدمة عند سماعه ذلك، فها هو يدفع ثلاث سنوات في المنفى في صحراء إفريقيا ثمنًا لتخليه عن "ستيفانا" وتفضيله سمعته السياسية والعملية عليها.

* * *

عقب ظهيرة يوم الثلاثاء الموافق السادس عشر من مايو، سيطرت حالة من النشاط المحموم على الساحة التي ستشهد شنق اثني عشر شخصًا من المحكوم

عليهم بالإعدام. كانت الساحة – المحروسة بكتيبة من المشاة – محاطة من جوانبها الثلاثة بأسوار عالية، بينما البحر يحدها من الناحية الرابعة. كما وُزعت وحدات مشاة وخيَّالة إضافية على الجانبين. وصلت مجموعة من العمَّال اليهود في الخامسة صباحًا تقريبًا لحفر الخنادق وتشييد المشانق، وبعد الانتهاء من ذلك بدأ الجلادون الغجر والألبان – الذين أختيروا لهذه المهمة – في عقد المشانق، في الوقت نفسه الذي يجري فيه الكشف الطبي على المدانين داخل السفينة "السليمية"، حيث جرت المحاكمة وأعلنت أحكام الإعدام. ثم جرى اقتياد المدانين إلى البر تحت حراسة مشددة.

نُزعت أغلالهم في الميدان، وقُدِّم الماء إليهم للوضوء، ثم قيدت أيديهم. نزل المدانون على ركبهم أمام إمام السفينة للصلاة، وأنشد الإمام: "إن اللـه غفور رحيم، عسى أن يتقبل صلاتكم ويغفر لكم".

أنهى الجلادون آخر استعداداتهم. كان "عربي ميركان" أول من سينفذ فيه حكم الإعدام، لكنه رفض السماح للجلاد الألباني بتنفيذ مهمته، بل صعد إلى منصة الإعدام بنفسه وهناك وقف على الكرسي الذي تم استعارته من المقهى، ووضع الحبل حول رقبته، ثم ركل الكرسي وشنق نفسه. كذلك كان الباقون مستعدين للموت، ولقد ساعدوا الجلادين - بطريقة أو بأخرى - على أداء مهمتم.

لم يكن موتهم سريعًا، فمع ضغط المشنقة على الرقاب أخذت الأجساد تتشنج وتنتفض فترة من الزمن، ومن يدري فلعلهم لعنوا حينها الأقدار التي ساقتهم إلى هذه النهاية المخزية.

تجمَّع عند الشاطيء لمشاهدة الإعدامات كل من "أشرف باشا" الوالي، و"فاهان أفندي"، والقناصل الأجانب في "سالونيكا"، وسفيري ألمانيا وفرنسا.

ومع إشارة عقارب الساعة إلى الخامسة مساءً، كان كل من "شركس يافار"، و"عربي ميركان"، و"حسني أفندي"، و"بوشناق إبراهيم"، و"كابكينلي شاكر الأحمر"، و"سليمان الطويل" قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

كان من قبيل المصادفة أن شهد الكاتب الفرنسي "بيير لوتي" الأحداث من على سطح سفينة في ميناء "سالونيكا"، وصدمه انخفاض المشانق غير المعهود لتوفير تكلفة الأخشاب – وهو جزء من السياسة المالية العثمانية – بشكل كادت معه أقدام المدانين أن تمس الأرض.

وخلال تنفيذ الأحكام، لم يستطع الكاتب الفرنسي منع نفسه من المقارنة بين هذا المشهد المفزع وسحر الغروب في "سالونيكا".

مالطا – ١٠ فبراير ١٩٢١

مل "تحسين بك" من الاستماع إلى قصص الأصدقاء المكررة صباحًا ومساءً، فقرر تدوين مذكراته بدءًا من ميلاده في "سالونيكا" حتى نفيه إلى مالطا، مفتتحًا إياها بإهداء إلى ابنه "صلاح الدين" البالغ من العمر حينئذ سبع سنوات.

"يا بني،

أرغب – قبل أي شيء – في إخبارك عن أصل جدك وجدتك، إضافة إلى تاريخي الشخصي بالطبع. كان جدك "إبراهيم كدخدا" من سلالة "إسكندر بك".

كان والده "يحيى كدخدا" من قرية "سيرين" في حي "رادومير" بقرية "بريزيرن"، وهو رجل شجاع، وتقي، وكريم، من خيار طبقة النبلاء، عاش حياته كلها في "رادومير"، وهناك ربى الماشية في مزارعه التي كانت تغطي مساحات شاسعة من الأرض.

سُمي والدي "إبراهيم" تيمنًا باسم جده. كان يبلغ طوله مترًا وتسعين سنتيمترًا، عريض المنكبين، أشقر الشعر، نقي البشرة، له عيون زرقاء مبهرة؛

كان رجلًا تقيًا متأنقًا دومًا. أصيب بالتهاب رئوي عام ١٨٨٣ وأسلم الروح في غضون أسبوع، كنت حينها في السادسة من عمري".

توقف "تحسين بك" عن الكتابة فترة يسيرة، ونظر إلى الأعلى يسترجع ذكرياته مع والده، إلا أن ذاكرته لم تكن تحوي إلا القليل من هذه الذكريات، بسبب فقده الوالد في هذا العمر المبكر. كانت معظم معلوماته عن والده مستقاة من أحاديث الآخرين التي سمعها بعد الوفاة بأعوام.

حينئذ دخل الحجرة "كارا واصف"، الذي توطدت علاقته بـ"تحسين بك" منذ وصولهما معًا إلى مالطا.

- ما الأمر يا "تحسين بك"؟ كلما وقع بصري عليك وجدت منشغلًا بتدوين شيء ما.

نظر "تحسين بك" إليه قائلًا:

- أوه، إنها مجرد مذكرات.

- لقد قدمت لرؤيتك ليلة الأمس لكني عدلت عن ذلك لما رأيتك غارقًا في الكتابة.

- ما الأمر؟ هل هناك ما تود قوله؟

- قضينا الليالي القليلة الأخيرة في حجرة "شكري بك"، حيث خضنا نقاشات رائعة كدنا ننسى معها السجن والمنفى. جئت لأعرض عليك الانضمام إلينا.

- شكرًا لك، لكني ما كنت لأتمكن من الانضمام إليكم، خاصة ليلة أمس. تمكنت بالأمس – بعد مشقة – من إقناع أحد الحرَّاس الإنجليز بمساعدتي في العثور على مفكرة كبيرة وقلم جاف. اضطررت إلى دفع بعض النقود بالطبع،

كلفني ذلك جنيهين. وبدأت مساء الأمس في كتابة مذكراتي التي أطمع في إعطائها إلى ابني "صلاح الدين" يومًا ما. أريدهم أن يعرفوا ما خاضه أبوهم خلال حياته.

- وأنا كذلك، أرغب في كتابة مذكراتي، لكني لا أعرف من أين أبدأ.

أجابه "تحسين بك":

- يمكنك البدء بالحصول على مفكرة وقلم جاف.

وضحك الرجلان.

- لكن إذا نحينا المزاح جانبًا يا "واصف بك" فستجد أني بدأت بتاريخ الأسرة...

- أجل، دعك من المزاح، قضينا معًا فترة من الزمن ولم يخطر على بالي السؤال عن جذورك، من أين أنت؟

أجابه "تحسين بك":

- ولدت في "سالونيكا" في ٢٩ أغسطس ١٨٨٧، لكن والدي وجدي كانا من قرية "سيرين" في "رادومير". لا أملك معلومات أكثر دقة عن المنطقة نفسها، فقد توفي أبي وأنا في عمر مبكر ولم أحظ بفرصة لسؤاله عنها.

- إذًا فأسلافك هم أتراك الأناضول الذين استقروا في البلقان عقب الفتوحات العثمانية؟

- هذا ما أعتقده، وإن كنت أعجز عن الإثبات.

- لم تقول ذلك؟

- ممم، هناك بعض التفاصيل التي لم أتأكد منها. إلا أني قضيت بعض الوقت في تتبع تاريخ العائلة خلال دراستي للعلوم السياسية في المدرسة العليا للعلوم الإدارية. وفي أثناء ولايتي على "فان"، قابلت عالم لاهوت يُدعى "سعيد"، يملك مكتبة هائلة سمح لي باستخدامها، كما منحني بعض الكتب هدية وداع قبل مغادرتي "فان" لتسلم منصبي الجديد واليًا على "أرضروم". قمت ببعض الأبحاث هناك أيضًا، وإن كان ذلك قاصرًا على الأوقات التي لا أضطر فيها إلى القيام بالأمور المتعلقة بالمجتمع الأرمني.

- أتفهم مقصدك، وهو أمر يبدو لي ممتعًا جدًا، حتى أني لا أمانع في معرفة المزيد.

- تنص بعض المصادر على استقرار العائلة بـ"البلقان" في القرن الرابع عشر، لكن غيرها ترجئ ذلك إلى القرن الخامس عشر. حين بدأ اجتياح الجيش العثماني لصربيا في عصر السلطان "مراد الأول"، بعد معركة "ماريتسا" عام ١٣٧١. وقرأت أن "فوكاشين"، ملك صربيا، أُسِر في تلك المعركة، أمَّا أمير دولة الأفلاق فلاذ بالفرار، وكان تسلم أسرة حاكمة جديدة عرش صربيا أحد نتائج تلك المعركة. مهد ذلك النصر لانتقال العثمانيين إلى مقدونيا. استولى "كارا خليل خير الدين باشا" بعد المعركة على "كافالا"، و"ذراما"، و"زيني"، و"سيرس"، و"فيريا"، ثم أسكن السلطان "مراد الأول" بدو رُحَّل من أتراك "كارامان" في المناطق المحيطة بـ"سيرس"، كانوا يعرفون بـ"ساري كيشيليلير" أو عشيرة اللباد الأصفر بسبب انتشار اللباد الأصفر في ملابسهم.

- من الواضح أنك قمت ببحث جاد.

- لطالما كنت مهتمًا بذلك الموضوع. كذلك سمعت أن توقيت هذه الهجرة كان مبكرًا عن ذلك، بحيث يعود إلى عصر السلطان "محمد الفاتح". تقول بعض

المصادر إن السلطان بعد اجتياحه إمارة "قرمان" في الأناضول عام ١٤٦٦، عيَّن ابنه "جم سلطان" واليًا عليها، فقام الابن بإجبار السكان على الهجرة إلى "البلقان" ليحكم سيطرته على الولاية، ولعل ذلك سبب انتقال أسلافي إلى "البلقان" آنذاك.

- لقد أثرت إعجابي يا "تحسين بك". أنا أنسى معظم ما قرأته فور إغلاق الكتاب، أما أنت فمن الواضح أنك تتذكر كل شيء.

- ممم، لا أدري، لعله أمر اكتسبته من اهتمامي بذلك الموضوع.

أخرج "واصف بك" ساعة الجيب ونظر فيها، ثم قال:

- سررت حقًا بالحديث معك يا "تحسين بك"، لكني لا أريد تعطيلك أكثر من ذلك. من الأفضل أن أغادر الآن لأسمح لك بمواصلة الكتابة.

- لكن مهلًا! ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- تربط "فائق بك" بالبريطانيين علاقة جيدة. طلب من أحدهم التقاط صور لنا، فوافق على أن يكون ذلك بعد وجبة العشاء. أبلغت "شريف بك"، و"جلتالي شوكت بك"، و"كنان بك"، وجئت لإخبارك أنت الآخر. تعالَ إلى الفناء بعد العشاء لتشاركنا الصورة الجماعية.

- بالتأكيد، لم لا؟ سأكون قد فرغت من الكتابة عن أسلافي حينها.

ألقى "واصف بك" التحية وغادر، بينما واصل "تحسين بك" الكتابة.

"تُدعى أمي "خديجة"، وُلدت في "سالونيكا" وتُوفيت في منزل أختي "أمينة" بإسطنبول عام ١٩١٢ في سن الثانية والسبعين. كان والدها "محمود بك" القائد العسكري لقلعة "سالونيكا"، رجل مشهور بشجاعته وحسن ضيافته وكرم أخلاقه وتواضعه. كانوا يملكون قصرًا محاطًا بحديقة فوق التل المجاور لمسجد "ساعتلي".

فقدت والدتي أبويها في سن السابعة، وتولى شقيقها الأكبر "عبد الـلـه" تربيتها. كان تواجد خالي "سليمان" في مسجد "ساعتلي" ساعة مقتل القنصلين من قبيل الصدفة. ألقت الشرطة القبض عليه، لكنه تمكَّن من الهرب في لحظة غفلة منهم. واختبأ عامين في الجبال قبل هربه إلى قبرص".

تردد "تحسين بك"، فلم يكن واثقًا من أمانة ذاكرته في حفظ ما سمعه من أفراد عائلته قبل فترة طويلة. كانت قصة شنق عمه على أيدي البريطانيين هي ما أثار ارتباكه تحديدًا، تلك القصة التي سمعها في طفولته. فلقد تسلم بعد أعوام خطابًا من أحد الأقارب علم منه أن الأحداث لم تقع وفق ما سمعه من قبل.

في تلك اللحظة بالتحديد تجمد قلمه، ونظر في ساعته. إنه وقت العشاء. وضع "تحسين بك" قلمه، وأغلق مفكرته وتوجه إلى قاعة الطعام.

هناك أدرك مدى تأخره بعد أن وجد الجميع جالسين على موائدهم. لكن من حسن حظه أن الطعام لم يُقدَّم بعد. وجلس في مقعد شاغر بين "جمال باشا المرسيني" و"سعيد باشا".

- السلام عليكم أيها السادة.

هكذا ألقى "تحسين بك" التحية وجلس إلى المائدة.

- وعليكم السلام.

- معذرة على التأخير، فلقد بدأت كتابة مذكراتي ليلة أمس. نهضت مبكرًا هذا الصباح وواصلت الكتابة، من الواضح أني وجهت كل اهتمامي إلى ذلك حتى فقدت الإحساس بالزمن.

قال "سليمان نظيف بك" الجالس على يسار المقعد المقابل لـ"تحسين بك":

- لا عليك، فلقد وصلنا إلى هنا للتو.

رد "تحسين بك" مبتسمًا:

- إذًا فلا حاجة إلى القلق. صحيح، سمعت أنكم تقضون أوقاتًا ممتعة كل مساء. لماذا لم يدعني أحد للمشاركة؟

قالها مخاطبًا "شكري بك" ليثير غيظه.

- هذا غير صحيح يا "تحسين". لقد ذهب "واصف" ليلة أمس إلى حجرتك لدعوتك، لكنه خشي إزعاجك عندما وجدك منشغلًا بالكتابة.

- أعرف ذلك، كنت أمزح معك فقط.

- إذًا فضع مفكرتك الليلة جانبًا وانضم إلينا.

- بالطبع، سيكون ذلك شرفًا لي يا "شكري بك".

* * *

كان "تحسين بك" في هذا المساء أول طارق على باب حجرة "شكري بك"، وهناك وجد شركاء "شكري بك" في السكن؛ "فتحي" و"مدحت شكري"، ومع وصول "رؤوف بك" اشتبك الجميع في نقاش حاد، ثم جاء "علي إحسان باشا" حاملًا بطاقة بريدية.

- انظروا، لا بد أنهم نسوا مكاني، تسلمت بطاقة من "عثمان زاده أحمد حمدي بك"، عضو البرلمان عن "أرطغرل". اسمعوا ما يقوله.

"٢٠ يناير ١٩٢١

إلى "إحسان باشا"

جناب "إحسان باشا"،

يكن الأتراك تقديرًا كبيرًا لأبطالهم. هناك مئات الآلاف من الرجال الأتراك على أتم استعداد لاتباع خطواتك. إن التركي العظيم، بتاريخه العظيم، ينتظر عودتك في أقرب وقت.

أحمد حمدي".

كانت السعادة بذلك الإطراء واضحة على "علي إحسان باشا".

قال:

- إنهم لم ينسونا بعد.

تبادل الجميع النظرات في صمت، منزعجين من غرور "علي إحسان باشا". وكان هو من وضع نهاية لذلك الصمت بقوله:

- إذا لم يفرجوا عنا قريبًا فسنضطر إلى الهرب من هذه الجزيرة.

قال "تحسين بك":

- لعلك تجهل ذلك، لكننا تناقشنا في هذا الأمر عدة مرات واتفقنا على ضرورة توفر مساعدة خارجية لنجاح ذلك. إضافة إلى أهمية التوقيت. ألا تتفق معنا؟

كان ذلك الموضوع يثير تحفظ "رؤوف بك".

- لست مطمئنًا لذلك بعد. فلا أظن خداع هؤلاء الجنود البريطانيين أمرًا سهلًا.

- لا تهوِّل من شأن البريطانيين. ليسوا بالبراعة التي تتخيلها، ولا هم حتى بنصف ذكائنا. أرى الهرب ممكنًا إذا تمكنا من رسم خطة جيدة.

قال "رؤوف بك" معلنًا عن موقفه من فكرة الهرب بلا أي مواربة:

- حسنًا يا باشا، لكني لا أنوي الهرب مطلقًا، فسيطلقون سراحنا عاجلًا أم آجلًا.

- أنت مخطئ في ذلك يا "رؤوف بك"، إنهم ينوون احتجازنا هنا لسنوات.

في تلك اللحظة دخل "ضياء بك" الحجرة، فدفع شيء ما "علي إحسان باشا" إلى تغيير موضوع النقاش.

- ماذا كنت أقول؟ آه، نعم، إن الإنجليز ساذجون.

قالها، وتصنع الضحك. لكنه تضايق عندما لم يشاركه أحد الضحك.

- أتوقع أنكم لم تسمعوا بقصة إخفاء "أشرف سنسر بك" مسدسًا في حجرته، وإلا لشاركتموني الضحك.

لم يتفهم "رؤوف بك" سبب ذكر "علي إحسان باشا" واقعة "كوشكوباشي أشرف باشا".

- أي مسدس؟ وما علاقة هذا بموضوع حديثنا؟

- ستفهم الصلة عندما أخبرك بالقصة. حدث ذلك قبل إطلاق سراح "أشرف باشا" وعودته إلى تركيا. أخبروني بالقصة عند وصولي هنا، لكني لم أصدقها آنذاك، كان ذلك قبل سماعي إياها من أشخاص أثق في أمانتهم.

- أنا مندهش.

- وستزداد دهشة عند سماعها. سبقني "أشرف سنسر" إلى هنا، فقد كان واحدًا من الأربعين فردًا من القوات الخاصة العثمانية، أغلبهم من جامعة "غلطة سراي"، الذين واجهوا عشرين ألف من رجال "فيصل الأول" لمدة تخطت الخمس ساعات، خلال معركة "خيبر"، حيث تلقى "أشرف سنسر" إصابات خطيرة قبل سقوطه في أيدي البريطانيين. ثم قضى ثلاثة أشهر في سجن بمصر قبل نقله إلى هنا على متن سفينة حربية بريطانية. وبعد فترة اضطر البريطانيون تحت ظل اتفاقية بين الهلال الأحمر والصليب الأحمر إلى تعيينه ممثلًا عن السجناء الذين تتزايد أعدادهم يوميًا. ومُنح في المقابل مزايا إضافية، مثل شقة كبيرة بحجرة نوم ضخمة وحجرة معيشة منفصلة. كما حصل "أشرف سنسر" على سجَّاد فارسي، ومقاعد فاخرة، وكراسي، ومنضدة وكنبة في حجرة المعيشة، إضافة إلى سرير بأربعة أعمدة في حجرة النوم، وكرسي مريح في البلكون. في أحد الأيام، وهو ممدد على كرسيه المريح يقرأ، جاء العقيد "سترون" قائد المعسكر لزيارته. وبينما هو يقف بسرعة لتحية العقيد الذي زاره بغتة سقط مسدسه من جيبه الخلفي على الأرض محدثا صوتًا عاليًا. شعر العقيد بالخيانة ورمق "أشرف بك" بنظرة لوم

واستهجان، لكن الأخير انحنى لالتقاط المسدس كأن شيئًا لم يكن، وأودعه الحجرة الخلفية قبل إعداده قهوة العقيد. ولسبب ما، لم يطلب العقيد منه المسدس بل غادر بكل وداعة. فكر "أشرف سنسر بك" في الواقعة جيدًا بعد مغادرة العقيد، وأعد خطة محكمة. فأرسل سرًا في طلب مهندس ألماني من سجناء الجزيرة وعرض عليه المسدس، وسأله عن إمكانية صناعة نسخة خشبية طبق الأصل منه. فأجابه بالإيجاب، ووافق على تولي ذلك مقابل زجاجة ويسكي. أصبحت النسخة الخشبية من المسدس "البراوننج" جاهزة خلال أسبوع بكل تفاصيلها حتى الرقم المسلسل المحفور عليها، غير أنها تحوي ولاعة سجائر يتولى الزناد إشعالها. استغل "أشرف سنسر بك" أول فرصة لدعوة قائد المعسكر إلى شقته حيث قدم له سيجارة قبل التوجه إلى غرفته الخلفية والعودة بالنسخة الخشبية من المسدس. وبينما القائد ينظر إليه بحذر، ضغط "أشرف بك" الزناد وأشعل سيجارة القائد قبل أن يضع المسدس الخشبي على الطاولة، ليحمر وجه القائد خجلًا ويبدي اعتذاره عن ظنه السابق. هكذا استطاع "أشرف بك" الاحتفاظ بمسدسه.

وضحك ثانية بعد نهاية القصة، ليشاركه الجميع الضحك هذه المرة.

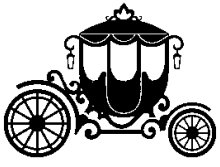

سالونيكا – ٢٠/١٧ مايو ١٨٧٦

عندما سمعت "ستيفانا" بالحكم على "أمين أفندي" بثلاث سنوات في المنفى، فقدت أي أمل في انضمامها إلى حريمه يومًا ما، وتلاشت أحلامها الوردية التي راودتها قبل سفرها إلى "سالونيكا". وحتى لو لم يحكم عليه بالنفي، فما كان لرجل في مثل ثراء ونفوذ وأنانية "أمين أفندي" أن يقلق راحته من أجل مجرد فتاة فقيرة، خاصة بعد كل ما وقع من أحداث.

عندما جيء بـ"ستيفانا" ووالدتها أمام الوالي "مصطفى أشرف باشا"، لم تكن تنتظر من "أمين أفندي" فعل شيء.

قال "أشرف باشا":

- تقدما، لا داع للخجل.

فدخلتا إلى المكتب بشيء من الحياء، وجلستا على حافة الكراسي المواجهة لمكتبه، بينما هو يراقبهما من طرف عينه. ما إن جلستا حتى تحدث في صلب الموضوع مباشرة موجهًا حديثه إلى "ماتو".

- ستصعدين مساء الغد مع ابنتك إلى القطار المتجه إلى "جيفجليا"، حيث سيتولى أحدهم استقبالكما ومرافقتكما إلى قريتكما.

شعرت "ستيفانا" بدقات قلبها تتوقف فور سماعها ذلك، فلم تكن تتوقع مغادرة "سالونيكا"، وأصابها ذلك القرار بالحيرة وشعرت بقلة الحيلة. ارتمت "ستيفانا" عند أقدام "أشرف باشا" ترجوه:

- أرجوك لا تعيدني إلى هناك يا باشا. لا يمكنني الرجوع إلى القرية بعد كل ما جرى.

تسبب رد فعلها في صدمة للوالي، فحاول طمأنتها:

- اهدئي، يا صغيرتي. لماذا لا يمكنك العودة؟

- إنهم لن يتركوني وشأني أبدًا يا باشا.

- عمن تتحدثين؟

- كفَّار القرية.

تسببت هذه الكلمة في صدمة أخرى للوالي، فكان وصف فتاة تحولت إلى الإسلام مؤخرًا للمسيحيين بالكفَّار أمرًا غريبًا.

رشمت "ماتو" الصليب، وخاطبت ابنتها:

- أرجوك يا ابنتي، باسم العذراء المقدسة، عودي إلى القرية معي. سأحميك؛ لن يستطيع أحد المساس بك.

لم تستجب "ستيفانا" لتوسلات أمها. وأشفق الوالي على المرأة قليلة الحيلة، لكنه لم يكن ينوي السماح لها بالتأثير على الفتاة.

- معذرة يا سيدة "ماتو"، فأنا أتحدث إلى ابنتك الآن.

- ...

- سأسألك للمرة الأخيرة يا "ستيفانا"، هل أنت متأكدة من رفضك العودة إلى القرية؟

- أجل، أنا متأكدة تمامًا. سيقتلونني إن عدت إليهم.

- هل سمعت ما قالته ابنتك الآن يا سيدة "ماتو"؟

- نعم سمعت، لكنها مجرد طفلة، هل ستتعامل مع كلامها بجدية أيها الوالي؟

- إن كانت حياة هذه الفتاة في خطر فلا شك أني سأتعامل معها بجدية. وأنصحك أنت الأخرى بذلك أيضًا.

والتفت إلى "ستيفانا".

- أتفهم مخاوفك، لا داع للقلق. نحن لن نجبرك على العودة إذا كنت ترفضين ذلك.

بهذا أعلن عن قراره النهائي.

لم يفارق العبوس وجه "ستيفانا" لحظة منذ دخلت مكتب الوالي، لكنها ابتسمت عند سماع ذلك. ثم أكثرت من شكر الوالي وأمسكت بيديه تقبلهما.

ذهلت "ماتو" وهزت رأسها، وهي تتمتم:

- فلتكن لعنة الـلـه عليكم أجمعين.

- ماذا تقولين يا سيدة "ماتو"؟

- ...

- يا سيدتي، إن واجبي يحتم علي حماية ابنتك. سأضمها إلى أسرة طيبة، وأعدك ألا يمسها أي سوء.

لم تكن تملك "ماتو" فعل شيء إلا تقبل الوضع. فوافقت وألقت نظرة أخيرة على ابنتها قبل أن تغادر المكتب دون أي وداع.

* * *

لم تقم بعد جنازة للقنصلين رغم مرور إثنا عشر يومًا على حادثة مقتلهما الوحشية. يرجع القسم الأكبر من ذلك إلى التشكك في قدرة السلطات المحلية على توفير التأمين الكافي. ورغم الجهد المرضي الذي بذلته السلطات للقبض على المتهمين، فقد قدم السيد "بلانت" تقريرًا نفى فيه امتلاك الحكومة العثمانية قوات كافية لردع أي أعمال شغب يحتمل اندلاعها، مما يجعل الجنازة مغامرة غير مأمونة العواقب. وبالرغم من تواصل "أشرف باشا" المستمر مع حكومة إسطنبول بخصوص تأمين الجنازة، فقد أصر "تيرتوف" الأميرلاي الروسي على ضرورة تقديم القوات الأوروبية المتواجدة في الميناء دعمًا من القوات الخاصة لحماية حضور الجنازة، لكن الحكومة العثمانية رفضت طلب الأميرلاي الروسي.

كان فشل الحكومة العثمانية في دفع التعويضات المقررة لأسر الضحايا عاملًا إضافيًا زاد الأمور تعقيدًا.

أخيرًا، اتُخذت في ١٩ مايو إجراءات عاجلة للجنازة. هبط إلى ميناء "سالونيكا" خمسة عشر جندي بحرية من السفن الحربية لكل من بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا، وأستراليا، وإيطاليا، واليونان، قبل السادسة صباحًا

لتشكيل الحرس الشرفي. كان في صحبتهم الأميرلاي الروسي والفرنسي، وقباطنة السفن الحربية. كان "فاهان أفندي" والوفود الفرنسية والألمانية قد تجمَّعوا بالفعل في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أجل جنازة "جول مولين" القنصل الفرنسي.

وقف حراس شرف من القوات البحرية الفرنسية والألمانية الوقفة العسكرية على جانبي النعش. وبعد جلوس جميع المعزيين بدأت المراسم. استغرق القداس نصف ساعة، وفي نهايته حمل نعش "جول مولين" إلى عربة الموتى المنتظرة بالخارج.

كانت الجنود التركية على رأس موكب المشيعين، يتبعهم "أشرف باشا" الوالي، و"فاهان أفندي"، و"فريق محمد باشا"، و"إبراهيم باشا". كان القادة الألمان والمبعوثون الألمان يسيرون على يسار العربة، والقادة الفرنسيون والمبعوثون الفرنسيون يسيرون على يمينها. ويحيط بالموكب طابور فردي من جنود البحرية الألمانية والفرنسية.

في تلك الأثناء، التفت "فريق محمد باشا" إلى "أشرف باشا" الوالي وهمس:

- بخصوص تلك الفتاة...

فكسا العبوس وجه الوالي، ورد:

- أي فتاة تقصد؟

- الفتاة البلغارية.

- ماذا عنها؟

- سمعت أنك تبحث عن مكان لها.

- صحيح، لكني لا أرى التوقيت ولا المكان مناسبًا للتحدث في ذلك.

- لا تتضايق، إنها مجرد فكرة طرأت على بالي يا باشا.

- وما هي هذه الفكرة؟

- كنت سأعرض عليك ضمها إلى مكان إقامتي.

- فهمت! تعال إلى مكتبي غدًا وسنناقش ذلك.

هكذا وضع "أشرف باشا" الوالي نهاية للنقاش بشيء من الفظاظة، فصمت "فريق محمد باشا". إلا أنه لم تمر فترة قبل أن يتطرق إلى موضوع آخر في محاولة لتخفيف التوتر.

- الحمد لله على السلاسة التي سارت بها الأمور حتى الآن، ولنأمل أن ينتهي الأمر دون أية متاعب.

- آمل ذلك أيضًا.

خلال حديث "أشرف باشا" و"فريق محمد باشا" كان الموكب يزداد قربًا من الميناء.

عند وصول الموكب سُلِّم النعش إلى البحرية الفرنسية لتتولى نقله إلى السفينة الحربية التي ستحمل جثمان "جول مولين" إلى فرنسا. ومع شروع المركب في الإبحار، أطلقت المدافع تحية عسكرية للقنصل الراحل.

توجَّه الحشد نفسه، مع نهاية المراسم التي استغرقت ساعتين، إلى كنيسة "القديس نيقولا" اليونانية الأرثوذكسية من أجل جنازة "هنري أبوت" القنصل الألماني. كان النعش موضوعًا في منتصف الكنيسة، مع حرس شرف من البحرية

الفرنسية والألمانية في وقفتهم العسكرية على جانبي النعش. كان جميع رجال دين طائفة اليونان الأرثوذكس حاضرين، يصلون ويرتلون. ثم جاء الكاهن وخلفه الشمامسة، صلى من أجل الفقيد، ثم بخر النعش والمذبح والأيقونات.

بعد انتهاء الطقوس، سارت الجنازة مسيرة أختها السابقة، عدا أن من قادها هذه المرة كان كاهنًا يحمل صليبًا. وسار في الموكب جميع رجال دين طائفة اليونان الأرثوذكس في "سالونيكا"، بما فيهم المطران "يواكيم".

حينما وصلوا إلى مقابر الكاتدرائية أخرج النعش من عربة الموتى. تليت الصلوات خلال الدفن، واختتمت المراسم بتلاوة الكاهن مقطع من الإنجيل.

"لأنه مثل آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع. ولكن كل واحد في رتبته: المسيح باكورة، ثم الذين للمسيح في مجيئه".

* * *

اتصل "فريق محمد باشا" في اليوم التالي بالوالي وقدم عرضه للمرة الثانية، فاستحسنه "أشرف باشا" وأرسل "ستيفانا" إلى منزله بعد استيفاء الأوراق اللازمة. ما إن عبرت "ستيفانا" الباب حتى أخذها أحدهم إلى حجرة كبيرة حيث يمكنها النوم مع بقية الحريم. غادر الجميع الحجرة فترة للسماح لها ببعض الراحة، ومع اقتراب المساء اصطحبوها إلى حمام الحريم، هناك ساعدتها الجواري في الاستحمام، ثم ألبسوها ثيابًا نظيفة، وقادوها إلى حجرة "محمد باشا" فور استعدادها.

كانت "ستيفانا" في غفلة عما يخبئه لها القدر طوال الفترة الماضية، لكن الأمر انكشف أمامها عندما أمرها رجل في عمر أبيها بخلع ملابسها. في هذه

اللحظة أدركت أن "محمد باشا" لم يكن يسعى إلى حمايتها، بل إلى ضمها إلى حريمه. تجاهلت "ستيفانا" أمره وثبتت بصرها على الأرض.

- إذا كنت تنوين العيش في منزلي من الآن فصاعدًا، فعليك طاعة جميع أوامري. وحينما آمرك بخلع ملابسك، فعليك خلعها.

تمسكت "ستيفانا" بموقفها، ونظرت إلى الباشا بتحد.

سألها بغضب:

- هل تعرفين من أكون؟

وقبل أن يتسنى لها الحديث، أجاب الباشا على سؤاله بنفسه.

- أنا "فريق محمد باشا"، وأنت محظية عندي، إياكِ نسيان ذلك أبدًا.

لم تتفاعل "ستيفانا" مع ذلك أيضًا، وواصلت التحديق في الأرض. كان الباشا غاضبًا من سلوكها، لكنه تقدم منها وبدأ يداعب نهديها، وحاول تقبيلها رغم إبقائها فمها مغلقًا. ومع محاولتها التملص منه، ازدادت شهوة الباشا تأججًا، وسيطرت عليه حتى أنه لم ينتبه إلى صراخها وضربات يديها على ظهره.

سقطت "ستيفانا" على الأرض، ممزقة الملابس، بشرخ في روحها بعد أن أخضعها الباشا غصبًا. حاولت حبس الدمع قدر استطاعتها، لكنه انسال في النهاية على خديها.

نهض "محمد باشا" وشرع في ارتداء ملابسه، مسرورًا لقضائه شهوته الحيوانية بعد مقاومة طويلة وصعبة. ثم أمرها بالعودة إلى حجرتها وعدم البوح بشيء مما جرى لأي شخص كان.

لكن لم يكن هناك داع لإخبار أحد، فالحريم يعرفن جيدًا مدى قسوة وسادية "محمد باشا"، ولم يكن لديهن أي شك في قيام الباشا باغتصابها.

أصيبت "ستيفانا" بضعف جسدي من أثر صدمة اغتصابها على يد رجل في سن والدها ظنت منزله مأوى لها، وهاجمتها الهواجس طوال الليل، وأعادت معايشة الحادثة مرة تلو المرة في ذهنها، ووجه "محمد باشا" الناطق بالشهوة لا يفارق مخيلتها. وكلما غفت استيقظت كأنها تهرب من كابوس، لتدرك أن هذه الصور البشعة لم تكن حلمًا. تقلبت "ستيفانا" في الفراش طوال الليل، وفي الصباح الباكر نهضت فجأة وغادرت الفراش. تسللت خارج الحجرة مع الحرص على عدم إيقاظ باقي النسوة. هبطت السلم على أطراف أصابعها، وفتحت الباب الرئيسي بحرص شديد، وانطلقت راكضة تطوي الطريق طيًا، غير مبالية بملابسها الممزقة.

لم تظهر "ستيفانا" ثانية، وسرت إشاعة لبعض الوقت تفيد انضمامها إلى أحد بيوت الدعارة في إسطنبول، لكن الإشاعة نُسيت مع مرور الوقت كما نُسيت قصة الفتاة البلغارية كلها.

مالطا – ٦/٥ سبتمبر ١٩٢١

كان "كارا كمال" و"علي إحسان باشا" غارقين في نقاش ساخن في الفناء. أسرع "تحسين بك" إليهما وقال:

- جئت للتو من الميناء. إن السفينة التي أعدها "بصري بك" ستقلع إلى الميناء الصغير.

- هل أنت متأكد أنها هي السفينة؟

- أجل، ألم تقل الرسالة التي تسلمتها "تريكوتي"؟

- نعم.

- حسنًا، لقد نظرت إليها عن قرب، إنها "تريكوتي". غمرتني الحماسة حتى أني ركضت إلى هنا مباشرة دون إخبار أي شخص بذلك.

رفع "علي إحسان باشا" يديه إلى السماء حينما سمع بوصول السفينة إلى ميناء "فاليتا".

- يا إلهي، لقد توجهت إليك أطلب وسيلة للهرب، وها أنت تبعث بها إلي. إنه كرم لن أوفي حقه من الشكر أبدًا.

وتدخل "تحسين بك":

- لا تتعجل الفرحة يا باشا، فالجزء الأصعب لم يمر بعد.

ثم قال محدثًا "كارا كمال":

- فلنراجع الخطة مرة أخيرة. معي الآن النقود التي دبرناها من أجل القبطان. هل أسلمها إليك الآن؟

أجابه "كارا كمال":

- لا داع لذلك، فسنكون – على كل حال – معًا في المجموعة الأخيرة.

ثم بدأ يراجع الخطة.

أنصت "تحسين بك" و"علي إحسان باشا" باهتمام. ومع نهاية كل جملة كان "تحسين بك" يومئ برأسه موافقًا. وبعد الانتهاء من مراجعة كل تفاصيل الخطة، قال "كمال بك":

- سأعطيك قائمة بأسماء من يجب إطلاعهم على الخطة يا "تحسين بك"، لكن أبلغهم بضرورة كتمان كل ما يخص الموضوع عن أي شخص.

- أنت محق يا "كمال بك". فعلينا التشكك في كل شخص خارج القائمة، حتى من نعدهم من الأصدقاء، لا البريطانيين فقط. إن كلمة واحدة عابرة قد تهدد نجاح العملية وتلقي بنا جميعًا في السجن.

* * *

في اليوم التالي نثر "تحسين بك" أشياءه فوق الفراش، ليحدد ما سيحمله معه منها. كان يعرف أن حمل أي شيء قد يجذب انتباه البريطانيين، لكن هناك أشياء لا يستطيع تركها وراءه. التقط "تحسين بك" الكمان الذي أرسلته "مديحة هانم" عبر مكتب البريد البريطاني، حيث حمل القوس بيمناه ثم أخرج الكمان من علبته باليد الأخرى وأسنده إلى خده. لكن ما إن شرع في العزف حتى عنَّف نفسه وأعاده إلى العلبة ثانية.

بعد أن تفحص كل ما على السرير قرر أنه لا يستطيع حمل أي شيء من ذلك معه، حتى الكمان المحبب إلى نفسه. وفجأة تذكر مذكراته، وأدرك أنها الشيء الوحيد الذي لا يسعه تركه، فأخرجها من الدرج وأخفاها وراء معطفه.

* * *

كان الميناء العسكري "مرسى سيروكو"، أكثر هدوءًا وسكينة من الميناء الضخم على الناحية الأخرى من "فاليتا". لم تستخدم سفن الركاب والسفن التجارية هذا الميناء قط، لذا لم يكن فيه مكتب جمرك. أبحرت "تريكوتي" سفينة البضائع بين السفن الحربية البريطانية وأرصفة ميناء "مرسى سيروكو" وأفرغت حمولتها من الماشية التي جاءت بها من تونس للتموين

العسكري. كان ينتظر مغادرتها إلى "نابولي" في اليوم التالي دون الحاجة إلى الخضوع لأي تفتيش جمركي، وقد أنهت الأوراق الرسمية المطلوبة بالفعل.

وافقت العطلة الرسمية التالية الاحتفال بـ"يوم سنجليا"، وهو ذكرى ميلاد مريم العذراء، وكان أغلب جنود مالطا في إجازة. مُنِح "تحسين بك" ومعه سبعة عشر ممن يسعون إلى الهرب إذن بالتجول في "فاليتا". وصلوا إلى الميناء في مجموعات صغيرة، لكن رغم التعليمات التي تقضي بعدم اصطحاب أي شيء، لم يستطع "كارا كمال" ترك الشيشة وراءه، أمَّا "علي إحسان باشا" فقد أراد حمل جميع متعلقاته، وارتدى أربع بنطلونات، مما جعل مظهره سخيفًا بعض الشيء.

التقى "أكا بك" و"تحسين بك" بالقبطان في قاعة السينما الوطنية وأعطوه نصف المبلغ مقدمًا، على أن تدفع البقية إلى المرشد المالطي.

لكن المشكلة ظهرت حينما قال القبطان:

- لدي أماكن لإثنتي عشر شخصًا فقط. فاصطحاب أكثر من ذلك قد يفضح أمرنا ويعرضنا للسجن. هذا أقصى عدد أستطيع حمله.

لكنه وافق بعد نقاش طويل على نقل ستة عشر شخصًا كحد أقصى، مما يعني اضطرار شخصين من القائمة إلى البقاء في مالطا. بعد انتهاء اللقاء تقابلت المجموعة كلها للتشاور. وتطوع "مصطفى حالوك بك" للبقاء، ثم تبعه العقيد "جواد بك"، وهكذا سويت المشكلة وديًا. وراحوا يتناقشون في كيفية تنفيذ المخطط.

كان هناك مرشد محلي سيتولى مرافقتهم إلى السفينة. وفي اليوم المنتظر، جاء متخفيًا في زي رجل شرطة؛ ساق عشرة منهم في مجموعتين إلى السفينة. وفور صعودهم إلى السفينة دخلوا مخزن مكتوم الهواء عند مؤخرة السفينة وانتظروا في صمت هناك. كان عليهم الانتظار وقت طويل إلى أن تصل المجموعة الأخيرة المكونة من "كمال"، و"تحسين"، و"ممدوح"، و"معمر"، و"شكري"، و"ماجد". ولقد جردهم الانتظار تدريجيًا من أي صبر، وبدأ الوهن يتسلل إلى بعضهم بسبب قلة الأكسجين.

استغرقت المجموعة الأخيرة ساعتين للوصول. في تلك الأثناء كان قلق "علي إحسان باشا" قد تعاظم وأخذ يسأل عما أخرهم. فأخبرهم "كارا كمال" بالقصة وهو يقهقه:

- كنا على وشك ركوب الزورق عندما قرر أحد ضباط خفر السواحل الجلوس والتمتع بالمنظر على بعد خمسة وعشرين مترًا منا. لم يكن أمامنا سوى انتظار رحيله، لكنه واصل الجلوس هناك، يدخن سيجارة وراء أخرى وهو يستمتع بالمنظر. شككنا للحظة في اشتباهه فينا وبدأ القلق يتسلل إلينا. لكنه غادر بعد ساعتين، وتسللنا إلى المركب وجئنا بأقصى سرعة ممكنة.

قال "علي إحسان باشا":

- حسنًا، الحمد لله على وصولكم. ولنأمل أن يتحرك القبطان بسرعة.

بينما السفينة تبحر بعيدًا تنفس "مدحت شكري بك" وأصدقاؤه الصعداء في المقهى المطل على الميناء، وراحوا يشربون البيرة احتفالًا بهروب الأصدقاء.

سالونيكا – ٢٩/٢٨ أغسطس ١٨٧٧

توقَّف البحث عن المجرمين الهاربين بعد أن لاقت الأحكام المتعلقة بـ"حادث القنصلين" قبول القوى الأجنبية، لتصبح تلك الحادثة جزءًا من الماضي والتاريخ التركي، وتعود المدينة بمرور ما يقرب من الستة أشهر إلى حياتها المعتادة.

انتظر "إبراهيم بك" بعض الوقت حتى يتأكد من زوال الخطر قبل السفر إلى مزرعة "جورجوب" لإعادة "سليمان" إلى المدينة، لكن مفاجأة ما كانت بانتظاره هناك. كان "سليمان" قد استشعر الخطر قبل أيام من وصول "إبراهيم بك"، عندما لاحظ تواجد الشرطة في المنطقة، ففر إلى الجبال وظل مختبئًا هناك ولم يعد إلى القرية أبدًا.

لكنه ضاق بالوحدة والخوف المتواصل في نهاية الأمر، وحدث نفسه في إحدى الليالي قائلًا: "أنا أموت هنا كل يوم، أما هناك فالموت مرة واحدة. وأنا الآن مستعد لتقبل أي شيء. سأعود إلى هناك".

وفي اليوم التالي انطلق إلى "سالونيكا".

هبط "سليمان" المنحدرات الصخرية حتى بلغ طريقًا يوصل إلى الغابة. حينها استدار ونظر إلى مرتفعات سلسلة "بايكو" الجبلية التي سكنها طوال الشهور الثمانية الماضية، لكنه اندهش عندما استشعر في نفسه ندمًا على ترك حياة الهاربين. حتى أنه فكر في العودة، قبل أن يمسك بزمام نفسه ويكمل طريقه. كان قد أحاط بكل صغيرة وكبيرة في هذه المنطقة، وميَّز الفروق بين جميع الأنهار والشلالات والبرك والأشجار والصخور.

مع وصول "سليمان" إلى سفح سلسلة جبال "بايكو"، وهو يقفز من صخرة إلى أخرى كماعز جبلي، كانت الشمس قد اختفت وراء قمم الجبال. وبدأت حرارة الشمس الحارقة تفسح المجال لأمسية معتدلة. كان "سليمان" مجهدًا وجائعًا. استلقى على الحشائش وغلبه النوم وهو يشاهد نجوم السماء.

رأى في نومه رضيعًا يستطيع التكلم منذ لحظة ميلاده، أشار له بيده يدعوه إلى التقدم. كان قد عانى من الكوابيس المستمرة خلال فترة هروبه، وغالبًا ما كان يستيقظ من نومه فزعًا. لكنه نام هذه الليلة في سلام كطفل، واستيقظ من حلمه مطمئن النفس.

جلس "سليمان" القرفصاء، وشيء في نفسه يحدثه أن ذلك لم يكن مجرد حلمًا بل رؤيا. أخذ يراقب الشمس وهي تشرق على السهل الممتد من عند سفح الجبل. ومع ضوء الصباح انكشفت أمام عينيه قرية "يانيتسا"، المكان الوحيد المسكون في هذا السهل. ولما لم تبد له بعيدة، نهض واقفًا وبدأ يسير باتجاهها.

كانت "يانيتسا" مكانًا مهمًا على الطريق الواصل بين "سالونيكا" وولاية "مناستر"، بحاناتها، ومراحيضها، ودكاكينها المزدحمة دائمًا. كما أنها تلعب

دورًا محوريًا في نقل مختلف البضائع، وتستقبل تبغ السهل كله قبل انطلاقه إلى "سالونيكا".

وصل "سليمان" مع أذان العصر، واتجه إلى الحانه مباشرة، حيث أكل حتى شبع وعاود الارتحال على الفور. وعند حدود القرية لوَّح بيده إلى عربة خيل في أثناء مرورها. فجذب السائق اللجام واهتزت العربة بشدة قبل أن تقف تمامًا.

سأل "سليمان" السائق عن وجهته، فأجابه:

- "سالونيكا".

- وأنا كذلك. هل يمكنني الركوب؟

- بالتأكيد، هيا اصعد إلى الخلف.

صعد "سليمان" بسرعة إلى مؤخرة العربة، متفائلًا بالطريقة التي يسير بها يومه. ولم يتبادلا الحديث طوال الطريق، إلى أن قال السائق أخيرًا:

- هناك مزرعة في نهاية الطريق تدعى مزرعة "جورجوب". أحتاج إلى التوقف هناك لحمل بعض الأشياء. هلا ساعدتني؟

كان ذكر السائق لمزرعة "جورجوب" أمرًا مفاجئًا، وأثارت الصدفة دهشة "سليمان".

- ما الأمر؟ لقد كسا الشحوب وجهك فجأة، أم أنك لا تريد مساعدتي؟

- لا، لا. بل سيكون ذلك من دواعي سروري.

* * *

توقفت العربة ذلك المساء أمام مخزن تبغ قرب ميناء "سالونيكا". شكر "سليمان" السائق وغادر العربة. وعندما ناداه السائق يطلب مساعدته في إنزال البضائع، لم يسمع "سليمان" نداءه.

سار بمحاذاة البحر، وتوقف قلبه حين رأى مجموعة من جنود الجيش في دورية. تملكه خوف هائل، وسلك أول طريق جانبي هربًا منهم.

وصل "سليمان" إلى منزل أخيه "عبد الـلـه" دون أن يزول عنه القلق أو الارتباك، وما إن فتح "عبد الـلـه بك" الباب حتى قال له:

- إن الشرطة تطاردني.

بذل "عبد الـلـه" كل وسعه لتهدئة أخيه. لكن "سليمان" كان في قمة الانفعال بحيث لم تفلح أي من محاولات "عبد الـلـه" في التخفيف عنه.

- اذهب لتغيير ملابسك، سأطلب من "لطفية" تسخين بعض الماء من أجلك. حاول الاستمتاع بهذا الحمام، فرائحتك تشبه رائحة الحصان.

بعدها، ارتدى "سليمان" ملابس نوم نظيفة وذهب إلى الفراش. وسرعان ما داهمه النوم فور ملامسة رأسه للوسادة.

* * *

في اليوم التالي ملأت السعادة منزل "إبراهيم كدخدا"، حيث سمع أحدهم يناديه بعد أذان العصر بنصف ساعة:

- "إبراهيم"! "إبراهيم"! أخبار سعيدة! إنه ولد! أنجبت ولدًا! ولدًا قويًا!

كانت "لطفية هانم" تمد يد العون إلى أخت زوجها، وما إن قطعت الداية الحبل السري حتى قامت بلف الطفل بقماشة نظيفة. وغادرت الغرفة بالطفل راكضة، يتردد صدى صيحاتها الفرحة في الردهة. أما "إبراهيم بك" الذي كان ينتظر في الغرفة المجاورة فقد هب واقفًا فور سماع صوتها وأسرع إلى الردهة.

أزال "إبراهيم بك" القماشة فورًا للتأكد مما سمعه. ولكم كانت سعادته عظيمة بما رأى! وفي غمرة حماسه لم يعد يدري هل يصدق ما سمعه بأذنه ورآه بعينه أم لا.

كان سن "إبراهيم بك" يقترب من الخمسين، وكانت هذه هي ثامن ولادة يشهدها لذريته. لكنه فقد سبعة من هؤلاء الأطفال، ولدين وخمس بنات. حتى فقد الأمل في الحصول على ولد من صلبه، وكانت الفرحة تعصف به الآن.

فتح "إبراهيم بك" ذراعيه:

- اسمحي لي بحمله يا "لطفية".

- صبرًا يا "إبراهيم". لقد تملكتني الفرحة فور رؤية الرضيع حتى أني حملته إليك مباشرة قبل أن تتمكن "خديجة" من تفحصه جيدًا. وباللـه أستحلفك يا أخي، لماذا لا تقف إلى جانب زوجتك؟ لقد منحتك ولدًا قويًا. لم لا تذهب وتهنئها؟ هيا اذهب! سأنظف الرضيع وأحضره إليك على الفور.

- بالطبع، بالطبع! لقد أنستني الفرحة ذلك، هذا كل ما في الأمر.

دخل "إبراهيم بك" الحجرة مترددًا. كانت الداية فخورة بتأدية واجبها على أكمل وجه، وبذلها يد العون في إنجاب رضيع ذكر، فراحت تهنئه وتدعو

للمولود. أخرج "إبراهيم بك" خمس وعشرين ليرة من جيبه وأعطاها لها. فاتسعت عين الداية من المفاجأة. وشكرته بحرارة وقبلت يديه.

وقف "إبراهيم" عند نهاية فراش "خديجة هانم".

- لقد استجاب اللـه لدعائنا يا "خديجة". ومنحنا طفلًا قويًا. إنه نسخة من أخيكِ "محمد"، وإن كنت آمل له في حياة أفضل مما اختارها "محمد".

بعد أن نظفت "لطفية" الرضيع ولفته في قماشة، ناولته إلى "خديجة". فقالت عندما رأت وجهه:

- نعم، أنت محق. تظن كل أم أن ابنها هو أجمل الأطفال، لكن هذا طفل جميل بالفعل. ألا توافقني يا "إبراهيم"؟

- بالطبع. بالطبع! إنه طفل جميل حقًا.

- ...

- عندما تحدثتِ عن جماله يا "خديجة" طرأ على بالي اسم "تحسين".

- ألم تقل دومًا إنك تريد تسمية ابنك "حسن". أم أنك غيرت رأيك؟

- لا لم أغيره، لكن يمكن لـ"حسن" أن يكون اسمه الأول.

- بالتأكيد! لم لا؟ "حسن تحسين"، إن له وقع جميل على الأذن.

* * *

كانوا مستغرقين في اللحظة حتى أنهم لم يسمعوا الطرق على الباب، لكنه استمر وبلغهم صوت صياح من الخارج:

- يا "إبراهيم بك"، إنه أنا!

حينما سمع صوت "سليمان"، ركض "إبراهيم بك" ليفتح الباب.

- مرحبًا، مرحبًا! هيا ادخل!

شكره "سليمان" ودخل على استحياء. ثم أمسك يد "إبراهيم بك" وقبلها.

- أخبرتني "لطفية" بعودتك إلى المدينة. قالت إنك وصلت مساء الأمس.

- نعم، وصلت مساء الأمس.

نظر إليه "إبراهيم" نظرة مشاكسة وقال:

- لا أظنك تملك حاسة سادسة، أليس كذلك؟ أم أن السماء منحتك إياها؟

لم يكن "سليمان" يعرف شيئًا مما استجد، فسأله عن قصده.

- لقد أنجبت أختك طفلًا... منذ نصف ساعة لا غير.

- سمعت بمجيء "لطفية" على عجل في الصباح المبكر، لكن لم يخبرني أحدًا بشيء آخر. ربما أرادوها مفاجأة لي.

- هيا تعال. اذهب لرؤية أختك والمولود.

صعد "سليمان" السلم، ووقف إلى جوار "خديجة" وقبل يدها قائلًا:

- فليباركه الـلـه ويطل عمره في صحة ورخاء.

- أهذا أنت يا "سليمان"! إنه أنت! حمدًا لله على رجوعك!

حينئذ بدأ "تحسين" الصغير في البكاء.

- سأخبرك بالقصة كلها فيما بعد، يا "خديجة". لكن دعيني ألقي نظرة على هذا المشاغب الصغير.

كان "تحسين" الصغير في مهده يبكي. أزاح "سليمان" الناموسية وحمله.

- الحمد لله على رؤية ابن أختي قبل مغادرتي. فلا أحد يعرف متى سيتاح لي ذلك ثانية!

فاجأت هذه الكلمات الجميع، وقاطعته "خديجة هانم":

- ماذا تقول؟ دع عنك هذه الفكرة تمامًا.

- لقد نلت كفايتي من الاختباء في الجبال.

- ولم الاختباء في الجبال والمزرعة أمامك؟

- لا أعرف كيف أجيبك يا "خديجة"، إن الخوف يأكل روحي. يخيل لي دومًا أنهم سيداهمون المزرعة ويقبضون علي في أي لحظة. لقد اتخذت قراري. سأذهب إلى "قبرص". دبَّر لي "عبد الـلـه" أمر سفينة، ولو سارت الأمور على خير فسأبحر غدًا.

- لم العجلة؟ انتظر حتى تشاركنا أربعين "تحسين" الصغير على الأقل.

- "خديجة"، أتمنى لو كنت أستطيع، لكني لا أملك الخيار. لا يمكنني إزعاجك أكثر من ذلك، ولا أريد التسبب في أي مشاكل لك. علي مغادرة "سالونيكا" بأسرع وقت ممكن.

لم يكن ذلك وقتًا مناسبًا لهذا الموضوع، فحاول "سليمان" تغيير مسار الحديث بعد أن لام نفسه على إفساد هذه المناسبة السعيدة.

- لقد أغلقت القضية يا "سليمان". جاؤوا للبحث عنك في البداية، لكن ذلك لم يتكرر ثانية طوال أكثر من عام حتى الآن.

- من يدري يا "خديجة"؟ ماذا لو لم يغلق ملف القضية رسميًا وماذا لو قبضوا علي.. ماذا لو شنقوني مثلما شنقوا الآخرين. لا يا "خديجة"! لا تفكري في ذلك! لا يستطيع أحد توقع أفعالهم. إن الاختفاء أفضل الحلول، علي الفرار.

تدخل "إبراهيم بك":

- أخبرتك أختك لتوها أن القضية أغلقت. ألا تصدقها؟ ألا تدرك مقدار الحزن الذي تسببه لها كلماتك؟

- أنت محق. أرجوكِ سامحيني. وليباركِ اللـه.

قالت "خديجة هانم":

- عما تتحدث؟ سنراك ثانية قريبًا.

فأجابها "سليمان":

- لن أعود ثانية إلى "سالونيكا" على الأغلب يا "خديجة". إن سألك أحد عني فأخبريه أني مت. لا أريد أن يعرف أحد بأمر فراري إلى "قبرص".

ثم ألقى نظرة أخيرة على "حسن تحسين" الصغير النائم في مهده الخشبي، واستدار مغادرًا الغرفة.

لم يقدر لـ"سليمان" رؤية "تحسين" ابن أخته الصغير ثانية أبدًا.

مسينا - ريدجو كالابريا – روما ١٥/٧ سبتمبر ١٩٢١

أبحرت "تريكوتا" في ليلة مظلمة، تحمل على متنها الهاربين إلى مستقبل أفضل. تنفس القبطان الشاب "جيوفاني" الصعداء حينما رأى الإشارة الضوئية من فنار "كورينتي"، إثنتين قصيرتين ثم أخرى طويلة مع فاصل زمني من خمس عشرة ثانية. لقد صاروا الآن خارج نطاق سلطة البحرية البريطانية.

لم يكن "تحسين بك" في نفس هدوء القبطان. فقد ذهب إلى المخزن الرئيسي، حيثما ينام "علي إحسان باشا" مصدرًا شخيره على كومة من قماش الشراع، وهزه ليوقظه.

- رأيت بعض الضوء قادمًا من بعيد، هل يمكنك إلقاء نظرة لنعرف إن كانت أضواء سفن بريطانية أم لا؟

نهض "علي إحسان باشا" وذهب إلى سطح المركب، وخلفه "تحسين". نظر الباشا أولًا إلى الأضواء ثم إلى النجوم لمعرفة الإحداثيات.

- هل رأيت أضواء الفنار من قبل يا "تحسين"؟ إنه وميض الفنار في أقصى جنوب "صقلية". أمَّا الأضواء الأخرى فهي مراكب صيد.

- يا ربي! خُيِّل إلي أنهم قادمون للقبض علينا.

دارت السفينة حول خليج "مورو دي بوركو" مع بداية الشروق، وتوجهت إلى ميناء "سيراكيوز". وأوشكت على دخوله مع وضح النهار، لكن القبطان "جيوفاني" لمح سفينتين حربيتين إيطاليتين تقفان عند رصيف الميناء، فعدل عن وجهته واتجه إلى "ميسينا".

خرج "كارا كمال" فور استيقاظه إلى سطح السفينة لاستنشاق بعض الهواء المنعش، كان يتأمل جمال "قلعة مانياتشي" الأثرية عندما لاحظ تغير المسار.

- ألم نكن في طريقنا لمقابلة المرشد المالطي هنا؟ لماذا غيرت المسار؟

- ألا ترى السفن الحربية راسية قرب القلعة؟ لا داع للمخاطرة، خاصة غير الضرورية منها. إضافة إلى أخذنا هذا الاحتمال في الحسبان، فإذا لم يعثر المرشد علينا هنا، سيستقل القطار إلى "ميسينا".

- وماذا إن لم يفعل؟

- لا تقلق. إنه رجل يعرف واجباته جيدًا.

- إذًا لا بأس.

ذهب "كارا كمال" ليطلع الرفاق على المستجدات.

- قرر القبطان عدم الرسو في ميناء "سيراكيوز". وغيَّر المسار متجهًا نحو "ميسينا".

كان رفاقه في سكرة منعتهم من التجاوب معه.

مع حلول المساء، غطت طبقة من الغمام السميك البحر، فسادت العتمة فجأة. تفقد القبطان خرائطه وحدد موقعهم بواسطة مسطرة وبرجل. ولما تبين له انحراف السفينة عن مسارها أدار الدفة حتى أشارت البوصلة إلى ١٦ درجة في اتجاه شمال شرق. ولم تتغير قراءة البوصلة ثانية، بعد أن لازم الدفة ليتفادى أي انحراف قبل حدوثه. وهكذا دخلت السفينة ميناء "ميسينا" مع حلول الظلام.

فور رسو السفينة، أضاء القبطان ضوء الصاري ثلاث مرات إشارة للمهربين المنتظرين في البر. كان "كارا كمال" و"صبيح باشا" يرقبان ما يحدث باهتمام، وقال القبطان:

- يبدو أن المرشد وفريقه ليسوا هنا. أرى أن ننتظر بعض الوقت.

شعر "كارا كمال" بالقلق، ولام القبطان على عدم الرسو في "سيراكيوز"

بعد فترة قصيرة رؤوا مركب تجديف تقترب من السفينة. قال القبطان:

- أنتم محظوظون يا سادة. ها هو مرشدكم قد أتى.

وألقى سلم الحبال على جانب السفينة الأيمن.

كان "كارا كمال" و"تحسين بك" أول من هبطوا سلم الحبال. لكن عندما وصل "كارا كمال" إلى مركب التجديف ووجد رجلين غريبين بدلًا من المرشد المالطي صاح:

- لا تهبطوا، هناك خطأ ما. المرشد ليس هنا.

فأشار "أنطون" المرشد المالطي إلى لحيته السوداء الضخمة وقال:

- إنها لحية مستعارة، أستخدمها للتخفي عن أعين شرطة الجمارك.

وراح يضحك. فقال "تحسين" وهو يأخذ مجلسه في مركب التجديف:

- ماذا! ما كنت لأميزه أبدًا.

ونادى رفاقه في السفينة:

- كل شيء على ما يرام، يمكنكم النزول الآن. إنه تأثير القلق على "كمال بك".

فهبطوا جميعا سلم الحبال واحدًا تلو الآخر.

كاد المركب يغرق من الثقل بعد أن جلس فيه الستة عشر رجلًا جميعًا. فلم تكن المسافة بين حافة المركب وسطح الماء إلا سنتيمترات قليلة. جدف الرجل الآخر بكل قوته. ونبه "أنطون" على ضرورة الثبات في أماكنهم وإلا غرق المركب وانتهى بهم الحال في الماء. كتم الجميع أنفاسهم. وبينما المركب تبتعد عن السفينة في صمت، كان ضبَّاط الجمارك الإيطاليين يصعدون إلى السفينة من ناحية الميناء.

أمَّا المهربون على الشاطيء فقد واصلوا التصفير بنغمة معينة لإرشاد المركب إلى الرصيف الصحيح، ومع اقترابهم من أحواض السفن، بدأ "أنطون" وزميله ينشدون أغنية نابولية كأنهم في طريق العودة من نزهة بحرية ممتعة.

Sul mare luccica, l'astro d'argento

Placida è l'onda, prospero il vento;

Venite all'agile barchetta mia;

Santa Lucia! Santa Lucia!"

"النجوم متلألأة على ضفاف البحر اللامع

كم الموج هادئ وكم الريح خاضع

يترنح مركبي الصغير بخفة غير مسرع

سانت لوسيا! سانت لوسيا!".

بعد أن أوصلهم جميعًا إلى البر، حجز "أنطون" للهاربين الستة عشرة في إحدى فنادق الدرجة الثانية المنتشرة على طول الشوارع الخلفية للميناء. كانت جميع الحجرات قذرة، لكن لم يعترض أحدًا عدا "علي إحسان باشا"، واستغرقوا بسرعة في النوم فور ملامسة رؤوسهم للوسادات.

في الصباح، استدعاهم "أنطون" من غرفهم في الوقت المحدد، واصطحبهم إلى رصيف الميناء وركب معهم المعدية إلى مدينة "ريدجو كالابريا" بنفسه.

أخبرهم "أنطون" بضرورة التفرق في مجموعات من ثلاثة أو أربعة عند الوصول تجنبًا للفت الانتباه، ثم ركوب القطار المتجه إلى "نابولي". جمعت

الصدفة بين "كارا كمال"، و"تحسين بك"، و"شكري بك"، و"علي إحسان باشا" في مجموعة واحدة. وفي القطار، جلست كل مجموعة في عربة مختلفة مع حرص كل واحدة على إخفاء علاقتها بالبقية.

جلس "علي إحسان باشا" إلى جانب "كارا كمال" و"تحسين بك"، بينما جلس "شكري بك" أمامهم. وبعد حركة القطار، مال "كارا كمال" إلى الخلف قائلًا:

- لقد تحدثت إلى الرجل المالطي، وقال إنه سيذهب إلى "نابولي" معنا، وهناك سنلتقي بـ"بصري بك" الذي أعد خطة الهرب.

كان "تحسين بك" يعرف ما سيكون عليه رد فعل "علي إحسان باشا"، ورغم ذلك قال متعمدًا:

- تربطني علاقة قديمة بـ"بصري". إنه عضو مخلص في الجمعية. على الرغم من الشائعات التي تزعم انكسار الجمعية فإنها ما تزال حية ونشطة.

وجاء رد فعل "علي إحسان باشا" فوريًا:

- ما علاقة أي من ذلك بالجمعية؟ إنك ما زلت مهووسًا بها.

قال "كارا كمال":

- حسنًا، حسنًا! لا تجعلني أندم على قول ذلك.

ثم غمز إلى "تحسين بك"، ووضع يده على شفتيه يطلب من "تحسين بك" التزام الصمت.

سار كل شيء حسب المخطط. وأرسل "أنطون" برقية من "ريدجو كالابريا" إلى "بصري بك" في روما، وفي العاشرة مساءً كان "بصري بك" في محطة قطار "نابولي" لمقابلتهم. فسلَّم "أنطون" عهدته إليه قائلًا:

- هكذا أيها السادة، ينتهي عملي ويحين وقت عودتي. أتمنى لكم رحلة سعيدة!

قال "بصري بك" وهو يحتضن "تحسين بك" على طريقة الجمعية:

- صديقي العزيز، كم كنت قلقًا عليك!

ثم حيَّا "كمال" و"شكري بك" بالطريقة نفسها، وبالكاد صافح أيدي البقية. أثار ذلك استياء "علي إحسان باشا"، فهو يطمع دائمًا في أن يكون مركز الاهتمام، وأن يحظى بكل تقدير واحترام، لكنه لم يعلق بكلمة تجنبًا لتكرار النقاش البائس الذي اندلع في القطار.

* * *

عبر "كامي بك" – ممثل الحركة القومية الأناضولية في روما – المدخل الرئيسي لفندق "بالازو روسبيجليوسي"، وصعد السلم قفزًا حتى ردهة الفندق. وعندما رأته المجموعة وهو ينظر حوله، هبوا واقفين.

قال "كامي بك":

- مرحبًا بكم في روما أيها السادة. إن السعادة تغمرني لرؤيتكم جميعًا هنا بخير حال.

وصافح أيديهم جميعًا. مع تبادل بعض الكلمات مع كل منهم والتعريف بنفسه.

- اسمي "كمال"، وينادونني بـ"كارا كمال".

- أنا سعيد بمقابلتك يا "كمال بك". أعتقد أنك من أخرج زملاءنا من مالطا، أليس كذلك؟

- يمكنك قول ذلك.

- ...

- أنا "حسن تحسين" يا "كامي بك"، عضو البرلمان عن دائرة "إزمير".

- تشرفنا يا "حسن تحسين". سمعت الكثير عن نضالك أثناء ولايتك على "أرضروم". ورؤيتك هنا والآن.. حسنًا، ماذا أقول؟ إن الكلمات عاجزة عن البيان.

- ...

- أنا "علي إحسان باشا" قائد الجيش السادس.

- تشرفنا، كم أنا سعيد لمقابلة بطل مثلك.

- الشرف لي. كما أننا ممنونون لك. لولا مساعدتك ومساعدة "بصري بك" لما تمكنا من مغادرة ذلك الجحيم.

- ...

بعد أن قدَّم كل منهم نفسه إلى "كامي بك"، جلسوا جميعًا على المقاعد الفخمة في الردهة.

قال "كامي بك":

- أيها السادة، لقد مضى الجزء الأصعب، وسيكون القادم كله سهلًا. سأرسل برقية إلى أنقرة فور عودتي إلى المكتب، أبلغهم فيها بوصولكم إلى روما دون أي مصاعب.

حينئذ بدأ الجميع في الحديث في الوقت نفسه، يخبرون "كامي بك" بقصة هروبهم من مالطا. وبعد أن استمع إلى كل قصصهم قال:

- أيها السادة، أنا أتفهم حماستكم جيدًا لكن علي المغادرة خلال عشر دقائق. بعد إذنكم، هناك أمور أرغب في توضيحها لكم.

وتوقف دقيقة قبل أن يكمل:

- غدًا سيأتي أحد الزملاء ليأخذكم من الفندق. سيتولى نقلكم لالتقاط بعض الصور لكم، وسأنهي جوازات السفر فور تسلمها. إلى أن يتم ذلك، سأبحث مع أنقرة وجهتكم التالية وكيفية الانتقال إليها.

قال "علي إحسان باشا":

- أريد العودة إلى أرض الأجداد لمواصلة النضال يا "كامي بك". وأتمنى ألا تستغرق الجوازات فترة طويلة.

- لا تقلق؛ سأنتهي منها في أقرب وقت.

قال "كامي بك" قبل المغادرة:

- صحيح، كدت أنسى إخبارك بذلك يا باشا. سيتصل بك العقيد "ممتاز بك" – الملحق العسكري – هذا المساء، أظنه سينقل إليك رسالة من "مصطفى كمال باشا". يمكنك حينها التحدث إليه عن أمر عودتك إلى الأناضول.

استقبل الباشا هذه الملاحظة ببرود، وأجابه:

- نعم، سأفعل ذلك.

في أثناء نزوله السلم، تمتم "كامي بك" شيئًا لنفسه عن غطرسة "علي إحسان باشا".

إفديم / ليماسول – ١٩ يوليو ١٩٢٨

راحت "بمبي" تقطع الحجرة ذهابًا وإيابًا في حيرة شديدة. فتحت دولاب ملابسها وأخرجت فستان حريري بلون الكريمة كان قد أرسله إليها قريب لم تقابله قط عندما كان واليًا على دمشق. رفعت الفستان أمام جسدها وتأملت نفسها في المرآة. ثم أعادته إلى الدولاب دون تجربته. دخل "أحمد غالب" زوجها إلى الحجرة، وسأل:

- ألم تستعدي بعد يا "بمبي"؟ ستصل العربة التي أرسلها إلينا الخال "حولقي" من "ليماسول" في أي لحظة.

زادها السؤال ارتباكًا، كانت عاجزة حقًا عن اتخاذ أي قرار. فأخرجت الفستان ثانية من الدولاب بشيء من الفتور.

- أحاول الاستعداد، لكن شيء ما يمنعني من ذلك.

- ماذا تقصدين؟ ما زال علينا المرور على أمك وأخيك لاصطحابهما، وها أنت تضيعين الوقت في تمتمة فارغة.

- ما علاقتنا نحن بزيجة أسرة يونانية لم أقابلها في حياتي إلا مرات معدودة؟ أنا عاجزة حقًا عن استيعاب ذلك.

- ماذا تقولين! إن "ليفتريس روسوس" والد العروسة صديق مقرب لخالك ووالدتك. وهناك علاقات تجارية قوية تربطه بخالك "حولقي". درست ابنته الصيدلة في أثينا، وهي – حسب ما أتذكر – أول طبيبة أنثى في قبرص، و"هيراكليس ميكيليديس"، زوجها المستقبلي، محامٍ شهير جذب الأنظار في سن مبكرة، وأبوه سياسي ذائع الصيت وأحد أكبر ملاك الأراضي في "ليماسول". إن جميع سكان القرية يحسدونك على حضور زفاف أسرة ثرية مثل هذه، وها أنت تتذمرين!

- ماذا في هذا؟ فأنا حقيقة غير راضية عن العلاقة التي تربط أمي وخالي بهذه الأسرة.

- دعكِ من ذلك كله واستعدي بسرعة. ما يزال أمامنا طريق طويل. فلن نصل إلى "ليماسول" بأحسن الأحوال قبل الثانية ظهرًا.

- أنت ترفض تفهم موقفي. عندما أفكر في معاناة أبي تزول عني أي رغبة في حضور زفاف يوناني.

- ما علاقة ذلك بما حدث لوالدك؟

أجابته "بمبي" وهي ترتدي ملابسها، محاولة إنهاء النقاش لصالحها:

- ما علاقة ذلك بما حدث لأبي! هل نسيت ما فعله اليونانيون هنا في قبرص بعد تحرير "إزمير"؟ ألم يحرقوا متجر أبي ومخزنه في القرية؟ ألم يقتلوا أبي طمعًا في ذهبه وحاولوا تصوير الواقعة على أنها انتحار؟

- ما الهدف من كل ذلك الحديث؟ ما علاقة ذلك بعائلة "روسوس" و"ميكيليديس"؟ فعلى العكس، ألم يكن السيد "روسوس" وزوجته أول المعزيين بعد مقتل والدك الحاج "كمال صالح بك"؟ بل هل كانت الشرطة لتقبض على قتلة والدك لولا نفوذ السيد "روسوس"؟

- أجل، أظنك على صواب...

- إذًا فما المشكلة الآن؟

- آه، لا أدري، لا أدري حقًا. إنه ذلك الشعور بأن...

عجزت "بمبي" عن استدعاء الكلمات المناسبة، ولم تكمل ما أرادت قوله.

* * *

بدأت تجهيزات زفاف "ماريا" و"هيراكليس" مبكرًا في كاتدرائية "أيا نابا" المطلة على ساحل البحر. تم دعوة كثير من رجال الأعمال والسياسيين المرموقين. فـ"مايكل ميكيليديس" والد العريس على صلة بجميع سياسيي الجزيرة، كونه محافظ سابق وممثل سابق عن مقاطعة "إفديم-كيلاني" في المجلس التشريعي القبرصي. ومع ذلك كانت قائمة المدعوين مقصورة على الأصدقاء المقربين فقط، حيث لا مجال لدعوة جميع معارفه من السياسيين. يأتي على رأس القائمة "كريستودولوس سوزوس" الذي خلفه محافظًا لـ"ليماسول"، إضافة إلى "عرفان بك" صديقه المقرب وأحد أعضاء المجلس التشريعي القبرصي. كما جاء المطران "كيرولوس" الأرثوذكسي ضيف شرف، بدعوة من السيد "روسوس" والد العروسة، رجل البر والتقوى صاحب المكانة الرفيعة بين جميع أفراد المجتمع اليوناني الأرثوذكسي، الذي كان خير معين

للكنيسة ماديًا، ولهذا السبب خاصة جاء المطران "كيولوس" من "نيقوسيا" لحضور زفاف ابنته.

كان "هيراكليس" ينتظر عند مدخل الكنيسة مع اشبينه "زينون روسيديس" حينما وصلت "ماريا" مع والدها. كانت ترتدي فساتنها الأبيض الشيفوني – وهو الفستان نفسه الذي ارتدته أمها ليلة زفافها – وتحيط خصرها بحزام أبيض.

سلم "روسوس" ابنته الوحيدة إلى "هيراكليس" عند بوابة الكاتدرائية. فقبلها "هيراكليس" ووقف إلى جانبها ليتأبط ذراعها قبل أن يدخلا خلف القسيس حتى المذبح، تشيعهما موسيقى الأرغن. كما سارت خلفهما "كريستينا" والدة العروسة، ووالدها "ليفتيريس"، و"مايكل"، والد "هيراكليس"، ووالدته "إيليني"، وشقيقته "تيريزا"، وعمه "جورج"، وزوجة عمه "أنا"، وخالته "إفتيربي". ثم جلس العروسان وبدأ القسيس في الترنيم، بعد أن باركا أنفسهما أمام أيقونات القديسين.

بخَّر القسيس الأيقونات، والعروسين والمدعوين. ثم التفت إلى "هيراكليس" قائلًا:

- هل تقبل "ماريا روسوس" زوجة لك يا "هيراكليس ميكيليديس"، في السراء والضراء، والسقم والعافية؟

- نعم أقبل.

- وأنت يا "ماريا روسوس"، هل تقبلين "هيراكليس ميكيليديس" زوجًا لكِ، في السراء والضراء، والسقم والعافية؟

- نعم أقبل.

بعد تلاوتهما عهود الزواج بدأ القسيس يصلي من أجل العروسين ويباركهما.

"دعونا نصلي من أجل سلام وخلاص أرواحنا. نحن نصلي للرب من أجل سلام أرواحنا وخلاصها، ومن أجل أولئك الذين يدخلون بإيمان واحترام وخوف من الرب. دعونا نصلي من أجل مطراننا "كيرولوس" المبجل، وجميع كهنته وشمامسته ومجتمع الكنيسة. دعونا نصلي للرب من أجل خادميه "هيراكليس" و"ماريا" اللذين تليا وعود زواجهما. دعونا نصلي من أجل الذرية التي قد يمنحهما إياها الرب، ونصلي ليتقبل الرب جميع صلواتهما من أجل الخلاص".

أحنى العروسان رأسيهما مع شروع القسيس في الصلاة، يسأل الـلـه أن يجمعهما فلا يكونان اثنين بل جسد واحد. رفعت "ماريا" رأسها ونظرت إلى "هيراكليس" الذي كان يرقبها من طرف عينه. فأدار رأسه إليها قليلًا وابتسم. وواصل القسيس تلاوة الصلوات بوقار.

"دعونا نصلي للرب كي يجمعهما حب عظيم ويجربان رعاية السماوات. دعونا نصلي للرب كي يظل زواجهما مكرما، وفراشهما غير مدنس. ارحمنا واحمنا، يا ربنا...".

ثم التقط القسيس خاتمي الزواج من على يمين المذبح، ورشم الصليب أمام رأس "هيراكليس"، وقال:

- تزوج "هيراكليس" خادم الرب بـ"ماريا" خادمة الرب. باسم الأب والإبن والروح القدس، آمين، آمين، آمين.

ثم التقط القسيس خاتمي الزواج ثانية ورشم الصليب أمام رأس "ماريا" وأعاد ما قاله ثانية، قبل أن يضع خاتمها في إصبع "هيراكليس" الثالث من يده

اليمنى، وخاتمه في إصبع "ماريا" الثالث من يدها اليمنى. ليتبادل الزوجان الخواتم ثلاث مرات، بينما القسيس يتلو الصلوات الختامية، وهكذا انتهت مراسم الزواج.

خلال مراسم الزواج الأخيرة، تسلم "هيراكليس" و"ماريا" شموعًا ليحملانها. بارك القسيس العروسة، والعريس، و"زينون روسيديس" إشبين العريس الذي كان يقف إلى جانبه.

كان "زينون" زوج "تيريزا" شقيقة "هيراكليس"، إضافة إلى كونه صديقه المقرب. وقد حمل الخاتمين المربوطين بشريط من القماش فوق رأسي العروسين. ثم بدلهما ثلاث مرات خلال تلاوة الصلوات. بعدها، وضع الخاتمين على رأسيهما وهما متشابكا الأيدي.

أعطى القسيس "ماريا"، و"هيراكليس" و"زينون" شربة من كأس النبيذ. ثم أحاط الجمع بالمذبح ينثر الأرز والقرنفل على الزوجين كي لا تفارق السعادة ولا الرخاء أبدًا منزلهما.

عندئذ التفتت "بمبي" - التي كانت ترقب المراسم باهتمام شديد – إلى والدتها قائلة:

- لم أكن أرى قبل وصولنا هنا أي سبب يدفعني لحضور زفاف مسيحي، لكني أعترف لكِ الآن أن هذه المراسم قد حركت مشاعري بقوة.

أقيمت بعد انتهاء المراسم مأدبة عظيمة بين أشجار الفاكهة في حديقة فندق "بيريفولي" وسط "ليماسول". ورقص الضيوف رقصة "هاسابيكو أرجو" و"هاسابيكو جريجورو" على أنغام البزق، والساز، والعود، والسانتوري.

طلب "أندرياس أراوزوس" - صديق العريس وأحد أقربائه – من "بمبي" المشاركة في الرقص. إلا أنها وجدت صعوبة في مجاراة إيقاع "هاسابيكو جريجورو" السريع. وتوردت خدودها خجلًا. لكن مع انضمام المزيد من الناس إلى حلقة الرقص شعرت "بمبي" بشيء من الراحة وبدأت في مجاراة الإيقاع.

أما "أحمد غالب بك" الجالس إلى منضدته، فقد حاول قدر استطاعته إخفاء غيرته وهو يرى كيف سحرت زوجته جميع الرجال اليونانيين بفستان حريري بلون الكريمة.

مع نهاية الليلة، لم تتبق لأحد قوة حتى للوقوف، ناهيك عن الرقص. كان الرجال سكارى من الإفراط في شرب النبيذ وخمر "الأوزو" اليونانية. ملت "زهرة خاتون" من دعابات "حولقي" الثملة، فذهبت للجلوس مع عائلة "روسوس". وبعدها بقليل تركت "بمبي" زوجها و"شعيب" أخيها الأصغر الذي لم يتعد مرحلة الطفولة بعد، وجلست مع والدتها التي كانت منهمكة في نقاش مع أشخاص آخرين. جلست "بمبي" وأصغت السمع.

كانت "زهرة خاتون" تجلس إلى جوار "إفتيربي" شقيقة "مايكل ميكيليديس" وأرملة "سبيروس أراوزوس" الذي توفي قبل أربع سنوات، والذي شغل منصب محافظ "ليماسول"، إضافة إلى كونه عضوًا سابقًا بالمجلس التشريعي القبرصي. وكانت "تيريزا" ابنة "إفتيربي" تجلس في مواجهة "زهرة

خاتون"، وقد تزوجت قبل سنوات قليلة "ديموس حادجيبافلو" حفيد "كريستودولوس حادجيبافلو"، مؤسس "إتكو"، أول مصنع نبيذ في قبرص. جلست "إفتيربي" ترتدي عقدًا وأقراطًا مرصعة بالماس، كانت خير انعكاس لثراء العائلة.

كانت "بمبي" تصب كامل انتباهها على المجوهرات، عندما سألتها "زهرة خاتون":

- هل تتذكرين "كيريا إفتيربي" وابنتها "تيريزا"؟ لقد اعتادا زيارة قريتنا من وقت لآخر.

- لست متأكدة يا أمي، لا أتذكر رؤيتهما في القرية من قبل.

قالت "إفتيربي":

- لا أستطيع لومك، حيث لم نتمكن من زيارة قريتك منذ وفاة زوجي. لكني طلبت ذلك من زوج ابنتي فقال إنه سيصطحبني إلى "أفديمو" هذا الصيف.

والتفتت إلى الشاب الجالس بجوار "تيريزا" تسأله:

- أليس كذلك يا "ديموس"؟

فأجاب بأدب:

- كما تريدين.

لم يثر هؤلاء الناس إعجاب "بمبي"، وهو ما لم تحاول حتى إخفاءه. وقالت "زهرة خاتون" في محاولة لبث الألفة:

- معذرة، نسيت تقديمك.

وقدمت "بمبي" لـ"كريستيني" زوجة "ليفتيريس روسوس".

- تشرفت بمعرفتك.

قالتها "بمبي" بفتور وهي تنظر بما يشبه الذهول إلى الرجل العجوز رمادي الشعر صاحب البشرة الصافية الجالس إلى جوار "كريستيني". لقد صدمها ما بينه وبين "حولقي" خالها من شبه.

حينما رأت "زهرة خاتون" الطريقة التي تنظر بها ابنتها إلى هذا الرجل قالت:

- ألم تتعرفين على السيد "روسوس" والد "ماريا"، يا "بمبي"؟

- بلى، رأيته في الكنيسة. وسمعتك تذكرينه من قبل، لكني لم ألتق به قط.

- إن السيد "روسوس" صديق مقرب من خالك. أعتقد أنك لا تتذكرين زياراته إلى القرية في فترة طفولتك.

والتفتت "زهرة خاتون" إلى "روسوس" وقالت مازحة:

- أرأيت يا "ليفتيريس"؟ ها قد نسيك الناس.

أثارت مناداة أمها للرجل دون ألقاب دهشة "بمبي"، وصدمها مدى عمق العلاقة التي تجمعهما.

- إن ابنتك على حق يا "زهرة". لقد مرت سنوات على آخر لقاء جمعنا. وأقولها صادقًا، إني لو رأيتها في مكان آخر لما تعرفت عليها أيضًا.

تدخلت "إفتيربي" التي تابعت هذا الحوار بصمت:

- لقد تجاهلت ضيوفنا الآخرين كثيرًا يا "زهرة". اجلسي هنا وتمتعي بالصحبة.

بعد مغادرتها، انهمكت "زهرة خاتون" مع "روسوس" في حديث طويل. وشعرت "بمبي" بالضيق من الكيفية التي شغلهما بها الحديث عن كل ما يجري حولهما. لكنها حاولت إخفاء ذلك بالالتفات إلى "تيريزا" والحديث معها، فقالت:

- إن عقدك مبهر، وكذلك أقراطك. إنهما يزيدان من جمالك ويليقان بك حقًا.

شكرتها "تيريزا" باقتضاب وجفاء عبر بوضوح عن عدم اهتمامها هي الأخرى بـ"بمبي"، وزهدها في توطيد علاقتهما. سبب ذلك الضيق لـ"بمبي". وتمتمت لنفسها، "يا لك من غبية! أيتها الحمقاء! أيتها العاهرة المتكبرة!"، ولم تنطق بحرف آخر حتى انضمام "أحمد غالب بك" و"شعيب" إلى منضدتهم.

بعد ذلك، ظهرت إشارات تفيد استعداد الناس للرحيل. قال "أحمد غالب بك":

- أعتقد أن وقت المغادرة قد حان يا "بمبي"؟ ها هي أمك تودع الجميع.

وقف "روسوس" فجأة، وذهب إلى "زهرة خاتون"، يسألها:

- ما الأمر؟ إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

- سنقضي الليلة عند "حولقي"، ثم ننطلق عائدين إلى القرية في الصباح المبكر. سأذهب إليه الآن.

- إنه سكران إلى درجة تمنعه من القيام بأي شيء حاليًا. لن أتركك تذهبين إلى أي مكان في هذه الساعة من الليل. إن منزلنا كبير إلى درجة معقولة. يمكنك قضاء الليلة معنا، وستعد لكِ "كريستيني" إفطارًا جيدًا في الصباح. يمكنكِ الرحيل بعده.

- شكرًا لك، لكني لا أريد التسبب في أي إزعاج لكم. ولا أظن زوجتك تسر بهذه الفكرة.

- أرجوكِ، لا داع لقول ذلك! أنا واثق أن ذلك سيسعدها.

والتفت يسأل زوجته:

- أليس كذلك يا "كريستيني"؟

- بالتأكيد، سنسعد جميعًا بذلك!

لم تكن أمام "زهرة خاتون" فرصة للتملص. وفي النهاية، سارت خلف "روسو" و"كريستيني" إلى عربات الخيل المنتظرة، ومعها ابنها، وابنتها، وزوج ابنتها.

صعد السيد "روسوس" وزوجته إلى العربة الأولى، وصعدت "زهرة خاتون" و"بمبي" ابنتها، و"أحمد غالب" زوج ابنتها، و"شعيب" أخوها الأصغر إلى العربة الثانية. انطلقت العربتان لتصل إلى قصر "روسو" ذي الطابقين المطل على البحر خلال خمس دقائق. فتح أحد الخدم الباب ليسمح بدخول العربات. وخرجت "كريستيني" من العربة مسرعة لترافق ضيوفها.

وبينما يقدم "روسوس" شراب البرتقال المسكر إلى ضيوفه، صعدت "كريستيني" السلم مع الخادمة لتجهيز الغرف. وعادت بعدها لتعلن:

- جميع غرفكم جاهزة. يمكنكم الصعود من هنا.

وقادتهم إلى الجزء المخصص للضيوف في الطابق الأعلى.

- هذه غرفتكِ يا "زهرة". إنها غرفة جميلة وفسيحة وتطل على البحر. آمل أن تجدي الراحة فيها. كما جهزنا غرفة لابنك أيضًا، لكن نظرًا لصغر سنه، يمكنه النوم على الكنبة هنا إذا شعر بالخوف ليلًا.

- لا، لا، سينام الليلة بلا مشاكل. إنها غرفة جميلة، شكرًا لكِ.

- أنا سعيدة لذلك، كنت أتشوق لمعرفة رأيك فيها. سيقدم الإفطار في التاسعة. لكن بإمكانكم النزول في أي وقت. تصبحين على خير الآن.

- تصبحين على خير.

ثم أرشدت "كريستيني" "أحمد غالب"، و"بمبي" إلى غرفتهما.

- هذه غرفتكما، أصغر مساحة من غرفة "زهرة خاتون"، إلا أنها لطيفة وهادئة.

قال "أحمد غالب" بأدب:

- لا، لا، إنها لطيفة جدًا. شكرًا جزيلًا لكِ.

ونظر إلى "بمبي" يستحثها على قول شيء، فقالت:

- شكرًا يا سيدتي.

- ليلة سعيدة يا "غالب بك"، وليلة سعيدة لكِ أيضًا يا "بمبي".

- ليلة سعيدة يا سيدتي.

وأخيرًا، قادت "شعيب" إلى غرفته، وتمنت له ليلة سعيدة، ثم عادت إلى زوجها.

برلين / أنقرة – ٢٩/١٦ سبتمبر ١٩٢١

احتاج "كامي بك" إلى ثلاثة أيام لإعداد الستة عشر جواز سفر ومعها التذاكر. وبعد أن تسلم كل شخص جواز سفره وتذكرته والمبلغ المرسل من أنقرة، كست السعادة وجهه كموظف أتم عمله على أكمل وجه.

بعد يومين من تسلم جوازات السفر ذات الأسماء المستعارة، ذهب "جاني بك"، و"فائق بك"، و"نوزاد بك" إلى مدينة "باري" الإيطالية بالقطار. ليسافروا بعدها بيومين على سفينة إلى مدينة "كوساداسي" التركية، لكن "علي إحسان باشا" فضَّل الإبحار بعدهم بأسبوع على متن إحدى السفن من ساحل إقليم "بوليا" الإيطالي، إمعانًا في التمويه.

أمَّا "تحسين بك"، و"شكري بك"، و"كمال بك" فقرروا الانتقال من روما إلى برلين في أسرع وقت، ووافقهم الآخرون على ذلك. وفي يوم مغادرتهم روما، أرسلت وزارة الخارجية البريطانية إلى نظيرتها الإيطالية تعلمها بأمر الفارين من مالطا، وتطلب منها تزويدها بالمعلومات بما يؤكد أو ينفي تواجد الهاربين في إيطاليا. اتصلت الخارجية الإيطالية بـ"كامي بك" وشرحت له الوضع، لكن "تحسين بك" ورفاقه كانوا قد وصلوا إلى برلين بالفعل.

لكن أكثر أجزاء القصة إثارة كان عزوف "نيازي باشا" – سفير الدولة العثمانية في روما – عن تقديم أي مساعدة للهاربين خلال كل هذه الفترة.

اتفق الرجال بعد وصولهم إلى برلين على التفرق كل في طريقه الخاص، فمنهم من قرر العودة إلى تركيا في أسرع وقت، ومنهم من فضَّل البقاء في برلين بعض الوقت. وبعد أسبوع من الراحة، استقل "تحسين بك" مع خمسة من رفاقه القطار المتجه إلى مدينة "أوديسا" الأوكرانية.

كانت الرحلة من مالطا إلى برلين مليئة بالأخطار والمغامرات، بينما كانت الرحلة من برلين على العكس من ذلك؛ هادئة وتخلو من أية أحداث، فهي تمر عبر بلدان صديقة. إلا أن ذلك لا ينطبق على الرحلة البحرية من "أوديسا" إلى "أني بولو"، خلال الساحل التركي للبحر الأسود.

لا تملك "أني بولو" أية مواني، لذا لم يكن بإمكان سفن نقل الركاب الرسو هناك، لكن سفن البضائع كانت تنقل بعض الركاب أحيانًا. وبعد موافقة أنقرة، قام "سعيد بك" - ممثل الحركة القومية الأناضولية في برلين – بحجز اثنين من كبائن طاقم سفينة شحن تتبع "الشركة الروسية للملاحة والتجارة في أوديسا"، التي تعرف اختصارًا باسم "روبيت".

أسس "نيكولاي أركاس" "روبيت" عام ١٨٥٦. وتولت إدارة مكاتب البريد في العديد من مدن الإمبراطورية العثمانية حتى سبتمبر ١٩١٤. ثم أممت الشركة وتم البدء في استخدامها في الأغراض العسكرية أيضًا. حيث تنقل سفن الشركة البضائع التجارية بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، لكن بإمكانها نقل الشحنات العسكرية أيضًا إذا استلزم الأمر.

في الساعة الرابعة وعشر دقائق مساءً، وصل قطار "تحسين بك" ورفاقه إلى محطة "أوديسا". وأخرج "كمال بك" قصاصة ورق من جيبه الأيمن مدون فيها العنوان الذي يقصدونه، وقرأه عاليًا ليصل إلى مسامع الجميع. طلب "شكري بك" الورقة ليسأل كشك الصحف المجاور عن الطريق. فأخذها من يد "كمال بك" وأعطاها إلى بائع الصحف، الذي قرأها وقال: "مقاطعة بريموريسكا". وخرج من الكشك وأشار إلى الطريق. وعند وصولهم إلى الطريق الموازي للساحل الذي أرشدهم البائع إليه، قال "شكري بك":

- لا بد أنه هذا الطريق.

وحاول قراءة اللافتة المعلقة على الناصية، لكنه فشل في ذلك حيث كانت مكتوبة بالحروف الكريلية. ثم عرض الورقة على أحد المارة وسأله:

- "بريموريسكا"؟

لكن الرجل تجاهله. فسأل أشخاص آخرين لم يختلف رد فعل أي منهم عن الأول. إلى أن نظرت امرأة عجوز إلى العنوان أخيرًا وضحكت، مشيرة إلى المبنى الذي يقفون أمامه تمامًا. كان المبنى يحمل لافتة كبيرة مدون عليها "بريمورسكا يوليتسا ١٥". فقال "تحسين بك":

- يا إلهي! أنت تسأل عن الطريق بينما نحن واقفون أمام المبنى يا "شكري"!

وضحك الجميع، ودخلوا المبنى وما يزال ضحك البعض لم يتوقف.

دخلوا مكتبًا كان دهان سقفه مقشرًا، وجدرانه متسخة، وتصدر أرضيته صريرًا عند وطئها. تضم الحجرة أربعة مكاتب، وأربعة مقاعد، واثنين من خزائن الملفات. كان أحد الموظفين يجلس إلى مكتبه منشغلًا بقراءة الصحيفة. لم يهتم حتى بالنظر إليهم عندما أغلق الباب مصدرًا دويًا. لقد تجاهل الرجال الذين جاؤوا يضحكون ويتبادلون الحديث.

اقترب "شكري بك" من المكتب بتردد وخاطب الموظف بالإنجليزية. وعندما أدرك أن الموظف لا يفهمها، أخرج قصاصة ورق وقال "س. س. البيتري"، وهو ما لم يفهمه الرجل أيضًا. لكن لما تناول منه القصاصة وقرأ اسم السفينة وضع الصحيفة على المكتب الذي فقد معظم طلائه، وأخرج قائمة من أحد الأدراج. وقال:

- حسنًا، حسنًا! جواز السفر!

فاستدار "شكري بك" إلى رفاقه قائلًا:

- أيها السادة، إنه يطلب جوازات السفر.

فأخرجوها من جيوبهم بسرعة وناولوه إياها. قارن الموظف بين الأسماء المدونة في الجوازات وبين القائمة، قبل أن يعيدها إليهم قائلًا:

- جيد، حسنًا.

وأشار بيده يطلب منهم الانتظار.

قطع التذاكر ووضعها على المكتب. كتب رقم ١٢٠ على قطعة ورق وناولها إلى "شكري بك"، الذي التفت إلى زملائه قائلًا:

- على كل منكم دفع عشرين روبل.

ثم جمع المبلغ منهم ودفعه إلى الموظف، فناول "شكري بك" التذاكر. وكتب على الورقة نفسها "٩:٠٠"، وقال:

- غدًا صباحًا.

وأعطاها إلى "شكري بك". ليغوص الموظف في صحيفته ثانية قبل أن يخطو أي منهم خطوة خارج الباب.

بعد مغادرة وكالة النقل، ذهبوا إلى فندق "لندنسكايا" على الناحية الأخرى من الميناء. طلب "تحسين بك" من موظف الاستقبال حجز ثلاث غرف مزدوجة. فتفقد الموظف الدفتر، ثم طلب منهم الجوازات. بعدها دوَّن الأسماء في الدفتر وناولهم ثلاثة مفاتيح مربوطة بثلاث حلقات نحاسية ثقيلة. استيقظ الرجال في الصباح وقد نالوا كفايتهم من الراحة، بعد حمام دافئ ونومة هنيئة، توجهوا إلى الميناء للعثور على السفينة قبل موعد الإبحار بساعتين. وفوجئوا عندما اكتشفوا أنهم سيسافرون إلى "إني بولو" على متن سفينة شحن.

أخذت السفينة تشق طريقها في البحر الأسود، ووقف "تحسين بك" و"شكري بك" على ظهرها يثرثران ويراقبان "أوديسا" وهي تتوارى عن الأبصار.

- يا للسرعة التي تغيرت بها الأوضاع يا "شكري"! كنا مجرد مجموعة من السجناء البائسين قبل أسبوعين فقط، وها نحن الآن في طريقنا إلى الأناضول.

- أدعو اللـه أن يقينا شر السفن الحربية البريطانية.

- لا أرى سببًا للخوف من ذلك. فما الذي سيدفع سفينة حربية بريطانية إلى الاشتباه في سفينة شحن؟

- من يدري؟ أليس الحصار مستمرًا حول الأناضول؟

- بلى، بالتأكيد، لكن احتمال قيامهم بأي شيء الآن ضعيف جدًا. ألم تسمع ما قاله لنا "سعدي بك" ممثل الأناضول في برلين؟ لقد تراجعت بريطانيا عن كامل دعمها للجيش اليوناني بعد هزيمته في "صقاريا".

- أنت محق يا "تحسين"، لم يخطر هذا على بالي.

لم يتمكن "تحسين بك" و"شكري بك" من الحديث لفترة طويلة، فعندما صارت السفينة على بعد ثمانية أو عشرة أميال عن ساحل "أوديسا"، تحول النسيم القوي القادم من الشاطيء إلى عاصفة، وازدادت العاصفة قوة مع تقدم السفينة في اتجاه الجنوب الشرقي، حتى طال رذاذ الأمواج - التي تضرب مقدمة السفينة - كل السطح.

وبينما هما يجلسان في راحة على سطح السفينة، لاحظ "شكري بك" البلل الذي يصيبه من الرذاذ، فقال:

- سيغرقنا هذا الرذاذ إن بقينا هنا أكثر من ذلك. إن ساقي البنطلون ابتلا تمامًا. هيا إلى الداخل.

وتبعه الجميع إلى الكبينة.

استمرت العاصفة حتى الغروب. كانت الرياح تهب بسرعة خمسين عقدة. وشحبت الوجوه من فرط تلاعب الأمواج بالسفينة كما لو كالريشة حتى وصل

الإعياء بالبعض إلى درجة التقيؤ. كما أصيب بعض الطاقم المعتاد على العواصف بدوار البحر. لكن كان من حسن الحظ أن هدأت العاصفة بعض الشيء مع قدوم الظلام، وزالت جميع أثارها تمامًا مع قدوم الصباح.

أبحرت السفينة طوال اليوم في مياه هادئة. وفي المساء، طلب "شكري بك" من "تحسين" إحضار كمانه وإمتاعهم ببعض الموسيقى الجيدة، بعد أن أصابه الملل من مراقبة البحر لساعات. بالفعل، نزل "تحسين بك" إلى الكابينة وأحضر الكمان الساكسوني المصنع يدويًا، الذي اشتراه من متجر للأدوات المستعملة في برلين بسعر جيد. أخرجه من الحافظة، وبدأ في عزف أغنية تركية عتيقة وشعبية، بمصاحبة تمتمات "شكري بك".

“Yine bir gülnihal

Aldı bu gönlümü

Sim ten, gonca fem

Bibedel ol güzel.”

"ها هي شجرة الورد مجددًا

تخطف قلبي مغرمًا

يا لفضية قشورها وجمال أطرافها

حقًا لا يقدِّر جمالها".

وصلت السفينة إلى "إني بولو" في الأمسية الثالثة. ورسا القبطان "فارشينكو" - قائد "س. س. البيتري" الإيطالية الصنع – على مسافة من الشاطيء لشدة ضحالة المياه هناك. وفور إلقاء المرساة، عمت السفينة موجة من النشاط الحاد. فتح بعض الطاقم بوَّابات المخازن وراح آخرون يخرجون الصناديق إلى السطح، بينما قادة الزوارق يجدفون بأقصى قوتهم قادمين من بعيد باتجاه السفينة.

اتجه القبطان نحو الركاب الذين يراقبون الطاقم النشيط على سطح السفينة، وقال:

- أيها الرفاق، ها أنتم تشهدون الدعم الكامل الذي يقدمه رفاقكم السوفييتيين للجيش التركي في صراعه ضد الإمبرياليين.

تبادل الجميع نظرات الدهشة، وكان ذلك حق لهم. فلم تكن سفينتهم سفينة شحن عادية، بل كانت تحمل الأسلحة إلى الأناضول، إلى جيش "مصطفى كمال" بالتحديد، طبقًا لبنود "معاهدة موسكو للصداقة والإخاء"، الموقعة بين روسيا والحكومة التركية الجديدة في ١٦ مارس ١٩٢١.

أخفى القبطان وطاقمه هذه المعلومة عن المسافرين رغم كونهم أتراكًا، إمعانًا في السرية. وهكذا لم يعرف أحد منهم بحقيقة حمولة السفينة إلا بعد رسو السفينة قرب "إني بولو".

* * *

عند وصل "تحسين بك" إلى أنقرة أدرك أنه سيجد بعض المشقة في العثور على مكان للسكن، إلا أنه تغلب على هذه المشكلة في يوم الوصول بمساعدة بعض رفاقه في الجمعية الذين تعرف عليهم في إسطنبول. حيث تمكن من العثور على حجرة في فندق لائق في "أولوس"، على مقربة شديدة من مبنى البرلمان. وفور دخوله الحجرة هذا المساء وضع حقيبته الصغيرة التي تحوي ملابسه الداخلية، وقمصانه، وما جاء به من برلين، وكمانه على الفراش.

فتح "تحسين بك" الحقيبة وأخرج الشيء الوحيد الذي جلبه معه من مالطا؛ المفكرة التي دوَّن فيها مذكراته. ثم وضع المفكرة على المنضدة وأزاح الستارة قليلًا.

كانت يمكنه رؤية مبنى البرلمان عبر النافذة. وبينما كان "تحسين بك" ينظر إلى المبنى عصفت به الأفكار. كان قد عجز عن حفظ مكانه في البرلمان الجديد، الذي بدأ انعقاده في ٢٣ أبريل ١٩٢٠، بسبب اعتقال البريطانيين له يوم حل البرلمان السابق، وإرساله إلى المنفى بعدها بيومين. وبينما الآخرون يغادرون إسطنبول متجهين إلى الأناضول للدفاع عن استقلال البلاد، كان هو محتجزًا في مالطا. أثار ذلك الألم داخله. لكنه سعيدٌ الآن لقدرته على استرداد مكانه في البرلمان بعد غيابه الطويل، وبهذا سيتمكن من مواصلة الكفاح من حيث توقف، لكن الذي كان يزيده سعادة حقًّا، ويملؤه فخرًا أيضًا، هو الدعوة التي تلقاها لتناول العشاء مساء الغد في مقر المشير "مصطفى كمال باشا" بين مزارع كروم "كانكايا".

أغلق "تحسين بك" الستائر، ووضع الحقيبة على الأرض، وتكور إلى جوار كمانه ليغرق في النوم فورًا.

"إنها أكثر الليالي ظلمة... الرياح تعوي... البحر هائج... تبحر سفينة عبر العاصفة تتقاذفها الأمواج التي ترسل شلالات من الرذاذ عاليًا في الهواء... تغوص السفينة وتعلو مع الأمواج مرة تلو مرة... تغسل الأمواج سطح السفينة ثانية... إنه وحيد على سطح السفينة... لا أثر لإنسان آخر... تقترب موجة ضخمة أخرى... يمسك بالسور كي لا تجرفه الموجة... لكنه لا يستطيع حماية نفسه من الرذاذ... بصعوبة شديدة نجح في الدخول... تذكر المذكرات فجأة وهو يجفف جسده... أخرج مفكرته من جيبه... يريد فتحها وقراءتها... لكنه لا يستطيع... الصفحات مبللة وملتصقة... لا يستطيع الفصل بين الصفحات... يجرب ثانية... لكن لا فائدة".

استيقظ "تحسين بك" مع رجفة، صائحًا: "مفكرتي! مفكرتي!"، ونهض وذهب إلى المنضدة التي ترك عليها المفكرة، قلَّب أوراقها وهو بين اليقظة والنوم. وعندما هم بتركها تذكر شيئًا ما. قلَّب الصفحات، وتوقف عندما عثر على المقطع المراد وبدأ يقرؤه.

"...كان تواجد خالي "سليمان" في مسجد "ساعتلي" أثناء مقتل القنصلين من قبيل الصدفة. ألقت الشرطة القبض عليه لكنه تمكن من الهرب في لحظة غفلة منهم. واختبأ عامين في الجبال قبل هربه إلى قبرص".

ومع قراءته للجملة الأخيرة تغيَّرت تعبيرات وجهه. لم يتردد في كتابة هذا المقطع عندما كان في مالطا، لكن ذلك أزعجه بشكل ما في تلك الساعة من النهار. ولم يستطع إدراك السبب. أغمض عينيه وفكر بعمق لكن ذلك لم يسعفه.

عندما فتح عينيه ثانية حدق في القلم الموضوع على المنضدة، وتملكه الذهول عندما تذكر أنه لم يكن في هذا الموضع قبل شروعه في النوم. فجأة ارتفع القلم في

الهواء كأن يد خفية أمسكت به، وبدأ يتحرك عبر الصفحة. شطب ما كان قد دونه وكتب أسفله: "تم شنق "سليمان بك" عمي تحت ضغط من البريطانيين، رغم براءته تمامًا من حادث اغتيال القنصلين في سالونيكا".

في تلك اللحظة، أكان "تحسين بك" مستيقظًا أم نائمًا؟ لم يعد لذلك أي أهمية أو دور بعد الآن. فعلى كل حال، كان في كتابته الواسعة تلك ومن ثم كشفه عن ذلك السر الخاص بالعائلة راحة له من عبء أثقل ظهره طويلًا. من الآن فصاعدًا، لم يعد "سليمان" عمه الأصغر الرجل الهارب إلى قبرص خوفًا من الإعدام. بل عاد ثانية - كما أخبروه في طفولته – رجلًا بريئًا تم شنقه ظلمًا تحت ضغط البريطانيين، وهكذا تم الحفاظ على سر العائلة.

أغلق "تحسين بك" المفكرة وذهب إلى الحمام ليغسل وجهه بالماء لمزيد من اليقظة.

ظل السر الذي أفضى به "تحسين بك" إلى قلمه محجوبًا عن الجميع لسنوات عدة. إلى أن قام "واصف غالب بك" القبرصي، وهو في الثمانين من عمره، بجمع أجزاء القصة معًا مستعينًا بما قصته عليه والدته "بمبي هانم" خلال طفولته، وهكذا أزال التراب عن الحقيقة التي ضلت طريقها بين متاهات الزمن المظلمة.

ليماسول/إفديم – ٢٠ يوليو ١٩٢٨

عجزت "بمبي" عن النوم حتى الصباح. عانت طوال الليل من أفكار تعصف بذهنها. كان كل شيء يبدو أمام عينيها غريبًا، الدعوة إلى زفاف عائلة "روسوس"، والسفر من القرية إلى هناك، والمحادثة الدافئة بين أمها و"روسوس"، واستضافة آل "روسوس" لهم، كل شيء كان غريبًا.

أزاحت الستائر ورأت الإفطار يوضع على المنضدة أسفل التعريشة. فأيقظت زوجها قائلة:

- إنهم يقدمون الإفطار في الحديقة. خذ ما يلزمك من الوقت للاستعداد انزل. سأذهب لأخبر أمي ثم أعود.

كادت تتعثر في طريقها إلى حجرة أمها. هناك طرقت الباب برفق، ودخلت بعد سماعها إذن والدتها.

- صباح الخير يا أمي.

- صباح الخير. ماذا هناك؟

- لقد أطللت عبر النافذة، يبدو أن الخدم بدؤوا في إعداد مائدة الإفطار في الحديقة.

- أوه، لا، لقد تسببنا لهم في الإزعاج.

- هذا ما لا أفهمه يا أمي. ما الذي جاء بنا إلى هنا؟ أخبريني بما يجري أرجوكِ.

- ظننتكِ أتيتِ لإخباري بأمر الإفطار.

- أجل، لكني أريد منك إخباري ما سبب كل هذه الألفة. لو لم يكن السيد "روسوس" متزوجًا لأثار ذلك في نفسي بعض الشكوك.

- كيف تجرؤين؟ عار عليكِ، عار عليكِ! كيف تخاطبين والدتك هكذا!

- إذا أخبريني بما يجري.

- حسنًا، أعدك أن أخبرك بكل شيء فور عودتنا إلى القرية. لكن ليس الآن، ليس هنا.

- لا، أرجوك أخبريني الآن.

- موافقة، لكني لا أظن ترك الناس منتظرين بالأسفل تصرفًا لائقًا.

- لم أر سوى الخدم في الحديقة. لا أظن السيد "روسوس" وزوجته قد استيقظا بعد. يمكننا النزول حينما يرسلون في طلبنا.

أدركت "زهرة خاتون" أنها لا تملك خيارًا سوى سرد القصة كاملة. رغم الغصة التي شعرت بها في حلقها عندما حاولت التكلم.

- هيا يا أمي، توقفي عن إضاعة الوقت وابدئي الحديث.

شعرت "زهرة خاتون" للمرة الثانية بغصة في حلقها، لكنها بدأت في الكلام.

- اسمعي، إنه سر عائلي كبير. لا تخبري به أي شخص أبدًا. لقد حملته على ظهري زمنًا طويلًا. لكني الآن أرى أن الوقت قد حان لإطلاعك عليه.

كانت "بمبي" متلهفة لسماع السر الذي توشك والدتها أن تبوح به. فعقدت ذراعيها وأصغت السمع.

- لا شك أنك لا تتذكرين الكثير عن جدك "سليمان". فقد مات وأنت طفلة صغيرة. اتُّهِم جدك في شبابه بالتورط في حادثة وقعت في مسجد "ساعتلي" في "سالونيكا" أسفرت عن مقتل قنصلين. خشي جدك الوقوع في قبضة الشرطة ومن ثم شنقه، فاختبأ في جبال مقدونيا طوال عامين قبل أن ينجح في الهرب إلى قبرص. ولم يعد إلى "سالونيكا" قط.

كانت "بمبي" مندهشة لما سمعته للتو، وتنتظر بفارغ الصبر معرفة ما ستؤول إليه الأحداث. وحينما صمتت أمها دقيقة سألتها باستعجال:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- عندما وصل جدك إلى قبرص، كانت الجزيرة ما زالت تحت الحكم العثماني، إلا أنه تم التنازل عنها لصالح البريطانيين بعد ستة أشهر. أخفى جدك هويته الحقيقية وأطلق على نفسه اسم "محمد". أظنه كان اسم أخيه الأكبر الذي قتله متطرفو مقدونيا. سكن فترة في حجرة صغيرة بفندق قرب الميناء. أجَّر بعدها منزلًا لنفسه في "ليماسول". كما بحث عن وظيفة، لكن اليونانيون رفضوا توظيفه. فاضطر إلى العيش على المبلغ الذي جاء به. لكن أبي

كان رجلًا ماهرًا، بدأ يتاجر في الأغنام على نطاق ضيق، وبمرور الوقت تمكن من جني مبالغ جيدة من ذلك العمل. كان يسير في أحد الأيام برفقة أحد زملائه التجَّار في شوارع "ليماسول"، حينما قابل فتاة يونانية وأغرم بها. تمكن من تبادل بعض الكلمات معها قبل أن يقترح عليها اللقاء مرة أخرى. ورغم إعجاب الفتاة به هي الأخرى، فقد أخبرته أنه لا يسعهما اللقاء ثانية. عندما استفسر جدك عن السبب، أخبرته أن والدها كاهن محلي. لكنه أصر على رؤيتها ثانية، فتقابلا في اليوم التالي. استمرت لقاءاتهما على هذا المنوال، وسرعان ما نما الحب في قلبيهما. وبعد فترة من الزمن، عرض جدك الزواج على الفتاة، لكنها أخبرته باستحالة ذلك حيث لن يسمح أباها بزواجها من مسلم أبدًا. رغم ذلك أصر جدك على أن بإمكانهما التوصل إلى حل ما دامت متمسكة به حقًّا. باختصار، توسلت الفتاة إلى أبيها. وهددت بالانتحار إذا لم يسمح لها بالزواج منه، لكن والدها رفض حتى مناقشة الأمر، ففرا معًا في نهاية الأمر. وفي اليوم التالي قصدا الحاج "صالح خوجا" إمام تكية "بيري علي".

- الحاج "صالح خوجا"؟ هل تقصدين جدي "صالح خوجا"؟

- أجل، كان جدك "سليمان" وجدك "صالح خوجا" أصدقاء مقربين. لكن توقفي عن المقاطعة واستباق الأحداث.

- معذرة، أكملي من فضلك.

- تلت الفتاة الشهادتين في اليوم التالي لهروبهما، وصارت مسلمة وتزوجت من جدك. غيَّرت اسمها من "إليفتيريا" إلى "فريدة".

- إذًا فقد تزوج جدي من فتاة يونانية؟ هل تقصدين ذلك؟

- أجل، تزوج فتاة يونانية.

في تلك اللحظة جاء "شعيب" الذي يصغر "بمبي" شقيقته بسنوات عدة، وطرق الباب مناديًا:

- ألن تأتي لتناول الإفطار معنا؟ إن الجميع ينتظرك.

كان توقيت وصول "شعيب" مثالي، فاستغلت "زهرة خاتون" ذلك وأخبرته أنهما سينضمان إليهم، وتحركت باتجاه الباب.

جلس الجميع في أماكنهم حول المائدة الخشبية المستطيلة أسفل التعريشة. وجلس السيد "روسوس" على رأس المائدة في مقعد حديقة خشبي، بينما تجلس زوجته في الناحية الأخرى من المائدة. جلس الآخرون على دكك خشبية على جانبي المائدة. وأجلس السيد "روسوس" "أحمد غالب بك" عن يساره، وحجز نظيره الأيمن لـ"زهرة خاتون"، التي ما إن رآها تخرج من المنزل متجهة إليهم، حتى قال مازحًا:

- شعرنا بالقلق عليك. ماذا حدث؟ كدنا نموت جوعًا خلال انتظارنا لك. كنت ألتهم فتات الخبز خلسة، دون إثارة انتباه "كريستيني".

حافظت "زهرة خاتون" على هدوئها.

-معذرة على التأخير. احتجت إلى مناقشة "بمبي" في موضوع بسيط.

واتخذت مجلسها عن يمين السيد "روسوس"، بينما جلست "بمبي" إلى جوار زوجها. بدأ الجميع في تناول الطعام بعد أن تمنى لهم السيد "روسوس" وجبة طيبة.

لم تستطع "بمبي" رفع عينيها طوال الجلسة عن والدتها والسيد "روسوس". كانت تراقبهما باهتمام. لم تفهم سبب الألفة التي تطغى على حديثهما، كما لو كانا أصدقاء قدامى، ولم تفهم سبب مناداة السيد "روسوس" والدتها في بعض الأوقات بـ"زهرة مو"!

عندما توقفت عربة الخيل التي أرسلها "حولقي" أمام منزل آل "روسوس"، كانوا قد انتهوا من الطعام منذ فترة، وخاضوا في حديث ممتع. توجه السيد "روسوس" إلى بوابة الحديقة عند سماعه صوت العربة. ورغم انتظاره وصول عربة "حولقي"، فقد سأل السائق عن سبب مجيئه. أجاب السائق:

- أرسلني "حولقي بك" يا سيدي. أنا هنا لاصطحاب الضيوف المتجهين إلى "إيفديم".

كان السيد "روسوس" لا يرى حاجة لإيجار عربة، لما كان بوسعه إرسال عربته الخاصة معهم.

عاد السيد "روسوس" إلى ضيوفه قائلًا:

- لقد أرسل "حولقي" العربة من أجلكم. لو لم يفعل لجلسنا فترة أطول ولأرسلت عربتي الخاصة معكم. لكن العرف لا يسمح برد العربة الآن. لذا أرى ألا نترك السائق ينتظر طويلًا.

لم يتبادلا كلمة طوال طريق العودة. وحاول "أحمد غالب بك" إخبار "بمبي" بشيء ما، لكنها لم تبد أي اهتمام. فلم تكن قد تصالحت بعد مع استضافة عائلة "روسوس" لهم، ولا مع ما أخبرتها به والدتها قبيل الإفطار. علاوة على دهشتها من تقبيل السيد "روسوس" واحتضانه والدتها كأنهما يودعان بعضهما، وحبس والدتها دموعها وهم يبتعدون عن منزل عائلة "روسوس" في عربة "حولقي بك".

أيقنت "بمبي" أن القصة أكبر بكثير مما أخبرتها به والدتها حتى الآن.

* * *

ومع اقتراب العربة من قرية "إيفديم"، قالت "زهرة خاتون":

- أشعر بتعب شديد. سأحتاج إلى قيلولة وشيء من الراحة بعد افتراقي عنكم مع "شعيب"، ولنلتقي ثانية في المساء.

غمزت "بمبي" لزوجها والتفتت إلى أمها قائلة:

- سأذهب معك يا أمي. فربما يود "أحمد" الذهاب إلى المقهى. ما رأيك يا "أحمد"؟

لم يكن "أحمد" يعرف ما دفعها إلى قول ذلك، ورغم ذلك أجاب:

- أجل، سأذهب للقاء بعض الأصدقاء.

وهكذا واصل "أحمد" طريقه مع العربة بعد مغادرتهم.

سحبت "بمبي" والدتها جانبًا عند دخولهم المنزل، وقالت لشقيقها الأصغر:

- هلا تركتنا بعض الوقت يا "شعيب"؟ أحتاج إلى الحديث مع أمنا في أمر ما.

لم يكن يملك "شعيب" أدنى فكرة عما يحدث، إلا أنه لم يعترض، بل اتجه إلى حجرته على مضض. بعد رحيله، قالت "بمبي":

- هيا يا أمي، فلنكمل من حيث توقفنا. أخبريني ببقية القصة.

- أمهليني بعض الوقت لالتقاط أنفاسي.

- لا تتركيني في حيرتي يا أمي. لقد جلست طوال طريق العودة أفكر فيما قلتيه.

- حسنًا، حسنًا. أين توقفنا؟

- كنتِ تحكين عن هرب جدي مع الفتاة اليونانية. قلت إنهما ذهبا إلى الحاج "صالح" جدي وزوجهما.

- نعم، تذكرت الآن. أجل، أسلمت الفتاة وتزوجت جدك.

- قضيت كل وقتي أفكر في ذلك يا أمي. ماذا حدث بعدها؟ هل انفصلت عن جدي فيما بعد؟

- لا، لم ينفصلا.

- ماذا تعنين؟

- لا أعرف كيف أخبرك بذلك. إن الفتاة اليونانية التي هربت مع جدك هي أمي.

- أمك؟ لحظة من فضلك يا أمي! صرت مشتتة الذهن الآن. هل تقصدين جدتي؟ إذًا فماذا حدث لها؟

- صبرًا يا عزيزتي.

- حسنًا، أكملي، ماذا حدث لها؟

- اصبري وسأخبرك. ولد "حولقي" بعد زواجهما بعام، وولدت "فاطمة" بعده بثلاثة أعوام. وولدت أنا بعد "فاطمة" بعامين. وعندما بلغت الرابعة قرر والدي الاستقرار في "إيفديم". عارضت أمي الفكرة في البداية، ثم استسلمت آخر الأمر. بعد انتقالنا إلى هناك، وُلد "فريد" أصغر أخوالك. أذكر أني و"فاطمة" كنا المفضلين عند أبي، أو لعل الأمر بدا لي هكذا حينئذ. كان يلعب معنا دائمًا. ويعلمنا الصلاة أحيانًا. كما أتذكر حبه لـ"حولقي". لكن ماذا عن "فريد"؟ ماذا حدث له؟ اعتقد أن أمي اضطرت إلى اعتناق الإسلام لتتمكن من الزواج، إلا أنها لم تقتنع به بصورة كاملة أبدًا. حينما بلغ "حولقي" سنًا مناسبًا بدأ يذهب إلى مسجد القرية برفقة أبي، بينما كان "فريد" يتفنن في اختلاق الأعذار التي تجنبه الذهاب إلى المسجد، ربما كان تأثير أمي عليه سبب ذلك. لم لا؟ ألم يصل به الأمر إلى السخرية من ذهاب "حولقي" إلى المسجد.

- كيف لم أقابل أخيك "فريد" من قبل؟ أين هو الآن؟ أما يزال حيًا؟

- لا تقاطعيني وإلا انقطع حبل الأفكار. اصبري وسأخبرك بكل شيء.

- ...

- لن يسمح لك صغر سنك حينها بتذكر الأمر الآن، لكن جدك أصيب بمرض عضال في أحد الأيام.

- كيف أنساه يا أمي؟ لن أنس اليوم الذي دفع فيه بقال القرية إلى فتح دكانه رغم احتفال القرية بالعيد ليشتري هدية عيد ميلادي.

- صحيح؛ إذًا فأنت تذكرين. على كل حال، دعينا نستكمل القصة. فقد والدي العزيز شهيته عندما مرض، وراح يفقد الوزن بمعدل متسارع. وحينما أدرك أنه مرض لا علاج له، وأنه لن يتعافى أبدًا، استسلم له. كان ينام طوال الوقت، وإذا ما استيقظ خلا وجهه من أي تعبير. كنت أجلس إلى جواره يومًا ما، أمسك بيده. كنت وحدي معه في الغرفة. حينئذ شعر بأن الراحة الأبدية تناديه، وقال: "اقتربي يا ابنتي، واستمعي جيدًا لما سأقوله. أريد اخبارك بسر يخص العائلة لم أفصح عنه لأي إنسان قط. احتفظي بهذا السر لنفسك ولا تأمني عليه أي شخص أبدًا". ثم همس به في أذني. أخبرني بسره ثم قال: "افتحي الدرج المجاور للفراش. ستجدين هناك مفكرة. هل يمكنك إحضارها". أخرجت المفكرة من الدرج وجلست إلى جواره. طلب مني فتح الصفحة الأولى. فعلت ذلك. كانت عناوين أقاربنا في "سالونيكا" وإسطنبول مدونة هناك. ثم قال: "احتفظي بهذه المفكرة. أريد منك التواصل مع هؤلاء الأقارب بعد موتي". وبالفعل، عندما توفي أبي كتبت إلى أقاربنا هؤلاء لأخبرهم برحيله.

- ماذا حدث بعدها؟

-انتظرت الرد زمنًا طويلًا. ثم تسلمت خطابًا يوما ما. كان اسم وعنوان المرسل مدون على ظهر الظرف: "حسن تحسين" والي "أرضروم". فتحت الظرف بحماسة وقرأت الخطاب بصبر نافذ. كانت افتتاحية الخطاب: "أنا "حسن تحسين"، نجل "خديجة هانم"، شقيقة والدكم الراحل". وعندما أنهيت قراءة الخطاب شعرت أن قلبي سيتوقف. كنت من عائلة قبرصية صغيرة، وكان الانتساب إلى مثل هذه الأسرة الكبيرة في تركيا شعور غير مألوف. واصلت الاتصال بـ"حسن تحسين" ابن عمتي. ومن جانبه فقد أرسل إلي الخطابات من كل إقليم كان واليًا عليه.

- هل خدم في "دمشق" يا أمي؟

- أجل، كان "تحسين بك" واليًا على دمشق فترة من الزمن. كان ذلك بالتحديد عندما أرسل إليك بهدية زفاف، تتضمن القماش الذي فصل منه فستان الزفاف.

- سألتك عن ذلك حينئذ لكنك أحط هوية المرسل بطبقة من الغموض.

- لا داع للتطرق إلى مواضيع جانبية، دعينا ننهي القصة.

- حسنًا، كلي آذان صاغية.

- كما كنت أقول، تدهورت صحة والدي المسكين سريعًا، ومات بعد ثلاثة أيام من إخباري بالسر. بعد وفاة والدنا، أخذت أمي "فريد" وانتقلت إلى "ليماسول" قبل انقضاء حداد الأربعين يومًا التي تعقب الوفاة. سمعنا بعدها أنها ارتدت إلى المسيحية، بل وسمعنا أنها عمدت "فريد" في كنيسة، وغيرت اسمه إلى "ليفتريس". كانت أمي...

قاطعت "بمبي" والدتها فور سماعها اسم "ليفتريس":

- هل قلت "ليفتريس"؟! دقيقة من فضلك يا أمي. إن الأمور تزداد تشوشًا. لقد خاطبت السيد "روسوس" باسم "ليفتريس" ليلة أمس وصباح اليوم، أليس كذلك؟

- بلى، ناديته "ليفتريس".

- لكن لماذا؟ لماذا لم تستخدمي اسم العائلة؟ وكيف يمكنك التعامل بهذه الأريحية مع رجل كهذا؟

صمتت "زهرة خاتون"، وأشاحت ببصرها عن "بمبي"، التي كانت ترمق أمها بوجه يسوده الارتباك.

- هيا يا أمي، أخبريني! ماذا يعني ذلك؟ كيف تتعاملين مع ذلك الرجل بهذا الود؟

- أنتِ تتكلمين بغطرسة، وهذا يشعرني بالارتباك.

- إذًا أخبريني.

- سأخبرك. إن "ليفتريس روسوس" هو أخي "فريد". إنه الأخ الذي عمدته أمي في "ليماسول" بعد وفاة أبي.

- هل تعنين أن السيد "ليفتريس روسوس" هو خالي؟ لا أصدق ما أسمع!

- أحيانًا ما تكون الحقيقة مؤلمة، لكن لا سبيل إلى الهرب منها.

- لا يمكن. لا يمكن! لا أصدق ذلك! إن كانت هذه الحقيقة، لماذا أخفيتيها عني كل هذه السنوات؟

- قمت بذلك من أجل "ماريا".. من أجل مستقبل "ماريا".

- أتمنى ألا تظنين أني سأتقبل كل ما قلتيه كحقيقة كونية هكذا بكل بساطة.

- أنا لا أظن شيئًا، كل ما أريده منك يا ابنتي الحبيبة هو الحفاظ على هذا السر وعدم إطلاع أي شخص عليه. أصبحت "ماريا" طبيبة في سن مبكرة وهي محط إعجاب واحترام في المجتمع اليوناني، لو عرف الناس أن جدها مسلم فستنتهي مسيرتها العملية قبل أن تبدأ.

عرفت "بمبي" إجابة السؤال الذي أنهك ذهنها منذ الصباح وأشبعت فضولها، لكن ما عرفته قلب حياتها رأسًا على عقب. لم تعد قادرة على الاستماع إلى والدتها

أكثر من ذلك. ملأت الدموع عينيها. حاولت إخفاء دموعها بيديها. وحينما أدركت أنها لن تنجح في حبس دموعها نهضت، وقالت دون أن تنظر إلى والدتها:

- لا داع للقلق يا أمي. سيظل السر في أمان معي.

ومع وصولها إلى عتبة باب منزل أمها، في طريقها إلى منزلها، تحولت الدموع التي تجمعت في عينيها إلى سيول سالت على خديها.

صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

1. أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
2. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3. مشروع زوجة	جرايم سيمسيون	أستراليا
4. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
5. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
6. احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
7. لم يعد الحب مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
8. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
9. السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
10. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
11. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
12. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
13. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
14. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
15. خطايا الأبرياء	برهان سوماز	تركيا
16. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
17. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
18. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
19. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
20. مينتا	سوماز كاموران	تركيا
21. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
22. نساء اسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
23. توباز	هاكان جنيد	تركيا
24. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
25. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
26. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
27. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
28. كل هذا ملكي أنا	بيترا هولوفا	التشيك
29. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
30. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
31. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك

32.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
33.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
34.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
35.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
36.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
37.	مصباح أبدي	يركسي هولمانبيك	الصين
38.	رقصة الكاهنة	جين رينشوين	الصين
39.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
40.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
41.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
42.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
43.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
44.	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
45.	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
46.	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
47.	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا

كتب عامّة مترجمة:

48.	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
49.	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
50.	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
51.	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
52.	الصراع الطبقي في أفريقيا	ليو زيليج	أمريكا
53.	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
54.	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
55.	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
56.	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
57.	الثورة التشيكية	مجموعة مؤلفين	التشيك
58.	ذكريات الصين	تشين يو	الصين
59.	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
60.	الجري	ثور جوتاس	النرويج
61.	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

#كتب_مختلفة #تركيا

على بعد شارعين، تردد صدى أجراس كنيسة سانت كاترينا في غرفة "سليمان"، فأفاق من كابوسه وهو يصرخ:

– لم أحرق الكنيسة، أقسم أني لم أفعل ذلك.

كان يرتعد من الرعب وثياب نومه تقطر عرقًا.

وقف "عبد الله"، الأخ الأكبر، أمام سريره ناظرًا إلى "سليمان".

– ما الأمر يا "سليمان"؟ تبدو كمن رأى كابوسًا.

(...)

– لا أعرف يا أخي. حلمت بمسجد. كان هناك جند داخل المسجد، ثم نشب عراك، قبل البدء في مطاردتي. اصطحبوني إلى مكان يشبه السجن، ثم إلى سفينة.. نعم، كنت في سفينة. حلمت بالموج. لم أكن أعرف وجهة السفينة، وبعدها حجب الغيم الرمادي الداكن السماء. كانت ليلة طويلة ومظلمة، ثم جاء الصبح. رست السفينة في مكان ما. اتضح أنه جزيرة. كانت هناك قرية بها مسجد وكنيسة، ثم أخذ كاهن يرتدي لباسًا أسود يصيح في وجهي: "لقد أحرقت الكنيسة أيها التركي اللقيط". حاولت معهم كثيرًا، لكنني فشلت في إقناعهم. سحبوني من ذراعي. رأيت مشنقة، واستيقظت وهم يحكمون الحبل حول رقبتي.

– عسى ألا يكون نذير شؤم، دعنا نأمل ذلك.

– ما تأويل هذه الرؤيا؟

– الله أعلم. دعك من هذا، ولا تشغل بالك. إنه مجرد حلم. هيا انهض. الإفطار جاهز. هيا بنا إلى الطابق الأسفل.

بيولنت سينوكاك

ولد في إزمير بتركيا في نوفمبر عام ١٩٥٤. تخرج في جامعة إسطنبول. يتحدث الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ظل ينشر، لمدة عامين، دورية ربع سنوية عن تاريخ وديناميات المجتمع المدني في مدينة إزمير، حيث ساهم في تطوير الوسائل الفكرية هناك. كتب مقالات أسبوعية إلى الملحق الإيجي من صحيفة "الصباح" اليومية التركية. نُشر أول كتاب غير روائي له "أزمير – نجمة في المشرق العربي، المشرقيين واليونانيين والأرمن واليهود" (Izmir – Star of Levant, Levantines, Greeks, Armenians and Jews) عام ٢٠٠٣، ثم نشر كتابه الثاني غير الروائي أيضًا "الرب الإنساني" (The Humanized God) عام ٢٠١٢ ثم نشرت روايته الأخيرة "أحلام محطمة" (Shattered Dreams).

9 789773 193133

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg